السخنة محطة القوافل

ترجمة : د. ميشيل واكيم

مراجعة : زياد خاشوق



تقديم : م. فواز طالب زيدان

وثائق الدراسات الشرقية
المعهد الفرنسي في دمشق
ألبير دي بوشمان

السخنة

محطة القوافل

ترجمة : د. ميشيل واكيم   مراجعة : زياد خاشوق

تقديم : م. فواز طالب زيدان

السخنة الحدث
Alsoukhnah Alhadath

❖ السخنة (محطة القوافل)
❖ المؤلف : ألبير دي بوشمان
❖ الترجمة : د. ميشيل واكيم – المراجعة : زياد خاشوق
❖ التقديم : م. فواز طالب زيدان
❖ الطبعة الأولى : 2002م

❖ الطباعة : الصفا للطباعة والتجليد

وثائق الدراسات الشرقية

المعهد الفرنسي في دمشق

المجلد السادس

السخنة الحدث

Alsoukhnah Alhadath

كلمة لا بد منها

وفاءً لأولئك الرجال العظماء من أبناء السخنة المكافحة الذين قارعوا الحياة وقساوتها وعانوا شظف العيش ومرارته في مرحلة تاريخية صعبة لدرجة أن الكثير من الباحثين القدامى، ومنهم مؤلف الكتاب، توقعوا لهذه البلدة أن يهجرها أهلها وتبقى خاوية خلال بضع عشرات من السنين لتبقى أثراً بعد عين وخاصة بعد أن سُدّت أمامهم سبل العيش مثل تجارة القوافل التي انحسرت تماماً بعد أن حلت السيارة محل الجمل، و تجاره القلي (القلو) التي انتهت بمصانع الصابون الحديثة و الصابون المستورد والأخشاب والبطم والزيت المستخرج منه لم يعد لها وجود بسبب الحضر و القوانيين النافذة التي منعت أيضاً الإتجار بالملح واللُقى القديمة (الانتيكات) وإلى غيرها من الأعمال التي كانت تدر عليهم أرباحاً تجعلهم يواصلون العيش في هذه البلدة النائية إلاّ من زراعات بسيطة هي أقل من أن تجعلهم يواصلون الحياة في هذه المنطقة التي تواجه أقسى الظروف.

أقول وفاءً لأولئك الذين أضحوا مثالاً للصبر وتحمل الشدائد وكانوا مثالاً في العبقرية من أجل البقاء والاستمرار بالتشبث بالوطن وبنوا الأساس الذي جعل بلدة السخنة تستمر في النمو والتطور حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن من الاستقرار و التطور والحضارة وخاصة في العقود الثلاثة الماضية في عهد التصحيح المجيد الذي قاده الرئيس الراحل حافظ الأسد ومن بعده إبنه البار السيد الرئيس بشار الأسد نضع هذا الكتاب الذي

عملنا على ترجمته وطباعته بكل أمانة ودقة وصدق بين يدي قرّائه ممن يعنيهم ما احتواه من معلومات أضحى بعضها في طي النسيان كتبها باحثون أجانب التزموا الحياد ما استطاعوا هدفهم في ذلك إلقاء الضوء على أحد النماذج لمدن القوافل في قلب الصحراء و التداخلات الاجتماعية والسياسية و الاقتصادية فيها.

ونتوجه بالشكر الجزيل للقيادة السياسية التي أمدتنا بالعون والدعم.

و لا بد لي من أن أشكر الأستاذ المهندس حسام الدين الحكيم محافظ حمص الذي دعم هذا الجهد وشجعه مشكوراً.

ولا يسعني أيضاً إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل و العرفان بالجميل إلى الأستاذ الدكتور ميشيل واكيم والأستاذ زياد خاشوق اللذين بذلا قصارى جهدهما حتى رأى هذا الكتاب النور فجزاهما الله خير الجزاء.

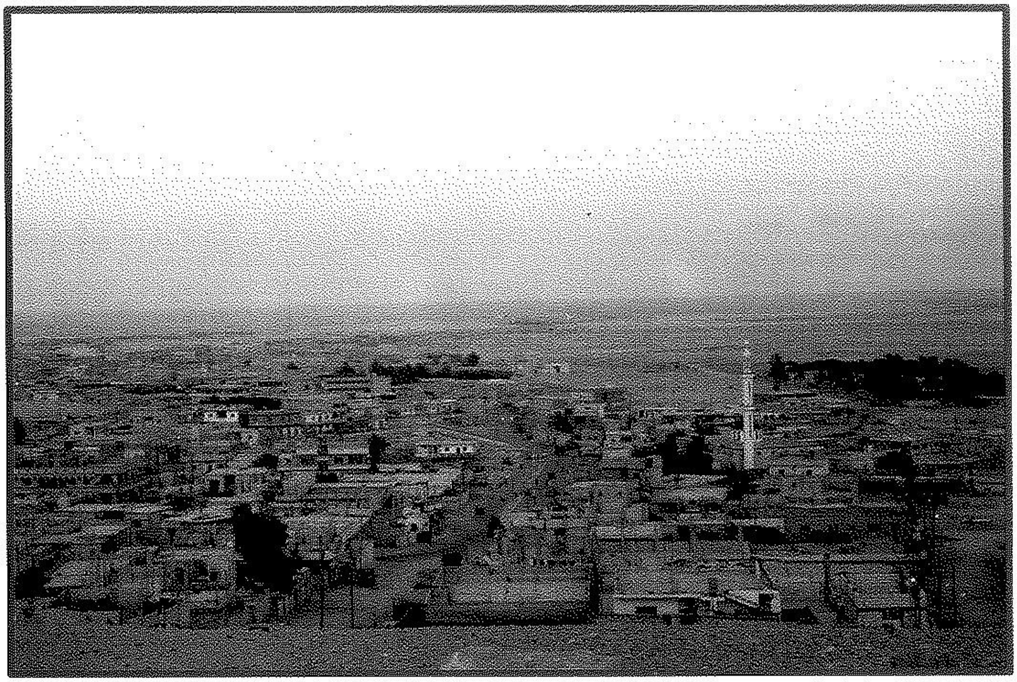
والشكر للسادة :الدكتور خالد الأسعد مدير متحف تدمر والأستاذ عيسى العزام والسيد محمد خير رحيم وعبد الرحمن الخطيب لهم جميعاً و لكل من ساهم أيضاً في إنجاز وجمع المعلومات الحديثة حول التطور الخدمي والاقتصادي و المعلوماتي لهم منا وافر الشكر والامتنان.

تقبلوا جميعاً خالص تحياتي

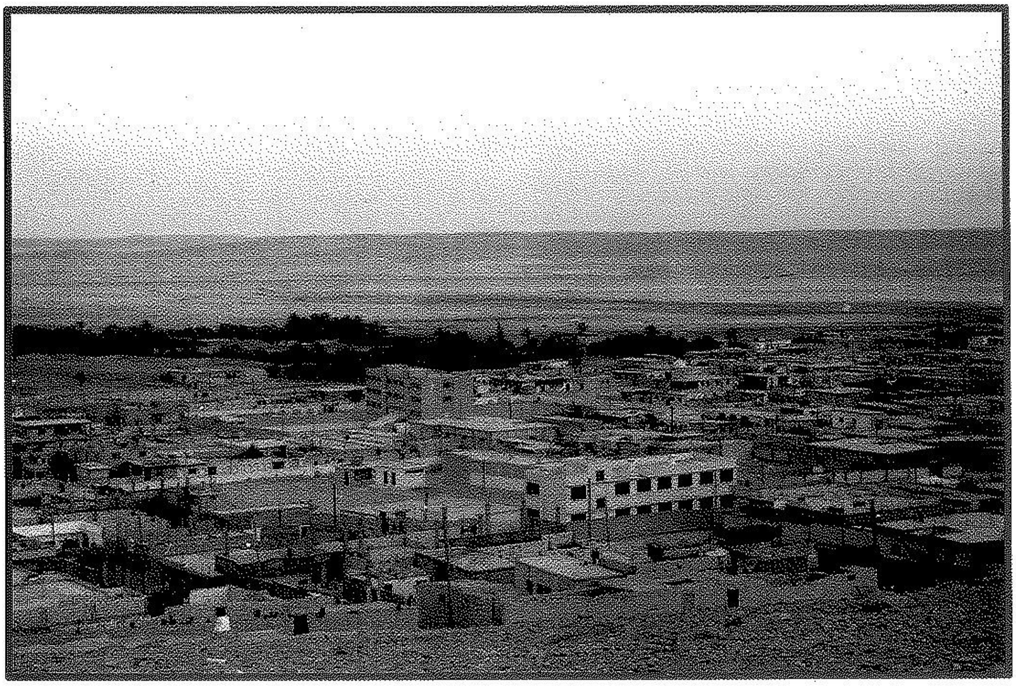
والله ولي التوفيق

رئيس مجلس مدينة السخنة

م: فواز طالب زيدان



منظر عام لمدينة السخنة



منظر عام لمدينة السخنة

السخنة

الموقع والتضاريس

تقــع الســخنة في وسط البادية السورية، تجاورها محافظات الرقة ودير الزور وحماة، عند نهاية امتداد السلاسل التدمرية باتجاه الشمال والشرق متوســطة بينها وبين جبل البشري. يرتفع شمالها جبل الضاحك (٧٨٠م) كمــا تنتهي عندها السفوح الشمالية الشرقية لجبل طنطور (٥٤٠م) وهي أبعــد تجمع سكني هام شرقي محافظة حمص. يحد توسع البلدة القديمة مــن الشــمال وادٍ سيلي واسع (الوادي الصغير) ومن الجنوب (الوادي الكبــير). يتراوح ارتفاع البلدة عموماً بين /٤٧٥م –٥٠٠م/ فوق سطح الــبحر. يجاورها نبع كبريتي ساخن درجة حرارته (+٣٢) م° تقريباً واليه تنســب تســمية الســخنة. كما يقع بجوارها تل ترابي أثري وقد أثبتت الــتحريات والدراســات الجيولوجــية علــى وجود بنيات كبيرة يحتمل احــتواءها علــى البترول والغاز. حين بُدئ في عام /١٩٦٩/ بحفر بئر الســخنة مــن قبل المهندسين الجيولوجيين السوريين ووصل الحفر إلى عمــق /٢٨٥٠/م ولازال التنقيــب جارياً حتى الآن. حيث تم حفر عدة أبــار بجــوار السخنة وتم إنشاء عدة محطات لضخ الغاز و حفر بئر في جــنوب المديــنة حيــث أن كمــية الغاز التي تعطى من البئر تزيد على (٥٠٠٠٠٠) م³ يومياً.

المناخ وتغيرات الطقس :

يصـــل متوســـط الحرارة في شهر كانون الثاني /+ ٧ مْ / وفي شهر أب /+٢٦ مْ / وتصل درجة الحرارة الدنيا المطلقة إلىمادون الصفر حتى سجلت أخفض درجة حرارة /-٧ مْ /. أما درجات الحرارة القصوى المطلقـــة فقـــد سجلت أعلاها /+٤٧ مْ / وكمية الأمطار تتراوح من صـــفر إلى/١٥٠/مم والثلج ظاهرة نادرة الحدوث ويهطل البَرَد خلال أشهر الربيع.

النباتات والحيوانات :

يعتـــبر جو السخنة جافاً وأمطارها قليلة كما قدمنا وهذا ماجعل لها أعشاب خاصـــة بها معظمها غث وقصير القامة أما الأ شجار العظيمة فلا ترى إلاّ فـــي الجـــبال ومـــنها البطم الذي يستخرج منه أهل السخنة زيتاً شهياً ويقطعـــون حطبه و يحرقون فحمه أما النباتات الفتية القصيرة القامة فمنها بعـــض النـــباتات المعمـــرة يصادفها السائر في التلال وفي الأودية منها (الروثه) و الحمض الذي تحبه الإبل حباً جماً. في الخريف، نجد الزعتر البري والشيح والقيصوم ، و بشكل خاص الشنان الذي يصنع منه ما يقوم مقام الصابون، إذ يستخرج منه القلو الذي يباع إلى معامل الصابون في حلـــب. وهناك أنواع من الأزهار تنمو في الربيع منها الخزامى و شقائق الـــنعمان. وفي سني الخصب حيث تسقط الثلوج والأمطار الغزيرة، تظهر

الكمأة (الكما) بلون أبيض وقوام طري كحبات البطاطا ولكن أخف وزناً منها، ويمكن العثور عليه في التربة الخفيفة المرتفعة نسبياً حيث تكثر الحجارة أو الحصا إذ تشق النبتة الأرض وتكاد تخرج منها. يؤكل الكما بعد تنظيفه وسلقه بالماء.

وأما بالنسبة للطيور و الحيوان فقليلة. منها الحجل- الدراج - القطا- الحباري- وهناك الطيور الجوارح كالنسور والعقبان و الصقور والحدأة و كانت قديماً أسراب من الغزلان السارحة وهناك الثعالب وبنات أوى والأرانب.

نبذة تاريخية :

ازدهرت السخنة تاريخياً كمحطة تجارية مابين تدمر والرصافة وسودا على الفرات. يظن أنها الحاضرة القديمة المسماة بوتيا وجد فيها تمثال للإله جوبيتر يعود للقرن الثاني الميلاد ي محفوظ في متحف استنبول.

كما اكتشف في تلها الأثري سقيفة باب مبسطة من حجر كلسي قاس كتب عليها ثلاثة أسطر يونانية و ثلاثة أسطر تدمرية تذكر إقامة مدفن أرضي في السخنة وهذه ترجمتها : (هذا البيت الأبدي بناه تيم أرصو بن فرموس بن عطيكس له ولأبنائه لحياتهم وعلى شرف أبيه فرمس بشهر تشرين ثاني سنة ٤٤١ الموافق لسنة ١٢٩ م) ومقايس هذا الحجر /١١٤/سم طول ارتفاع ٢٢سم وموجودة حالياً في متحف تدمر تحت رقم /١٤٧٩/ أ / ٨٩٤٠ .

ملاحظـــة :تـيم – يعنـــي العــبد – أرصـــو تعني إله القوافل التدمرية ومعـــروف باســم الإلـــه رضى. فرموس، عطيكس: أسماء علم. التاريخ السلوقي المعروف في تدمر يبدأ في ١/١١/٣١٢ ق م.

حـــدد يـــاقوت الحمـــوي موقعها بين أرك وعرض وذكرها شمس الدين الدمشقي في القرن العاشر الميلادي كمركز إداري هام للبريد وشاهد فيها أبـــن بطوطـــة كنيســـة عظيمة وبقيت مزدهرة خلال العصور البيزنطية والإســـلامية المؤرخـــة حتى نهاية القرن / ١٤/ ثم تحولت إلى أطلال في عهـــود الاضـــمحلال. أقـــيم فـــيهاعام /١٨٨٠/ مخفر لحامية عسكرية ومركـــزاً للبريد وكانت محطة تجارية هامة لوقوعها على مفترق الطرق التجارية الهامة، مثل:

١– هيت – وادي حوران – قصر الحلقوم – قصر صواب – السجري – جفة –أرك ويلتقي فيها بالديقلوسانية وهو الطريق الذي سلكه خالد بن الوليد / رضي الله عنه/ قادماً من الحيرة إلى اليرموك.

٢ – الرحبة – رحبة مالك بن طوق بالميادين

٣– الفيضـــات – السخنة : وهو الطريق الذي سلكه صاحب الشامة القرمطي أثناء هروبه من جيوش المكتفي قرب سلمية.

٤– مقـــابل البصيرة – بئر دخول – قباقب بئر جديد – قصر الحير الشرقي – السخنة.

٥– حلبية وزلبيه –قصيبة– الحير الشرقي – السخنة

٦- سـودا - المنصورة - الرصافة - الكوم - عرض (الطيبة) السخنة - تدمر

٧- السخنة - كدمة (كديم) - اسريا- زبد - حلب ،

٨- السخنة - كدمة - أسريا - الأندرين - قنسرين - إنطاكية.

كـل هـذه الطـرق(المدقات - والدروب) جعلت منها مدينة مزدهره وصـلت إلـى أوج ازدهارهـا أيـام روما ومملكة تدمر وكانت محطة للقوافـل تـزود بالحاجـات لكل ماهو ضروري للمسافر وخيله... كما وصفت السخنة على أنها إحدى مدن المناظر.

المناظر

وهـي الواحـات أو القـرى المكونة وسط البادية الشامية كتدمر و أرك والسـخنة والقريتيـن ولواحق السخنة كالطيبة والكوم. هذه القرى كأنها جزائـر منـثوره وسـط بحـر ضخم أو كأنهاغيطان خضراء وسط بواد قفراء. ذكرها ياقوت الحموي في معجمه باسم - المناظر- وقد اعتاد أهـل الحواضر الشامية أن يسموا سكان قرى المناظر بالسخانة نسبة إلى السـخنة كمـا أعـتاد الـبدوا أن يسموا كل الجمالة الذين ينقلون السلع الـتجارية فـي الـبوادي بالسخانة و ذلك لما لأهل السخنة من المقدرة والمعـرفة باختراق البوادي و إجادة النقل والمهارة وحسن الوساطة في البيع والشراء بين البدو والحضر.

ورد ذكـــر السخنة في معجم البلدان لياقوت الحموي في العام ١٢١٩ م، الجـــزء الثالث صفحة ١٩٦ حيث قال: "سُخْنَةُ، بضم أوله – وسكون ثانيه ثـــم نـــون بلفظ تأنيث السخن وهو الحار ، بلدة في برية الشام بين تدمر وعُرض وأرك يسكنها قوم من العرب وعلى التحديد بين أرك وعُرض"

كمـــا ورد ذكـــرها في كتاب مملكة حمص في العصر الأيوبي(١١٦٨-١٢٦٤م / ٥٦٣-٦٦٢هـــ) للكاتـــب مـــنذر الحايك حيث يقول في الصفحة ٢٩٩ : و كان يتبع لتدمرعدة مناطق وقرى أشهرها:

١- الســـخنة : وهـــي بلـــدة بين تدمر والفرات تبعدعن تدمر /٧٥/ كم بجوارهـــا ينبوع كبريتي ساخن تنسب إليه كما ورد في المعجم الجغرافي وكان أكثر سكانها من النصارى.

٢- وذكـــرها إبـــن بطوطةفـــي رحلته المسماة "تحفة النظّارفي غرائب الأمصار" /١٣٠٤ م / حيث قال: ثم سافرنا إلى السخنة وهي بلدة حسنة أكثر سكانها الكفار من النصارى وإنما سميت السخنة لحرارة مائها. وفـــيها بيوت للرجال وبيوت للنساء يستحمون فيها ويستسقون الماء ليلاً ويجعلونه في السطوح ليبرد.

وذكـــرها فـــتح الله الصايغ الحلبي في "رحلة إلى بادية الشام وصحارى العـــراق و العجم و الجزيره العربية" ١٨١٠-١٨١٤ م. يقول في صفحة ٨٢ : " وكان طريقنا إلى دمشق ومن الصعب أن نسير وحدنا اقتضى الأمـــر أن العرب أخذونا إلى ضيعة يقال لها السخنة شرقي حلب يومين تحـــوي على مائة بيت من الجماليين، يصنعون القلو للصابون يحملونه إلى حلب و يبعونه أيضاً. بها حمام ماء ساخنة طبعيية، ولهذا السبب

سميت السخنة، أما أهلها فخيرون كرماء يحبون الضيوف فكانوا يتقاتلون علينا حتى يضيفونا عندهم، وكل واحد بدوره لأن مابها شي للبيع مما يخص الأكل والشراب. نساؤها حسنات جداً وجميع لوازمها من حلب. فجلسنا بها لنحو عشرين يوماً حتى توفر لنا أناس بكراءٍ وافرٍ أخذونا إلى تدمر. فسلمنا على الشيخ رجب وبعدها إلى القريتين و على الشيخ سليم وعلى الخوري موسى.

دخولها الإسلام

كما ورد ذكرها في كتاب سيف الله خالد بن الوليد لمؤلفه الجنرال إكرام فيقول :

"في اليوم التالي وصل الجيش إلى أرك وهي مدينة محصنة كان يدافع عنها حامية من العرب والنصارى بإمرة قائد من الروم. فرض المسلمون الحصار على أرك و هناك أدرك خالد مدى شهرته المنتشرة خارج حدود الأرض التي حارب فيها وكانت شهرته كفيلة بأن تؤدي استسلام الحامية دون قتال. وكان يعيش في أرك حكيم كبير السن على علم بأحداث خالد عبر الصحراء سائلاً قائلاً : "هل راية الجيش سوداء وهل قائد الجيش طويل القامة قوي البنية عريض المنكبين ذو لحية كبيرة ويوجد على وجهه آثار من مرض الجدري؟" (الواقدي (ص١٥) فتوح الشام)

فأكد الذين شاهدوا خالداً وهو يتقدم مع جيشه هذه الأوصاف ثم اتفقوا على دفع الجزية واستسلم الحصن. وفي اليوم التالي أرسل خالد مجموعتين لإخضاع السخنة وكدمه "كديم". وعندما وصلت المجموعتان

اللـــتان أرســلهما خـــالد إلى السخنة وكدمه استقبلهما السكان بالترحيب والفـــرح بعـــد أن علموا بالشروط السخية التي قدمت في اليوم السابق إلى أرك ، و كانوا حريصين على أقامة علاقات ودية مع جيش المسلمين.

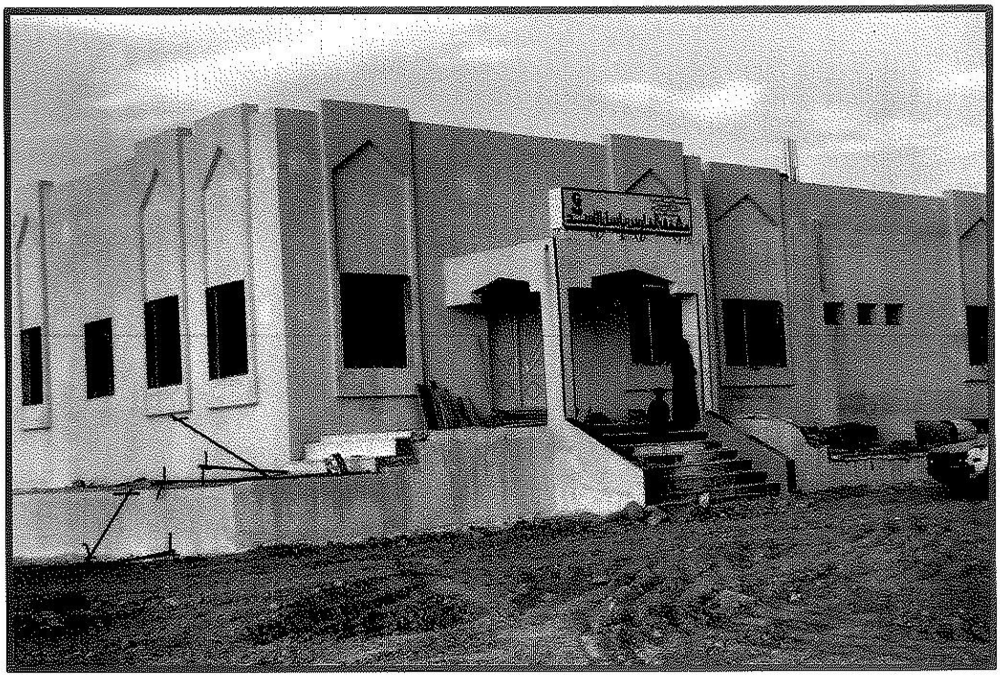
كمـــا ورد ذكرها في كتاب القرامطة لثابت بن سنان وكتاب بغية الطلب فـــي تـــاريخ حلب لابن العديم تحقيق الدكتور سهيل زكار، ص٢٧٥. عند غزو القرامطة للشام عام ٢٩٠ هـــ ورد الخبر التالي:

وســـار القرمطي صاحب الخال إلى السخنة والأركة والزيتونة وخناصر مـــن الأحصـــن مـــن أعمال حلب ونهب فيهامن الأموال و السلاح وهذه الأماكـــن معـــروفة بأسمائها الأركه و السخنة نفسها و الزيتونه قصر الحـــير الشـــرقي وخناصر وهي جنوبي شرقي حلب وقد وصفها الأستاذ عـــبد الوهاب أدهم الذي كان معلماً و لأول مرة في السخنة عام /١٩٣٠/ وهو أول معلم من قبل الدولة يعين في هذه البلدة يقول:

"وقـــد رمتني المقادير إلى قرية نائية لاظل لحياه النعيم فيها بين جدران هـــامدة وســـقف صـــفه من العوسج (شجرة البطم) فاستمهلت حكم الأيام القاســـية." إلـــى أن وصف السخنة بأن جمالهم كثيرات الهدير وحميرهم كثيرات الزعير و كتبت هذه المقالة بمجلة المعلمين أنذاك ،



مدخل مدينة السخنة الجنوبي



مشفى الباسل في مدينة السخنة

لمحة حول التطور الخدمي والاجتماعي والسياسي لمدينة السخنة منذ الستينات وحتى الآن

إذا أردنا أن نلاحظ التطور الاجتماعي والخدمي الذي طرأ على مدينة السخنة بعد الحركة التصحيحية عام /١٩٧٠/ التي قادها الرئيس حافظ الأسد و حتى الآن لابد من التعرض للواقع قبل هذا التاريخ لندرك أهمية الخطوات التي تمت على هذا الصعيد

الواقع الخدمي :

قبل عام ١٩٧٠، لم يكن هناك في البلدة إنارة كهربائية إطلاقا وأنما كانت البيوت تضاء بواسطة مصابيح زيت الكاز و القناديل أما الشوارع فتبيت في ظلام دامس إلا من ضوء القمر في لياليه البيض. ويسير الناس في هذه الشوارع على ضوء بيل البطارية (لوكلانشيه) تنقل من شارع إلى آخر ومن بيت إلى بيت حتى عام ١٩٧٠ إذ قام أحد المواطنين بمشروع تم فيه تنوير البلدة بجهد فردي خاص عن طريق محرك ديزل وشبكة أسلاك معزولة تم تمديدها على أسطح المنازل والبيوت من سطح إلى آخر ومواد أولية بسيطة من عوازل و حمّالات وكانت في ذلك الحين إنجازاً عظيماً بالنسبة للبلدة وأخذ يحلوالسهرمن المساء وحتى الساعة الثانية عشرة ليلاً فقط ولكن الطريف في الأمر أنه إذا ستخدم أحد المواطنين سخاناً كهربائياً فالبلدة بكاملها تعاني إذ يؤثر على قوة التيار الكهربائي مما يجعلهم يعرفون هذا المواطن مباشرة ويهرعون إليه طالبين

فصـــل السـخان. استمر هذا الواقع حتىعام ١٩٧٧ حين قامت المؤسسة العامــة للكهـرباء بتـنوير الـبلدة عن طريق مجموعة ديزل باستطاعة /٢٨٠/ ك.ف.آ بعـد تنفيذ شبكة كهربائية نظامية وأعمدة خشبية وأبراج وكان عدد المشتركين بحدود /٤٣٠/ مشتركاً و استمرت إنارة البلدة عن طـريق مجموعات الديزل حتى عام ١٩٨٤ حيث تم تركيب أربعة مراكز تحويـل بعد مد خطوط توتر متوسط /٢٠/ ك. فولت من تدمر إلى البلدة وبعدهـا أخذت البلدة في التوسع وتركيب مراكز تحويل جديدة حتى أصبح عـدد المشـتركين في مدينة السخنة الآن /١٧٠٠/ مشتركاً أي تضاعف عـدد المشـتركين أكـثر من أربع مرات هذا التطور الهام على الصعيد الكهربائـي أوجـد حالة جديدة من التطور الاجتماعي. قبل عام /١٩٧٠/ كـان المواطـنون يغتسلون في (الحمام) نبع كبريتي ساخن وسط البلدة وسـيلتهم الوحـيدة بالاغتسال والنظافة للرجال هذا في النهارأما في الليل فيخصـص للنسـاء حيث ينزلون جملة في هذا الحوض الذي لا تتعدى مساحته /٦٠-٧٠/م² و تجري مياهه بعد ذلك لسقاية بساتين البلدة.

أمـا بعـد عصـر الكهرباء و بعد أن ازدادت حركة العمران بشكل هائل صرنا نجد الحمامات في البيوت المبنية في معظمها من الإسمنت المسلح. قـبل السـبعين كانت البيوت المبنية من الإسمنت المسلح لا تتعدى أصابع الـيد الواحدة و باقي البيوت من الطين والحجر أما الآن فقد بلغت البيوت الحديثة أكثر من /١٥٠٠/ منزلاً أفقياً وشاقولياً.

كانـت العـائلات قـبل السبعين تعيش مع بعضها البعض فتجد أكثر من ثلاث عائلات تسكن في بيت واحد ويزوجون الأولاد وهم في بيت واحد

أمـــا الآن، من يريد الزواج عليه أن يعمل ويبني له بيتاً مستقلاً للزواج و الاستقرار.

قــبل السبعين :لم يكن هناك مخطط تنظيمي للبلدة وكانت شوارعها ضيقة ومــتعرجة ومعظمهــا أزقة مليئة بالمياه الملوثة صيفاً وشتاءً وكان الناس يســتعملون "القــبقاب الخشــبي العالي" وكانت مناظر الشيوخ الرجال في القــبقاب كــا المحاربين القدماء وهم يسيرون وسط الشارع المليء بالمياه والطين.

حيــث لــم يكن هناك صرف صحي إطلاقا وكانت النساء تجمع القمامة والأوساخ من البيت وتحملها على رأسها لتلقي بها في وادي البلدة بعد أن تسير مئات الأمتار لتاتي مياه الأمطار في كل عام و تغسل هذه النفايات،

أمــا مــياه الشــرب فكانت من الآبار السطحية وهي مياه كبريتية ساخنة يحصــل عليهاعــن طريق الدلاء يتم تبريدها إلى اليوم الثاني حتى تذهب رائحــة الكبريت ليمكن شربها وكانوا يضعون المياه في القَرب المصنوعه من جلود الماعز و يتم تعليقها حتى تبرد فلايكاد بيت يخلو من قربة كبيرة فــي بيته للشرب إضافة إلى الخوابي الفخارية أيضاً لتبريد الماء في فترة لاحقة. وكانت وسائل التدفئة إشعال خشب البطم المقطوع من الجبل،

أما بعد إنجاز المخطط التنظيمي الذي أصبح بمساحة /٥٥٠/ هكتاراً حيث تــم شق الشوارع في البلدة وتنظيمها وفرشها بالرمل ودحلها وقد شهدت الــبلدة وخاصة في عقد التسعينات حركة تنظيم واسعة شملت عمليات هدم وتنظــيم للشــوارع وتــم تعبــيد وتزفيــت العديدمن الشوارع الرئيسية والفرعية وتم تسمية الشوارع والأحياء إضافة إلى تنفيذ جزر وسطية

وإنـــارة شوارع البلدة التي أصبحت مدينة الآن بالكامل ومن يعرف بلدة السـخنة فـي الستينات ويراها الآن ينكر أن هذه المدينة هي تلك البلدة التــي كانت تفتقر إلى أبسط مقومات الحضارة. أما الآن فأصبحت ترى الحدائــق ومشروع الصرف الصحي الذي تم أنجازه بالكامل وإضافة إلى شبكة مياه الشرب التي غطت معظم أحياء المدينة و التي ساهمت في رفع مســتوى الوعي الصحي لدى المواطنين فتجد الآن العناية بالنظافة و تجد الحدائــق المنزلـية والغســالات الكهربائـية و الاهتمام بكل ما يمت إلى الحضارة بصلة.

أمــا علــى الصــعيد التعليمي فقد شهد هذا القطاع تطوراً ملحوظاً بعد الحركة التصحيحية عام ١٩٧٠ حيث لم يكن في بلدة السخنة في منتصف الســتينات ســوى مدرسة ابتدائية واحدة تتألف من /٦/ ست شعب وغرفة إداره فقــط ومن يحصل على الشهادة الابتدائية عليه أن يتابع تعليمه في مدينة تدمر أو محافظة حمص. وكان الطلاب يتقدمون إلى امتحان الشهادة الابتدائــية في تدمرثم في المحطة الثالثة التي تبعد عن بلدة السخنة حوالي ٤٥ كــم. وغالــباً كانت الحالة المادية تحول دون متابعة الطالب دراسته خارج البلدة مما يضطره إلى ترك التعليم و الالتحاق بأهله لمساعدتهم في الزراعة أو تربية الأغنام.

- أما الآن فقد بلغ عدد المدارس الابتدائية في مدينة السخنة خمس مدارس تضم /٢٣٥٠/ تلميذاً وتلميذة.

- عــدد طلاب الإعدادية/٤٧٤/ طالباً وطالبة منهم /٢٦٧/ ذكور و / ٢٠٧/ إناث

- وعـــدد طـــلاب الثانوية /١٢٣/ طالباً وطالبة منهم /٦٥/ ذكور و/٥٧/ إناث

- وعدد المدرسين والمعلمين /١١٥/ من أبناء المدينة وخارجها

هناك العديد من المختصين من أهالي المدينة: /١٤/ طبيباً و /٩/ صيادلة و/١٥/ مهندســاً مــن مخــتلف الاختصاصات وأكثر من /١٥٠/ خريجا جامعيا وعدد كبير من خريجي المعاهد و حملة الثانوية العامة والإعدادية. ويتضـــاعف هـــذ الـــرقم كثيرافـــي الـــرقة و حلب و حماة و دير الزور و الســـفيرة و بعض المناطق التي يتواجد فيها السخانة فمثلاً يوجد /٢٢/ صيدلياً في مدينة الرقة من أبناء السخنة وإن دل هذا العدد على شيء إنما يدل على تنامي الوعي التربوي و التعليمي في مدينة السخنة و خلق روح المنافسة في الدراسة والتحصيل لرفع مستوى المدينة بشكل عام.

فعاليات المدينة الإدارية

- أحدث مخفر الشرطة عام ١٩٥٨

- و أحدثت أول شعبة للبريد عام ١٩٦٣

أما الآن، فقد أدخل المقسم الإلكتروني في الخدمة بطاقة كبيرة تتسع لآلاف المشتركين عبر الكوابل الضوئية المتصلة مع الشبكة الخارجية.

- بلدية السخنة :

تـــم إحـــداث بلديـــة الســـخنة من الدرجة الرابعةبتاريخ ١٩٦٤/١/١١. و بموجب المرسوم التشريعي رقم /١٥/ تاريخ ١٩٩٩/٣/١٥ الموافقة ١٤١٩/١١/٢٨ هـــ تم إحداث مدينة السخنة.

-المستوصف : أحدث بتاريخ ١٩٦٦ و بوشر العمل به في آذار ١٩٦٧

- مركز الزراعة : ١٩٧٧

- مركز الأعلاف : ٦/٧/ ١٩٧٨
- مركز بيطري : ١٩٨٢
- دائرة الكهرباء : ١٩٨٤
- المركز الثقافي العربي في السخنة :

تـم إحـداث محطـة مكتبـيه في السخنة بموجب قرار المكتب التنفيذي لمحافظ حمص بجلسته رقم /٥٦/ تاريخ ١٩٩٢/٨/٢٦

وبـتاريخ ١٩٩٥/٦/٧ تمت الموافقة على إحداث المركز الثقافي العربي فـي بلدة السخنة بقرار من السيدة وزيرة الثقافة نجاح العطار بالقرار رقم ٩٢٩٩ / ٢١١ تاريخ ١٩٩٥/٦/٧

- المشفى: بوشر العمل به بتاريخ ١٩٩٤/٥/١
- عـدد سكان مدينة السخنة موقوفاً بتاريخ ٢٠٠٠/١٢/٣١ م هو : /٢١٥٩٤/ واحـد وعشـرون ألفاً وخمسمائة و أربعة وستون نسمة، منهم ١٠٦٥٠ ذكور و ١٠٩٤٤ إناث .

أما على صعيد الزراعة : فقد كانت السخنة قبل عام ١٩٧٠ تعتمد بشكل رئيسي على الزراعة البعلية و بوسائل زراعية بدائية فالمحراث يدوي و البذار يدوي و الحصاد يدوي (بالمنجل)، ثم دراسة الحصا د (بالنورج) أو (الحيلان) على البغال والحمير. كانت العائلة بالكامل تعمل طيلة فصل الصيف حتى تستطيع أن تتجز مؤونتها من الدقيق ليكفيها فصل الشتاء، إضافة إلى الزراعة الصيفية في بساتين الباذنجان و البندورة و البامية و القثاء كمردود إضافي إلى المعيشة. و لكن بعد التطور في وسائل التتكولوجيا الحديثة دخلت الآلة الزراعية بعد عام١٩٧٠ إلى كل

قرية فتطورت وسائل العمل و ازدادت المساحات المزروعة بشكل هائل أخذ يهدد البادية بالتصحر مما جعل المجلس الزراعي الأعلى في القطر يتخذ القرار النهائي بمنع الزراعة البعلية نهائياً، وحتى الصيفية نظراً لانخفاض منسوب المياه في أحواض البادية المائية، إلا من مساحة بحدود /١٤٢٦٥٠/م٢ مزروعة بالاشجار المثمرة :

النوع	عدد الأشجار	عدد الأشجار المثمرة
زيتون	٢٦١٨	٢٢٣٠
نخيل	٧٧٠	٢٩٥
رمان	٧٦٢	٤٨٠
تين	٨٣	٦٠

أما المزارع التي تحيط بالسخنة فتقدر مساحتها بـــ /٧٨٤/ هكتاراً و تضم:

/١٥٩٤١/ شجرة زيتون منها /٨٥٦٠/ مثمر و نخيل /٦٦٤/ منها /١٠٠/ مثمرة و رمان /٦٣٥/ شجرة وتين /١٢٤/ ومشمش /١٢٦/ و فستق /٨٧/ .

و هذا ما جعل أهالي البلدة يتجهون اتجاها آخر في العمل لتحسين مستوى معيشتهم فكان الطابع الغالب على أهالي مدينة السخنة الآن هو العمل في الدول المجاورة و بخاصة دول الخليج، فلا يكاد يخلو بيت في مدينة السخنة من شاب يعمل خارج القطر و هذا ما انعكس فعلاً على واقع المعيشة في المدينة وازدياد نسبة العمران الحديث فيها والمساهمة في مشاريع العمل الشعبي التي كانت نموذجاً يحتذى على مستوى القطر حيث

تم تنفيذ شبكة مياه للشرب على حساب العمل الشعبي وبناء مشفى الشهيد باسل الأسد أيضاً على العمل الشعبي ومقرات حكومية أخرى وغيرها.

- قبل عام ١٩٧٠، كانت الحياة في بلدة السخنة تتصف بالقساوه وشظف العيش. يذهب معظم الأهالي في نهاية موسم الحصاد إلى جبل غربي البلدة على بعد /٣٥/ كم يسمى جبل(العمور) يشتهر بأشجار البطم البري. فتذهب قوافل قوافل يجلبون البطم ويقومون بطحنه على مطاحن حجرية للحصول على زيت البطم الذي يستخدمونه للأكل وإداماً لكافة أنواع الطعام ويستخدم قسم من البطم الذي لا يصلح للأكل علفاً لماشيتهم.

مثال آخرعلى قساوة العيش أيضا : يذهبون قوافل و يمكثون أياماً طويلة و أسابيع لقطع أشجار الشنان و إشعالها في الصحراء لتتكون قطع من أحجار بيكربونا ت الصوديوم و هي مواد قلوية و يسمى عندنا (القلو) أو (الجلو) ويذهبون بهذه الكميات كل حسب جهده إلى مدينة حلب لبيعها هناك حتى يستخدمونها في صنع الصابون أما وسائل التنظيف في بلدة السخنة آنذاك فكانت تلك الأحجار من (الجلو) توضع في ماء يغلي وتغسل بها الثياب وفعلاً لها مفعول جيد .

- قبل العام /١٩٧٠/ كان في البلدة مطحنتان فقط يشترك فيها الأهالي لطحـن الدقـيق لهم فتقوم كل عائلة بطحن كيس أو كيسين ليكفيها شهراً كاملاًويـتم عجن الطحين يدوياً و خبزه على التنور لذا نجد في كل بيت تنوراً من الطين الفخار ولم تعرف البلدة خبز الأفران إلا منذ الثمانينات. يوجـد الآن مخبزان نصف آليين طاقتهما الإنتاجية بحدود /٤/ طن تقوم بتغطية حاجة المدينة من الخبز و تلاشت تقريباً عملية الخبز علىالتنور.

- قبل عام ١٩٧٠ كان في كل بيت تربية الماشية من غنم وماعز تسمى (المنيحة) وتتألف من رأس واحد وحتى(٢٠) رأساً حسب حالة المواطن المادية لتأمين المؤونة السنوية من اللبنة والجبنة والسمن والإقط والكشك- وغيرها وكما يقوم برعاية هذه الماشية راعي للقرية على أجر شهري يجمع من أصحاب المواشي كان يمر وسط القرية. يخرج في الصباح ويعود في المساء

أما الآن وبعد هذا التطور الذي طرأ على المدينة من حيث ازدياد عدد السكان وحالة العمران الحديثة والشوارع المعبدة و الحدائق والاهتمام بالنظافة فقد أصبحت ظاهرة المواشي في البلدة مصدراً لإزعاج الجوار وللاوساخ و لا تتماشى مع الواقع. فقام مجلس المدينة بمنع التربية نهائياً والسماح باقامتها خارج حدود البلدة بحيث لا تؤثرعلى المواطنين وخاصة بعد أن تحسنت أحوال المواطنين المادية وأصبحت أعداد الأغنام كبيرة وانتسابهم إلى الجمعيات الفلاحية لتربية الأغنام و تسمينها إذ يوجد في البلدة ثلاث جمعيات فلاحية اثنتان منها لتربية الأغنام و حيازتها / ٤٨٥٠٠/ رأساً من الغنم وعدد أعضائها / ٥٧٥ / عضواً و جمعية واحدة لتسمين الخراف وحيازتها /٥٢٥٠٠/ رأس وعدد أعضائها / ٥٢٥ / عضواً.

- ومتابعة للواقع الخدمي في بداية السبعينات كان الطريق إلى مدينة تدمر ترابياً و وعرا جداً ويمر الباص الوحيد الذي كان ينقل ا لركاب إلى تدمر بثلاث مراحل حتى يصل إلى المدينة و يستغرق /٤/ ساعات مع العلم أن المسافة /٧٥/ كم .

- المـرحلة الأولـى: مـن بلدة السخنة إلى المحطة الثالثة حيث ينزل الركاب ويستريحون و يتناولون بعض المشروبات.
- المـرحلة الثانية: من المحطة الثانية إلى قرية أرك على بعد /٢٥/ كم عـن المحطة حيث يتم تحميل الركاب الذاهبين إلى تدمر و يتابع سيره في المـرحلة الأخـيرة إلـى تدمر وكأنها رحلات (إبن بطوطة). و عندما يـنزل الركاب في ساحة الجمارك بتدمر يجتمع أهالي تدمر للفرجة على الـركاب إذ لا يكاد يعرف أحدهم الأخر من التراب والرمال التي تغطي رؤوسـهم و ثـيابهم. هذا مشهد لاينساه من عاصر بداية السبعينات وما قبل. وفي الشتاء ينقطع الطريق نهائيا. لكن بعد أن تم تعبيد طريق دمشق ديـر الزور مروراً بمدينة تدمر و السخنة، عاش المواطنون حياة جديدة فعـلاً أصـبحت هـذه المسافة تقطع بـ/٤٥/ دقيقة فقط بعد أن كانت تمـتد لحوالـي أربع ساعات والآن يوجد في مدينة السخنة ما لا يقل عن عشر باصات تخدم المواطنين في كل الاتجاهات .
كمـا ان الراكـب إلـى دير الزور من دمشق كان يمضي عشر ساعات للوصـول إلى محافظته عن طريق حمص - حلب- الرقة- دير الزور- أما الآن لا يستغرق الزمن إلا حوالي أربع ساعات من دمشق إلى دير الزور مروراً بمدينتي تدمر و السخنة. هذا الطريق كان نقلة نوعية في تخديـم المواطنيـن سواء من حيث الإسعافات السريعة إلى تدمر أو من حيث قضاء حاجات المواطنين في الدوائر الرسمية أو العلاقات التجارية من نقل البضائع وغيرها.

الواقع الاجتماعي:

الواقــع الاجتماعي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالواقع الخدمي وبتطور الوضع الاقتصـــادي بشـــكل عـــام بحيث كل خطوة تتم على هذا الجانب تتبعها خطوات على الجانب الأخر.

فمـــن حيـــث أفـــراح الأعـــراس التي كانت تتم في بلدة السخنة قبل الســـبعينات ذكرنا أنه في ذلك التاريخ لم تكن هناك إنارة كهربائية ولا طـــرقات معـــبدة إنما بعض الساحات تقام عليها الأفراح بوضع فانوس كبـــير (لوكـــس) أو أكـــثر وســـط الساحات تعلق على أعمدة خشبية أو قســـاطل حديدية تزرع وسط الساحة ويلتف حولها الشباب لإقامة حلقات الدبكة و الرقص الشعبي. و يشترك النساء والرجال معاً. وكانت تستمر الأفراح لعدة أسابيع بعدها يتم الزفاف.

وقبل هذا التاريخ، في الأربعينات وماقبل، يذكر لنا الأباء والأجداد أن مراسم الزفاف كانت تتم على ظهر فرس يركب عليها العريس من بيته إلىساحة الحمام الرئيسية في البلدة و كانت تسرج وتزركش بالمصنوعات اليدويةمن الصوف الملون بشكل ملفت للأنظار ويسير ورائها المشاركون من كافة الأحياء ترافقهم الطبول والدفوف ويلبس العريس لباساً خاصاً من (العـــباءة – والـــزبون – والمحرمة– والعقال) و يجند ببندقية وجناد من الطلقـــات (الفشك) ويرافقه راقص بالسيف إلىغير ذلك من مظاهر الفرح العاديـــة. ويبـــنى بيت من الشعر حيث تقام فيه وليمة العرس التي يدعي إلـــيها غالبية أهل البلدة ويشارك الأقرباء و الأصدقاء في الحفل فيقومون بإرســـال الذبـــائح و الأرز و لا يتكلف صاحب العرس كثيراً ويعتبر

هــذا ديناً عليه يجب ان يؤديه في مناسبات مقبلة. وفي عيد الفطر وعــيد الأضحى يتبادلون الزيارات وتتم في هذين العيدين حل المشكلات و الخصـــومات التــي حدثت خلال السنة. و لكن هناك عادة غير متسحبة وهي زيارة أصحاب التعازي التي حدثت بين العيدين حتى أصبحت كأنها تجديــد للعزاء. وكان بيت العريس يقتصرعلى ما تجلبه معها العروس من أثاث إذ أن العروس هي المعنية بالأثاث من المهر الذي كان يدفع لها.

والأثـــاث بسـيط جـداً عبارة عن فرشيتن أو ثلاثة من الصوف وست مخـــدات وصندوق خشبي و بساط و مفرش من الصوف أيضاً وعدد من الصحون النحاسية أوا لألمنيوم فقط.

أمـــا الأن و بعد التطور الذي طرأ على مدينة السخنة أخذت تقام الأفراح وســط الأنـــوار الكهربائـــية الباهرة و الفرقة الموسيقية و المطربين المشهورين و الولائم الكبيرة حسب الحالة المادية لصاحب الفرح.

الزي الشعبي للباس أختلف كثيراً عما كان عليه في القديم إذا كان اللباس الرســـمي للفتاة تنورة دائرية من الساتان الأسود (تسمىالتبان) مطرزة بالحريــر المصـــبوغ بالأحمر و الملون على جوانبه وفي وسطه وتلبس تحتها قميصاً بلون مناسب وتضع على رأسها عند الخروج محرمة بيضاء (كظاظـــة) وتغطي رأسها بما يسمى (الدرّاعة) وهي أيضاً من الساتان الأســـود مطـــرزة بالحرير من كافة الألوان و كانت كل فتاة تقوم بتطريز دراعتها بنفسها غالباً، وتضع في أذنيها الأقراط الذهبية وتسمى (الأقراط الديـــرية) نســـبة إلى دير الزور و تتصف بالسعة والطول وتضع في الأنف حلقة صغيرة من الذهب أيضاً تسمى (الخزام).

أما المرأة فلباسها الغالب القميص الأسود وعلى رأسها (الحطاطة) السوداء و كانت تلف بطريقة خاصة وتجلب من محافظات حلب و حمص و حماة. ويضاف إلى الحطاطة (الشنبر)، نسيج أسود رقيق من الصوف يلف فوق الحطاطة و حول العنق ليغطي الحنك تقريباً ليعطي المرأة منظر الهيبة و الوقار. وعند خروجها، تغطي رأسها بالعباءة المصنوعة من الصوف أو شعر الماعز المصبوغ بالأسود.

هذا الزي في الوقت الحاضر لم تعد تراه إلا نادراً وخاصة بعد أن تطورت الصناعات النسيجية و الملبوسات. و الزي الغالب الآن (الجلابية) المطرزة و من كافة الألوان إضافة إلى أنواع مختلفة من القمصان التي تحاك عند خياطات متخصصات في الخياطة وبأزياء مختلفة و أخذت تخرج الفتاة دون أن تضع على رأسها شيئاً.

كما تطور الوعي لدى الأسرة بشكل عام فأصبحت البنات يتابعن تعليمهن. فمنهن من دخلت مدارس التمريض وتخرج عدد من الممرضات يخدمن في المشفى و منهن معلمات. و الواقع يسير بمستقبل أفضل إذا نظرنا إلى ما تضمه إعدادية البنات الآن من طالبات.

بعد التطور العمراني الذي شهدته مدينة السخنة

الطابع الغالب على كل بناء الاهتمام بالمضافة و هي أساسية في كل بيت تتصف بالسعة و الطول حسب الحال لإكرام الضيوف و حسن استقبالهم نظراً لما يتصف به أهالي مدينة السخنة من الكرم وحسن الضيافة مهما كانت حالتهم المادية. و هذه المضافات تستخدم في الأفراح و الأتراح و

تقــام بهـــا الولائــم و غالباً ما يتواجد فيها الضيوف إن كانوا من خارج المدينة أو السهرات العامرة من الأهالي.

– ظاهـــرة إجتماعية أخرى تمتاز بها مدينة السخنة وهي بالحقيقة ظاهرة إيجابـية جـداً لمافـيها مـــن جانب إنساني هام، تلك التي تتعلق بالتعازي ومواســـاة صاحب المصاب و مشاركته مصابه. من اللحظة التي يتم فيها الإعلان عن الوفاة، يسارع المواطنون كل حسب معرفته يتقاسمون العمل. وبدون دعوة، تذهب مجموعة من الشباب لحفر القبر و تجهيزه و تسارع مجموعـــة أخـــرى فـــي بناء بيت العزاء و فرشه وتجمع معظم سيارات المديـــنة المتواجدة لتسير بموكب مهيب مهما كان مستوى المتوفى محملة بالمواطنين من المسجد الكبير إلى المقبرة و العودة إلى بيت العزاء بحيث لايشـــعر صاحب العزاء أنه هو وحده المصاب و هذه الظاهرة تتميز بها مدينة السخنة نظراً لما لها من تأثير على المصاب و التخفيف من أحزانه فـــلا يشـــعر بالوحدة أو الضيق إذ يجد هناك العشرات يقومون بالخدمة واســـتقبال الضيوف. كما تتميز مجالس العزاء في مدينة السخنة بالحديث الدينــــي و الاجتماعـــي و التربوي من رجالات البلدة الذين يتمتعون بقدر مـــن الثقافة والممارسة لهذا الحديث فتشعر و كأن هذه المجالس مدارس لمـــا لها من رصانة و هيبة و وقار تساهم في توجيه المواطنين نحو فعل الخـــير والإشـــارة إلـــى كل ما يسيئ بأسلوب نقدي بناء وحوارات جادة ومفيدة.

الوضع السياسي :

يغلب على مدينة السخنة الطابع العشائري و القبلي ففي مرحلة ماقبل ثورة الثامن من آذارعام ١٩٦٣، كانت تحصل صراعات مابين تلك العوائل والعشائر وخاصة مختار البلدة الذي كان له نفوذ و أهمية و زعامة على مستوى البلدة. أما الآن فقد أصبح لكل حي مختار باقتراح من القيادة السياسية ممن تتوافر فيهم الأهلية لخدمة المواطنين بغض النظرعن الزعامات العشائرية. هذا على مستوى البلدة، أما العلاقة مع المحافظة سياسياً فكانت تتحكم بها إنتخابات مجلس النواب و الاتحاد القومي في عهد الوحدة في تلك الفترة إذا ينقسم١ أهالي البلدة على الأغلب إلى قسمين: قسم شمالي شرقي وقسم جنوبي غربي.
ويتم الصراع فيمابينهم على مرشحين قد ل ايعرفونهم يصل بهم إلى حد الاقتتال و على مستوى كبير جداً. هؤلاء المرشحون، منهم الآغا و البيك و التاجر. أمّا أهالي البلدة فلا ناقة لهم بهذه الانتخابات و لاجمل سوى أصوات تباع وتشترى إلى أولئك المرشحين.

و عند قيام ثورة الثامن من آذار و استلام حزب البعث العربي الاشتراكي قيادة الدولة و المجتمع، تفهمت أكثرية الناس أهداف الثورة و حزبها و ارتقى تفكيرها إلى مستوى الإحساس بالمسؤولية و الانتماء. و بدأ التعاطي مع هذا التنظيم بشكل جيد فانضم إلى صفوف الحزب أكثر الشباب من كل عائلات المدينة بدون استثناء. و انعكس ذلك على واقع المدينة في كل الاتجاهات حتى تحولت المدينة خلال ثلاثة عقود من

الزمـــن مـــن قرية نائية يُنقل الموظف إليها عقوبة لقلة خدماتها إلى مدينة تتوفر فيها كل الخدمات التي تتناسب طرداً مع تقدم عجلة التاريخ.

و بـــدأت تعـــيش عصر التقنية العالية المتطورة و الكمبيوتر(هناك مركز خـــاص لتعليم الكمبيوتر يقيم الدورات للصغار و الكبار) و الأنترنت و أدخل الفاكس إلى عدة بيوت فيها.

و لـــم تعـــد هـــناك ظواهر العداء و الاقتتال بل سادت الروح الجماعية و المشـــاركة الفعالة من قبل المواطنين. و أصبح الإحساس و الشعور لدى جمـــيع الناس هو حب المدينة و تطوير خدماتها لما فيه من خدمة لأبنائها عامة.

وبعـــد استـــلام السيد الرئيس بشار الأسد بدأنا مرحلة جديدة من التطوير والتحديـــث و تعزيـــزما تـــم إنجازه في العقود الماضية و لاتزال مسيرة التطوير مستمرة.

رئيس مجلس مدينة السخنة

المهندس فواز طالب زيدان

مقدمة المؤلف

تعــود بلدة السخنة إلى منطقة صحراء تدمر. يقطنها أهل القوافل وهــم ، فــي غالبيــتهم، من أصل بدوي. و يتميز سكانها بالتزاماتهم شبه المدينــية و بســلوكهم المحافظ و بتقواهم الأمر الذي يجعلهم شبيهين بكل سكان الريف السوريين من ناحية الأعراف و العادات. أما مظاهر التفاخر و التغنــي بالماضي و عيشهم حياة الجمالين المتجولين كل هذا يجعل أهل الســخنة فــي الوقــت نفسه قريبين جداً من البدو المحيطين بهم. لا يخلو التناقض بين هذين الاتجاهين من دلالات خاصة.

و لكــن قــبل اتخاذ أي موقف، فأولى الضرورات التي تفرض نفســها علــى ســكان الواحات تقوم على كفاحهم في سبيل البقاء. سكان الســخنة هؤلاء ، الذين يعتاشون بعض الشيء على أرضهم و بشكل أكبر علــى أسرتهم و قبيلتهم و بشكل خاص على منتوجات السهب ، نقول إن ســكان السخنة هؤلاء بحاجة إلى عبقرية خارقة ليبقوا على قيد الحياة. و مع ذلك نجحوا أحياناً في تحقيق الازدهار.

إن وصــف تأقلم هؤلاء الحضر الفقراء مع حياة الصحراء -كما سنشــير إلى ذلك لاحقاً- لا يقدم لنا مع ذلك -خصوصاً في إطار ضيق و تجــاه مؤسسات مختصرة- إلا شيئاً من إرضاء الفضولية، لو أن الأحداث الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية لم تكن نفسها في السخنة كما هي في

كل مدن القوافل[1] و لو لم تكن متشابهة في المضمون – بالرغم من تنوع الأشكال– مع المناطق المحيطة بالجزيرة العربية كافة .

و على هذا سوف يدرك القارئ لماذا قمنا بإجراء دراسة إفرادية لقرية بائسة رابضة في قلب السهب و ذلك بعد دراسة النماذج البشرية المتميزة في البادية السورية و قبل أن نعرض نتائج الأبحاث على البدو الرحل الحقيقيين أو على حياة الحضر. فمن خلال بعض التفاصيل التي تبدو و كأن لا معنى لها ، يمكننا أن نكتشف و نبرز –على ما يبدو لنا– التداخلات الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية لمدن القوافل كما يمكننا أن نراقب هذه التداخلات في وجوهها البدائية لا بل في حالة نقائها بعض الأحيان و ربما كان ذلك بشكل أفضل مما يحدث بالنسبة للمدن الحقيقية . إضافةً إلى ذلك يمكننا أن نميز كيف تسلك هذه التداخلات تجاه الانقلاب الاقتصادي و الاجتماعي الذي يعصف في قلب الصحراء في هذه الأيام.

---

[1] علـــى مـــا نعـــتقد ، وكما يقترح م. د. شلومبرغر ، ينبغي أن تفهم عبارة " مدينة قوافـــل" علـــى أنهـــا ، فـــي الفترة التي تتم فيها دراستها ، "محلة تحصل على الجزء الأساســـي من مصادرها من تجارة مرور القوافل " (غنومون ، المجلد ١١ ، الكراس ٢ ، شـــباط ١٩٣٥ الصفحة ٨٤). من ناحية أخرى ، ربما كان في إطلاق لقب مدينة علـــى الســـخنة شيء من المغالاة إلاّ أننا تبنيناه مع ذلك لأن هذا التجمع ، بالرغم من صـــغره ، ينطبق عليه تعريف السيد وليام مارسيه للمدينة المسلمة : " محلة يوجد فيها مسجد جامع (أي مسجد تؤدى فيه صلاة الجمعة) و سوق (الإسلام و الحياة المدنية ، ص ٩٦)

فــي هــذه المناسبة ننتهز الفرصة للتعبير عن عرفاننا إلى السيد م.د. مونتاني الذي وجّه دراستنا و إلى الأب المحترم شارل و السادة ج. ســوفاجيه و ج. لوسيرف و ج. فوليرس و السيد كانتينو الأستاذ في كلية الآداب في الجزائر. كل هؤلاء الأصدقاء تفضلوا و تكرموا علينا بتزويدنا بــتجاربهم. كمــا نشكر السيد معاذ الذي زوّدنا بالرسوم المتضمنة في هذا البحــث مسترشــداً بنصــائح السيد سوفاجيه و السيد ليسكو الذي تفضل بمراجعة النسخ قبل الطباعة .

كمــا نذكر المساعدة الثمينة التي قدمتها لنا شركة طيران الشرق و سرية هجانة تدمر . و نرجو أن يتقبل هؤلاء صادق شكرنا و امتناننا.

المراجع

ليدي آن بلنت: قبائل الفرات البدوية، لندن ، موراي ، ١٨٧٩.

السيدة إيزابيل بورتون : الحياة الداخلية في سورية ، فلسطين و الأرض المقدسة ، لندن ، كيغان بول ترنش و شركاه ، ١٨٨٤.

ج. كانتينو : اللهجة العربية في تدمر ، بحث في المعهد الفرنسي في دمشق ، ١٩٣٤.

كاظم داغستاني : دراسة سوسيولوجية حول العائلة المسلمة المعاصرة في سورية ، باريس ، لورو ، ١٩٣٢.

شارل م. دوتي : رحلات في الصحراء العربية ، لندن ، جوناثان كيب ، ١٩٢١.

إي. ف. غوتييه : الصحراء ، مجموعة بايو ، ١٩٣٢

الأب جوسين : عادات الأعراب في بلد مؤاب ، باريس ، لوكوفر ، ١٩٠٨.

الأب جوسين و الأب سافينياك : بعثة آثارية في الجزيرة العربية ، باريس ، غونتر ، ١٩٠٩-١٩١٤.

الأب لامينس : مكة عشية الهجرة ، متفرقات من جامعة القديس يوسف ، بيروت ١٩٢٤.

- مديـــنة الطائف العربية ، متفرقات من جامعة القديس يوسف ، بيروت ١٩٢٢.

الكونت كارلو دي لاندبرغ : لغة بدو العنزة ، ليد ، بريل ، ١٩٠٥ .

أ. لاتــرون : مذكــرات حــول الملكية الريفية في سورية الوسطى، آسيا الفرنسية ، نيسان ١٩٣٣، ص. ١٣٠

- الحـــياة الريفية في سورية و لبنان ، بحث في المعهد الفرنسي في دمشق، ١٩٣٦ .

أ. لودز : إسرائيل من البدايات حتى منتصف القرن السابع ، لا رينيسانس دي ليفر ، باريس ، ١٩٣٠ .

ج. مارســـيه : العـــرب فـــي بلاد البربر من القرن السادس إلى القرن السابع ، كونستانتين ، د . براهام ، باريس ، إرنست لورو ، ١٩١٣ .

و . مارســـيه : الإســـلام و الحياة المدنية : تقرير عن اجتماعات أكاديمية المخطوطـــات و الآداب خلال العام ١٩٢٨، نشرة تشرين الأول - كانون الأول ، ص . ٨٦ .

ر . مونتاني : آل شمّر في نجد ، مجلة الدراسات الإسلامية ، ١٩٣٢ .

ف . موللر : مع البدو في سورية ، باريس ، إرنست لورو ، ١٩٣١.

ألويـس موسـيل : منطقة تدمر ، الفرات الأوسط و شمال نجد ، طرق و عـادات بدو الرولة الجمعية الجغرافية الأميركية ، دراسات و استكشافات شرقية ، نيويورك ، ج. ك. رايت ، ١٩٢٨.

ك . نيبهور : رحلة م. نيبهور إلى الجزيرة العربية ، سويسرة ، ١٧٨٠ .

الـبارون مـاكس فـون أوبنهايم من البحر المتوسط إلى الخليج الفارسي، برلين ١٨٩٩-١٩٠٠

أبراهام بارسونز : رحلات في آسيا و في أفريقيا ، لندن ١٨٠٨

هـ . س. ج. فيلبي : الجزيرة العربية ، إرنست بن ، ١٩٣٠

الأب بوادبار : أثر روما في البادية السورية ، باريس ، غوتنر ، ١٩٣٤

روسو (الابن) : وصف باشوية بغداد ، باريس ١٨٠٩

د . شـلومبرغر : تقريـر عـن مؤلـف روستوفتسيف : مدن القوافل ، غنومون ، شباط ١٩٣٥

ج . ب . تافرنيـيه : رحلات السيد ج . ب . تافرنييه الستة إلى تركيا و بلاد فارس و الهند ، باريس ١٧١٣.

ر . تومـان : مذكرات حول تدبير و توزيع المياه في دمشق و غوطتها ، نشرة دراسات شرقية ، العام ١٩٣٤ ، الجزء الرابع

ك . ف . فولني : رحلة إلى سورية و مصر ، باريس ، كورسييه ، ١٨٠٧.

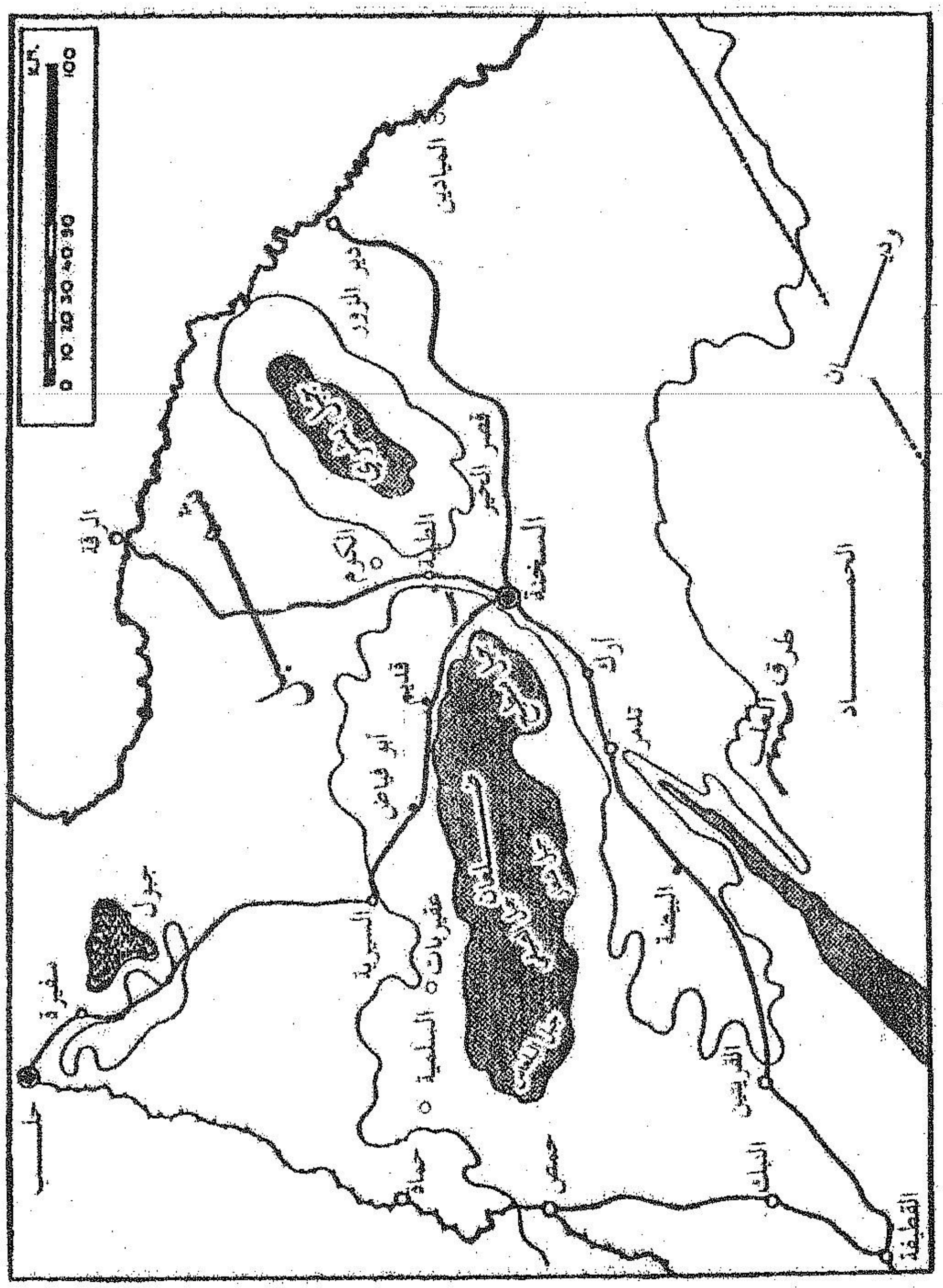
ج ز فولسيرس : أنطاكية ، مقال في الجغرافية المدنية ، نشرة دراسات شرقية ، العام ١٩٣٤ ، الجزء الرابع

وود : خرائب تدمر في البادية ، لندن ١٧٥٣

و كذلك منشوراتنا :

– مذكرة حول تنافس قبيلتين رعويتين في سورية: الموالي و الحديديين ، مجلة الدراسات الإسلامية ، العام ١٩٣٤ ، الكراس ١

– أدوات الحياة البدوية ، وثيقة دراسات شرقية ، ١٩٣٥ ، الجزء الثالث


حلب
سفيرة
جبول
السلمية
حماة
حمص
عقيربات
أبو فياض
القريتين
النبك
القطيفة
تدمر
السخنة
الرقة
دير الزور
الميادين
قصر الحير
الطيبة
الكوم
0 10 20 30 40 50 100
KM.

الفصل الأول

التاريخ

بعد أن أتينا بسرعة على وصف السخنة سنحاول في الأسطر التالية أن نبرز ماضيها الأسطوري و التاريخي مع بطولات و مفاخر زعمائها. و سوف نلمس -كما هو الأمر في كثير من المراكز الحضرية في الجزيرة العربية- كيف أن سكان القرى القدامى يتنافون و يتعارضون مع البدو المتحضّرين. و في إطار الأحزاب السياسية الحالية التي يتجدد عدد أعضائها تستمر هذه المنافسة طويلاً بعد اختفاء زعماء القرى الأوائل.

إن بعض الأحزاب ينتصر مؤقتاً بفضل حلفاء خارجيين من القبائل و الحكومات. و لكن الاستغلال المشترك لبعض الثروات المثمرة – كالحج على سبيل المثال الذي يتطلب أن تكون هناك وحدة – تنجم عنه مهادنات محمودة في وسط الصراعات القائمة. و في النهاية و على ضوء التقلبات السياسية تؤسس العشائر مستعمرات تجارية على حواف السهب و سرعان ما تصبح هذه المستعمرات نوعاً من "الشركات التجارية" القوية التي تؤمن استثمار الصحراء.

١ـ الموقع والوصف

غالباً ما يطلق السوريون اسم "سخّانة" و هو جمع "سخني" على حضر منطقة المناظر[١] كلها . و حارة "السخّانة"[٢] في دمشق يقطنها أناس من تدمر و القريتين و حتى من جيرود أما أهالي السخنة[٣] الحقيقيون فهم نادرون جداً. و يطلق "الأعراب"[٤] هذا الاسم غالباً على الباعة المتجولين بين القبائل أيّاً كان أصلهم[٥] . و تشهد هذه التسمية على إشعاع هذه المدينة الصغيرة إلاّ أنها تجعل تحديدها أمراً صعباً[٦].

تقع السخنة على بعد ٧٥ كم من الشمال الشرقي لتدمر و على بعد ١٥٠ كم من الجنوب الشرقي لدير الزور[٧] على الطريق الذي يصل

---

[١] يطلق هذا الاسم ، في لغة البدو الرحل ، على أطراف شمال الحماد (من نَظَر أي راقَبَ) و من هناك ترى الواحات على خط دمشق – دير الزور . و عند الحضر و الرعاة تشير هذه الكلمة إلى المدن بحد ذاتها التي يفترض أنها تراقب بعضها البعض الآخر (الحماد هو المنطقة الشاسعة المنبسطة دون شبكة مياه منظمة و التي تمتد جنوب منطقة تدمر

[٢] راجع كانتينو ، المرجع السابق ، ج. ١ ، ص. ٢١

[٣] راجع فصل /٥/ اللاحق ، الجاليات

[٤] أي البدو الرحل لتمييزهم عن السوريين الحضر

[٥] و يطلق أيضاً على هؤلاء غالباً اسم "قبيسات" على اسم الواحة التجارية المجاورة للفرات الأوسط

[٦] علينا مقارنة ذلك باسم "عجيل " الذي يطلق على سبيل التعميم على كافة حضريي القصيم بسبب ازدهار هذه الشركة لتجارة الجمال .

[٧] تعني كلمة "الزور" في الأصل ، النباتات الشوكية التي تغطي السطوح السفلى للوديان التي تجري فيها أنهار الصحراء . و على سبيل التعميم ، تشير إلى وديان الفرات و روافده.

بيـــن هاتين المدينتين باجتياز سفوح مرتفعات شميل[1] و لذا فهي آخر مدن المـــناظر جـــنوباً و بالتالي أقصى مركز جنوبي للاستقرار الحضري في شـــمال الجزيـــرة العربـــية. و هي تنفتح من جهة الشرق و الجنوب نحو الصـحراء حيث لا يفصلها عنها أي حاجز طبيعي الأمر الذي يتيح لسكانها بالانتشـــار لممارسة التجارة مع القبائل الرحل . من جهة الشمال و الغرب و علــى الرغم من وجود الجبال تتصل السخنة عن طريق طيبة و الوادي الكبـير بالــرقة علــى الفــرات و بحلب و حماة (إنها تمتلك مستعمرات تجاريــة فــي كــل هذه المدن). إن وضعها يجعلنا نفكر بوضع دمشق و القريتين و تدمر: إنها نبع في أسفل ممر جبلي[2] .

و مـــن بعـــيد تشـــرف على السخنة من جهة الشمال و الشمال الشـــرقي الـــتلال المســـتديرة لجبل بشري و تضاريس دولان (ضلعان)[3] المنحدرة و في المنحدرات البيضاء لجبل ضاحك تقوم بيوت السخنة على مرتفع ضعيف قاحل.

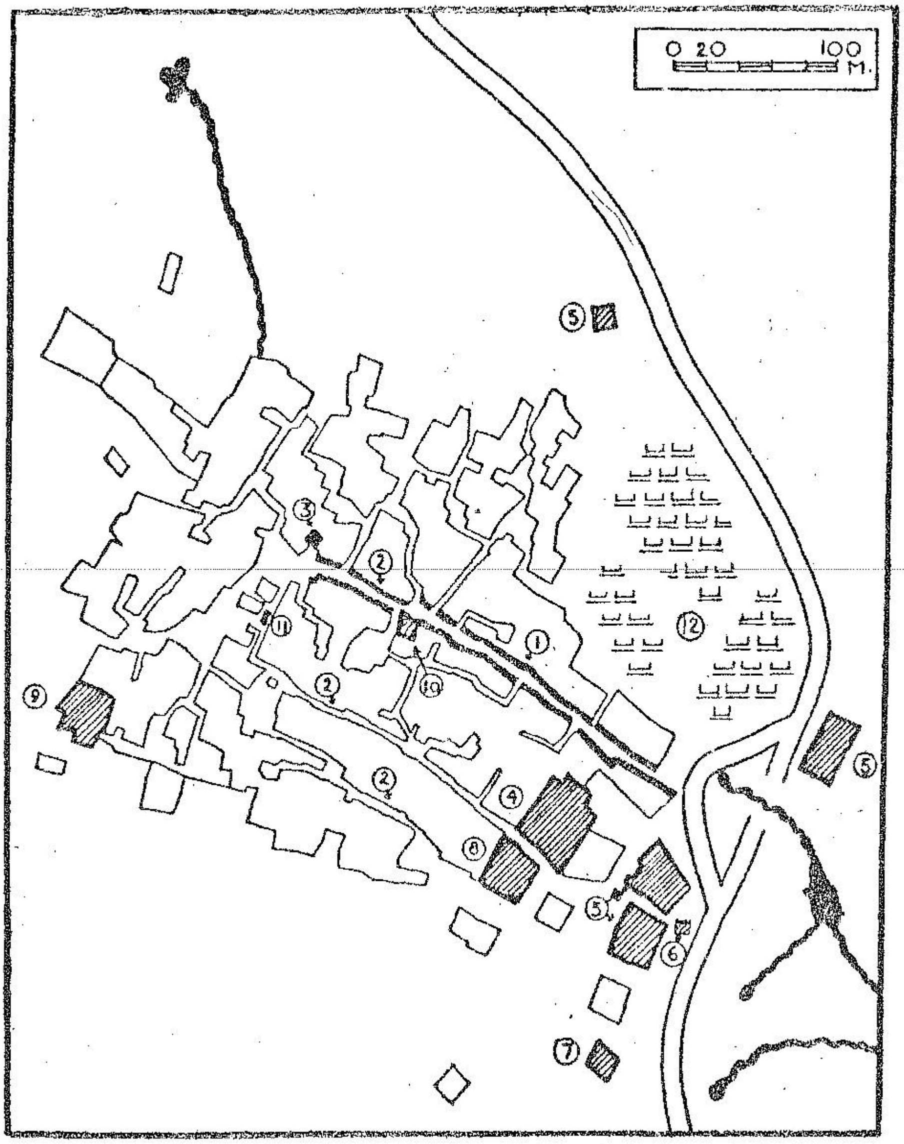
في الشرق و الجنوب نشاهد المناطق المعدة للري بحقولها حيث تحـــدد بعـــض السياجات ثلاث جزر من البساتين . و هناك أيضاً بعض البساتين البائسة في آخر أرض عين فياض في شمال المدينة. و أخيراً و

---

[1] الشميل ، مكيال للحبوب يتراوح بين حمولة أو نصف حمولة جمل (راجع لاترون ، الحياة الريفية في سورية و لبنان ، فصل ١) . و تشير هذه الكلمة إلى المنطقة المنتجة للقمح شرقي حماة. و على سبيل التعميم ، في لغة الصحراء ، المنطقة المحصورة بين طرق حمص – تدمر و تدمر دير الزور و الفرات و سورية الحضرية .

[2] راجع كانتينو ، المرجع السابق ، ج. ١ ، ص. ٢

[3] على بعد ٤ كم من السخنة (ارتفاع ٥٢٠ م) و يصل جبل سطيح إلى ١١٠٠ م



مخطط السخنة

١- سوق (شارع القصر) ٢- شوارع منحدرة نحو النبع ٣- قلعة ٤- خان الحج القديم ٥- كراجات ٦- مستوصف حديث البناء ٧- مدرسة حديثة البناء ٨- بيت الشيخ أحمد العبد العزيز ٩- البيت القديم للزعيم الجرداوي ١٠- جامع ١١- مزار الشيخ خضر الأخضر ١٢- مقبرة

نلاحظ موقع المقبرة التي تشرف على النبع الرئيسي و توازي الشوارع المنحدرة نحو مصادر المياه.

على جانبي الطريق التي تصل منها القوى المؤثرة الخارجية ، تبدو أبنية المرافق العامة و بالأخص الكراجات التي حلت محل الخان القديم و انتقل إليها مركز القرية بعد أن كان في (٣)

على بعد كيلومتر واحد جنوباً نرى بقايا تجمع سكني هام يدل على أن هذا المكان مسكون منذ القدم.

لا نجد حول القرية أية آثار تشير إلى تحصينها. إن سور الجدران المصنوعة من اللبن أو الطين التي تتحدث عنها ليدي بلنت[1] ليست سوى محيط للباحات و البيوت. إن غياب فتحات نحو الحقول يجعلنا نضيع لأن الشوارع الصغيرة تبدأ في وسط الأبنية و بالتوازي مع جدار خارجي. فهي بالتالي لا تُرى من على مسافة قصيرة و لا تصلح أبداً لتخييل البدو أو لطلقات رصاصهم[2]. لا يوجد سوى شارعين ضيقين و متوازيين واضحي المعالم و هما الشارعان اللذان يؤديان إلى النبع إذ لا بد من وجود طرق تؤدي إليه. و يضمّ أحد الشارعين كل دكاكين القرية تقريباً.

٣ـ أصول أسطورية

على الرغم من الآثار القديمة العديدة التي نكتشفها، يبدو أن موسيل لم يجد ذكراً لبلدة السخنة قبل الإسلام لكن الكتّاب العرب أتوا على ذكرها منذ ١١٨٤[3]. و في عام ١٣٤٨ يذكر ابن بطوطة[4] بأن غالبية

---

[1] راجع ليدي بلنت ، المرجع السابق ص ٣٧

[2] لا يمكننا أن نرى في ذلك نوعاً من الدفاع – فليس من الممكن للسخنة أبداً مقاومة غازٍ – و إنما هو احتياط عاقل . فأهالي تدمر ، عند بنائهم لمدينتهم الجديدة ، تذمروا من الفتحات الواسعة في اتجاه السهل الريفي بحيث يمكن لبندقية بدوية واحدة منع أي تجول في المدينة (راجع كانتينو ، المرجع السابق ، ٢ ، ص. ١٣٦)

[3] راجع موسيل ، منطقة تدمر ، ص ٢٥١ – ٢٥٢

[4] ذكره موسيل ، منطقة تدمر ، ص ٨٢

ســكانها من المسيحيين . و لكن الرواية تذكر بأنها كانت بلدة يهودية في القديــم. ولكن هذه الرواية المنتشرة في منطقة تدمر و الفرات الأوسط[١] و فــي بلــدان عربية أخرى[٢] ليست واضحة تماماً كما هي الحال في تدمر مثلاً.

سكان السخنة الآن هم في غالبيتهم من أصل حديث لعرب رحّل و لكــن ليس من المستغرب أن نرى بعض القبائل قد أقامت و استوطنت فــي محيط السخنة قبل أن تستوطن فيها بالذات . و يبدو مثلاً بأن : مني رحمــة[٣] المنضمين إلى المرازقة كانوا يشغلون سابقاً الطيبة في منتصف القرن ١٨.

لــيس مستحيلاً أن نجد من بين أقدم أهالي السخنة مهاجرين من الكوم و حتى من قصر الحير[٤] على الرغم من عدم إيجادنا آثاراً لهؤلاء.

فــي الأصل كانت المدينة تخص مني صلحة ثم أتى بعدهم مني عفي الذين يروون لنا قدومهم إلى السخنة هكذا:

"كان بنو صلحة يسكنون قصراً كبيراً[١] (ما زال يسمى القلعة بقي مــنه بعــض قطع القرميد) لم يكن يخرجون منه إلا نادراً. إن جدنا عفي

---

[١] راجع موللر ، المرجع السابق ، ص ٢٦ . كانتينو ، المرجع السابق ، ج ١، ص ١٨

[٢] راجع غوتييه ، المرجع السابق ص ١٠٣ . ج . مارسيه ، المرجع السابق ، ص ٥٧٣

[٣] يستخدم أهل السخنة كلمة "مني" عوضاً عن "بني".

[٤] هجــر فــي القرن السابع عشر و إننا نجد غالباً عائلات تعرف أن أصلها يعود إلى موقع صحراوي مهدم حالياً (و هذا حال بعض المسيحيين في القريتين الذين ينحدرون من بصيرة)

القـــادم من الجزيرة حيث كانت تنتقل قبيلته[٢] كان يسقي خرافه من السخنة مقـــابل إعطائه بعض الخراف (الدواب) للسكان. و ذهب للبحث عن أبنائه حيـــث حفروا بئراً تحت خيمتهم و ما زال البئر مرئياً حتى الآن. إنه بئر منـــي عفي في طرف المدينة الشرقي. كانوا يعملون في حفر البئر ليلاً و يحملـــون التراب المستخرج إلى البعيد. و عند طلوع النهار يخفى فم البئر تحـــت قدر العائلة الضخم. و حينما وصلوا إلى استخراج الماء قال سكان الســـخنة لعفـــي الـــذي امتـــنع عن إعطائهم الخراف: "يا عفي أين تسقي قطعـــانك؟" فأجابهم "من طيبة و من قديم ..." لكن الحيلة اكتشفت ذات يوم و ضُـــرب عفي و سلبت قطعانه. فدعا إخوته و أولاده و قال لهم: "حينما يحـــل المساء سوف يجتمع السكان الحضر لشرب القهوة ثم يعودون إلى بيوتهم ليناموا. و سوف أذهب للحاق بهم و حينما يغفون في نومهم سوف أعود إليكم لتدخلوا بعدها إلى المدينة و تقومون بذبحهم.

و فـــي الساعة المحددة عاد عفي إلى خيمته و تقلّد سيفه و توجه إلـــى أفراد عائلته بهذا القول الذي تناقلته الأجيال: " وين زلمي و رجالي؟ ويـــن مسعود الغالي ؟ وين مسيعد الغالي ؟ و ين سعيد الغالي ؟" و أتى بهـــم إلى باب القصر و هو -كباقي الأبواب- عبارة عن حجر كبير يرفع رفعـــاً . أمســـك الـــباب داعماً إياه برأسه . ثم دخل أهله و ذبحوا كل من

---

[١] في أعلى نقطة من المدينة ، بقي منه كومة من القرميد الجاف و المتصدع و ما زال يدعى القلعة .

[٢] قول البعض إن هؤلاء الغزاة كانوا من العبادي و أصلهم من أكراد المللي و لكنهم يقرّون بأن أحفادهم الحاليين الحقيقيين هم بنو عفي الذين يقولون بأن أصلهم من النعيم .

فــاومهم و لكــن حيـنما حاول عفي التخلص سقط حجر الباب و سحق رأسه."

و قد هرب بعض من نجوا من آل صلحة إلى حلب و حماة من حيــث عادوا في عهد السلطان عبد الحميد (١٨٦١-١٨٣٠) يرافقهم بنو غنيمة

"عمــل الأبـناء الستة لأرملة اسمها غنيمة مع عائلتهم في خدمة بيــت العظــم الشهير في حماة. و ذات يوم بينما كان رب بيت العظم في السجن في دمشق على أثر خلاف له مع الوالي التركي فاجأ الأخوة الستة نســاء رب البيــت في الحمام. و بعد خروجه من السجن جرّد هذا الأخير أبـناء غنـيمة مــن مهــامهم القائمة على مراقبة قراه مما اضطر هؤلاء للالتجاء إلى السخنة."

و قــد سبب وصول مني غنيمة و مني صلحة هجرة مني عفي إلى سفيرة و حلب[1].

لــم نسـتطع جمع أساطير تتعلق بإقامة باقي القبائل و ما نملكه لــيس ســوى وقائع حديثة (إنها تعود عموماً إلى ١٥٠ – ١٠٠ عاماً، و بالنســبة لمني عزام ٨٠ عاماً فقط) . و كما يحدث في كثير من الواحات، فالقــادمون كــانوا فــي غالبيتهم العظمى من البدو الرحل الذين اضطروا

---

[1] هذا الملجأ ، الذي كان مألوفاً جداً آنذاك ، أقامه آل العظم أنفسهم . و يذكر فولني قصة أسعد العظم ، باشا دمشق ، بأنه عندما أقيل ، انسحب إلى البادية مع أهل بيته من أجل تفادي مأساة أكبر ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٥.

للابتعاد عن قبيلتهم بسبب مغامرةٍ ما مزعجة. إن أجمل الأساطير لا تعمل أحياناً إلا على التستر على خطأ ارتكبه سلفٌ لنا قد يسبب لنا الخجل الكبير لو أننا لم نخف هذا الخطأ ليصبح في عالم النسيان. و بالتالي فالعائلة المقيمة المستقرة، حتى عند انتمائها إلى قبيلة مترحلة ، غالباً ما تكون عاجزة عن شرف الانتماء إلى أحد أفخاذ هذه القبيلة بشكل خاص .

و يروى بأن القرابة ولدت بين سكان السخنة لكون هؤلاء تزوجوا كلهم بنات مني صلحة و هم السكان الأوائل للمكان. هكذا حاولوا إعادة بناء العقلية القبلية التي طالما حُرم منها الرحل القدماء حينما استقروا على الأرض.

٣- معطيات تاريخية

لا شك في أن السخنة لم تسقط تحت أيدي العنزة إلاّ خلال القرن (١٨) و قد كان يحكمها حتى ذلك الحين الموالي. و قد مارس عليها الحسنة و السبْعة سيطرتهم دون أن يفلحوا في طرد السكان الأوائل[١].

يقال إن البلدة نجت حوالي العام ١٨٠٠ من الوهابيين أتباع عبد الله بن سعود الذين كانوا قد سلبوا لتوهم أريك و قتلوا فيها ثمانية و سبعين رجلاً . و حوالي ١٨٠٢ أخليت المناظر بالكامل تحت التهديد الوهابي . و قد أقيمت ، أو على الأقل عزّزت ، عدة جاليات من السخنة في المدن السورية ، كما في السفيرة و حماة خصوصاً.

---

[١] للمقارنة مع جوسن و سافينياك ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٦١

نحو ١٨٣٢ وقعت السخنة في أيدي المصريين الذين مكثوا فيها عاماً كاملاً. و قد تصادفت مغادرتهم مع هجرة جديدة نحو حلب[١]. و حوالي عام ١٨٤٠ أصبحت البلدة مسكونة من جديد لأن جار الله زعيم تدمر وجد ملجأ فيها بعد أن غضب عليه عبده آغا السويدان[٢].

يعتبر الآغوات السلطة الوحيدة التي ما زال الناس يذكرونها قبل وصول الأتراك. و يتشكل هؤلاء من زعماء الفصائل غير المنظمة الذين توارثوا في خدمة الباب العالي و كانوا يشغلون مدناً على أطراف الصحراء[٣] و يقومون بدور تنظيم القبائل . إن السلطة الاسمية لآغا حسياء ، و هونفسه تابع لباشا حمص ، ربّما كانت تمارس على تدمر و السخنة قبل القرن السابع عشر . و يزعم أهالي السخنة بأن تلك السلطة لم تكن فعلية – على ضعفها – إلا بعد مرور القوات المصرية[٤]. و ربما

---

[١] لا ينبغي أن يثير مثل هذا الهجر عجبنا . فقد عرفت تدمر حالة مشابهة . و كذلك أيضاً الكثير من الواحات المماثلة . راجع كانتينو ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١ –١٢ و قارن أيضاً مع جوسن و سافينياك ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٧٥ – ٤٧٦

[٢] راجع تقرير حنا جبور . هذا التقرير استخدمه بشكل خاص م. كانتينو . حوالي ١٨٥٦ . استعاد جار الله السلطة على تدمر

[٣] حسياء و جيرود و كذلك القريتين بعد تقسيم إقطاعية آغا جيرود . تصف السيدة بورتون آغا جيرود (دعاس آغا) حوالي ١٨٧٠ على النحو التالي :" إنه زعيم حدودي ، تتكون عائلته كلها من المقاتلين . لديه ١٥٠ رمحاً غير نظامية . و يفترض أنه بواسطتها يستطيع كبح جماح البدو . استخدمته الحكومة التركية خلال فترة معينة . و لكنه أساء استخدام سلطته إلى حد بعيد و ارتكب الكثير من الفظائع لدرجة أن الحكومة سحبت عنه الحماية " ، (المرجع السابق ، ص ١٦٥)

[٤] كانت مطبقة في تدمر منذ زمن طويل. مر من حسياء رحالة من أمثال وود في منتصف القرن ١٨ و قدم لهم الآغا مرافقة .

من المحتمل أنهم كانوا يرون أحياناً العجيل و هم جنود الآغا. . و لكنهم رأوهم بكل تأكيد منذ عام ١٨٣٢.

نحو عام ١٨٥٧ ، احتل العثمانيون دير الزور ثم أتى دور تدمر عـــام ١٨٦٢. يجـــب إذن أن نحدّد في هذه الفترة وصول شخصيات من السلطة التركية إلى السخنة و قد قام هؤلاء بنصب مراكز كبيرة من الخيم البيضاء قرب النهر، ما زال الناس يذكرونها ثم تركوا عند رحيلهم حامية صغيرة تابعة للرقة التي كانت منذ زمن طويل مركز سلطة محلية.

و قـــد ظـــل هؤلاء الجنود خلال ٢٠ عاماً غير تابعين للآغا. و كـــانوا من العجيل ثم من الشركس أو الشاشان[1]. بعدها حلّ محلهم رجالٌ اقتصـــرت مهمتهم على خدمة العلم. وقد صبر الناس عليهم كما يصبرون علـــى داء لا بـــد مـــنه[2]. و لم يمنع وجودهم البدو من جباية ما سمي بـــ "مكـــوس الأخـــوّة" التي يحق لهم جبايتها. إن قبائل الموالي و الحسنة ثم السّـــبَعَة ما انفكوا يسيطرون على المنطقة . و حتى الشوايا المقيمة على شـــاطئ الفرات قامت بالتدخل في شؤون المدينة و بشكل نشيط أحياناً. مع ذلك كان الجنود الأتراك يقيمون أمناً نسبياً[3]. و بدءاً من عام ١٨٨٠ تمت جـــباية الضريبة بشكل نظامي. و نحو عام ١٨٩٠ –و هو تاريخ لا سابقة

---

[1] فرسان شراكس ، فرق من شرطة الحكومة التركية

[2] راجع السيدة بورتون ، المرجع السابق ، ص ١٦٩ :" أهل القريتين فقراء جداً . و هناك الجنود الذين يضطهدونهم و يسرقونهم . إنهم يكرهونهم و يخشونهم لدرجة أنهم حين يرون لباساً رسمياً يفرون جميعاً من الطريق كما يفرون من أفعى".

[3] راجع أوبنهايم الفصل ٧ ، ص ٢٦٠

له- استطاع الجنود الحصول من قبيلة الحديديين[1] على ثمن دم رجل ذبح من أهالي السخنة.

و قـد وفّر تأمين الجمال من أجل " حجيج " دمشق بالتعاون مع باقـي المـناظر، الازدهـار إلى السخنة لمدة طويلة . و في عام ١٨٨٠ انـتقل تأميـن الجمال إلى الدمشقيين أنفسهم. و قد ازدادت الأرباح أيضاً حينما قام الملتزمون بالمناطق لتأمين الحجاج من فارس و العراق بين دير الـزور و دمشـق. و قد أدى إنشاء خط الحجاز الحديدي عام ١٩٠٣ و الحرب العالمية إلى إنهاء هذه التجارة التي أصبحت ضعيفة بالأصل.

٤- صراعات سياسية محلية

مـن الصعب جداً أن نتوصل إلى معرفة كيف حكمت السخنة . يقـال إن زعيم البلدة كان يعين و يكلف دائماً من قبل مجلس من االسكان المتنفذّيـن. و لكـن هـذا المجلس لم يكن أبداً مؤسسة نظامية سواء كان منتخـباً أو معيـناً فالوجهاء القائمون في المدينة كانوا يعبرون عن الرأي العـام . و يبدو أن الفوضى قد سادت فيها دون انقطاع تقريباً . و نجحت بعـض الشخصيات المدعومة من البدو أو الحكومة في النصف الثاني من القـرن (١٩) أن تفـرض سيطرتها على المدينة. و لكن فيما بعد، و إلى تـاريخ قريـب جداً ، عاشت القبائل من جديد مستقلة عن بعضها و كانت كـل عشـيرة تنضوي تحت لواء رجل ذي نفوذ و تأثير. و بنفس الحين، يمكننا أن نميز من خلال هذه الصراعات الخفية تعارضاً مستمراً لطرفين

[1] قبيلة عديدة و لكنها غير محاربة و قليلة الاعتبار

يتنازعان و يتنافسان مع السلطة حول تقديم الجمال للحجاج : من جهة أولى،هنالك مني مقيبل المتحدين مع آل عبد العزيز (من عائلة مني غنيمة)، و من جهة أخرى هنالك كل باقي العشائر المنضمين عموماً تحت لواء زعماء مني عفي أما الأوائل -و هم من كافة الانتماءات- فكانوا يؤيدون مني صلحة و هم ملاّك المدينة الأصليون، أما الآخرون فكانوا بدواً رحلاً قد استقروا في السخنة فيما بعد.

لنذكر الآن بعض الأسماء الرئيسة من هؤلاء الزعماء:

عبد العزيز من مني غنيمة و هو أقدم زعيم ما زال الناس يتذكرونه و كان يسيطر في بداية القرن التاسع عشر على السخنة و ، كما يقال ، على حماة[1]. علي الحامد من مني عفي و كان في السلطة في نفس الفترة المذكورة و يؤمّن الجمال للحج (متسلم الحج).

و في منتصف القرن التاسع عشر، ظهر صالح الطلاّع و هو قريب لعبد العزيز و أكبر زعماء أهالي السخنة و كان يؤمّن المؤن للحجاج و أرسل لهم قرابة ألفي دابة. من أجل هذا كانت علاقته مباشرة مع الباب العالي "من فوق رأس باشات الحج" .

و في بداية زعامته قتل صالح أحد المواطنين مما اضطره الأمر، أمام تحالف العشائر ضده، للفرار إلى حماة مع عدد من مني

[1] أو على الأقل أتباع آل العظم في هذه المدينة

مقيــبل. و قد كسب هناك نفوذاً كبيراً[1]. سليم الكرين من المرازقة[2] حكم خــلال غيابه إلى أن عاد صالح إلى المدينة منتصراً معتمداً على استياء أهالــي الســخنة و على سلاح مني ولده[3]، فهرب سليم إلى حلب و دلّل صــالح الطــلاّع على الاعتدال في إدارته مما أتاح له حكم السخنة حتى تاريخ موته (حوالي العام ١٨٧٥).

يبدو أن عبيد الرحمن من مني عفي كان عام ١٨٨٠ آخر زعيم اعترفــت بــه المدينة بالإجماع. و قد أُقيل من زعامته لكونه لم يدافع عن رعايــاه ضــد مطالبات البدو الملحة. فاعتكف في السفيرة و هناك اتخذت جالية مني عفي كامل أهميتها.

لــم يعــد هناك إلاّ عدد ضئيل من العشائر المستقلة. و تميّز بين الوجهاء رشيد العمير من مني خلف الذي حصل على ثمن فدية رجل قتيل مــن أهل السخنة كما ذكرنا سابقاً، و علي الدرويش و أخوه وهّاب من آل عفــي و قــد هاجــر معهما عدد من أقاربهما إلى السفيرة[4] و حوالي عام

---

[1] يقال إنه كان يدعو الشخصيات الرئيسية في المدينة ليخلعوا له حذاءه و يضرب كل من يرفض . تقدم الحمويون بعريضة ضده إلى السلطان عبد المجيد . أتت فرق و عسكرت على أبواب حماة و استدعي صالح فأرسل أحد عبيده لمراقبة مطبخ القائد التركي خشية أن يتم تسميمه. ثم ذهب إلى المحرس و انتظر ثلاثة أيام ، من الفجر حتى أول "الله و أكبر " في آذان الظهر ، دون أن يحظى بالمقابلة . في اليوم الثالث استقبل و تحالف مع الضابط و رفض خرابة قدمت له في الضواحي ليؤسس فيها قرية . و أرسى السلام مع الحمويين.

[2] سانده درويش العلي من مني عفي و عرب العساف من مني خلف

[3] قبيلة الشوايا من الزور.

[4] كان علي قد خسر أغلب جماله في الحجاز و تجنباً من باشا دمشق عاد من الحج عن طريق غوف و وصل إلى السخنة ثم لجأ إلى السفيرة في ولاية حلب.

١٩٠٠ تقاسم السلطة رشيد العمير من مني خلف و جرداوي الدرويش من مني عفي و عبد العزيز من مني مقيبل.

بـــدأ الوضع يميل إلى البساطة بازدياد نفوذ عبد العزيز. و تألبت المدينة و تجمعت حول محمد العايد من آل عيبان ضد مني مقيبل و هكذا عـــادت المعارضـــة التـــي ســـبق لها من نصف قرن أن طردت صـالح الطـــلاّع[١]. و في عام ١٩٢١، ذُبح محمد العايد[٢] و حصل تشرذم جديد في العشائر.

قـــام الشيخ مرعي من مني عفي بآخر محاولة توحيد بدت ، بعد عـــام ١٩٢٠، و كـــأن لها حظاً في تحقيق بعض النجاح ؛ و لكن كان قد فـــات الأوان لســـوء الحـــظ. و خلف عبد العزيز (المتوفي في الكوم عام ١٩١٠)[٣] ابـــنه أحمـــد. و هكذا و للمرة الثالثة في تاريخ السخنة قاتل آل مقيـــبل وحدهـــم ضـــد باقي سكان المدينة. و على الرغم من أن التحالف المعـــارض جمـــع ثلاثة أرباع السكان أحياناً فإن النصر كان من نصيب أحمـــد عـــبد العزيـــز الذي تدعمه الدولة . كما كان شأن أخي جده صالح الطلاّع مدعوماً من قبل بدو آل ولده الرحّل.

---

[١] هكذا كان الوضع خلال مرور موسيل بها عام ١٩٠٨! (راجع بالميرينا ص ٨٢)

[٢] قتله الموايجة و هم فخذ من السَبعة عبدة لأنه رفض أن يتركهم يسلبوه. و لم يُدفع ثمن فديته. في الطريق بين السخنة و الطيبة ، أقيم له جدث تذكاري و هو عبارة عن عدة أحجار مجمعة (مقام)

[٣] مات و هو في رحلة للمطالبة بجمال سرقها آل شمّرمن صديقه زويمل من آل سنقارة.

يبدو لنا أن الحياة الحضرية حديثة العهد لدى غالبية أهل السخنة تتميز بالغياب الكامل للتنظيم السياسي.

المـــرجع الوحـــيد الذي يدركه هؤلاء السكان الذين انسلخوا عن قبيلـــتهم هـــو سلطة العائلة. و لهذا يبحثون عن إعادة بعث هذا النوع من الســـلطة فـــي الوقت الذي اندمجت فيه الفئات الاجتماعية و انصهرت مع بعضها.

نلاحـــظ أن مجموعات اضطرت إلى الهرب و عرفت الازدهار خـــارج مقـــرها أملاً بالعودة إلى الوطن الأم. و هذه الظاهرة تجعلنا نقوم بملاحظة كثير من النزوحات التي تعقب الإخفاقات (الشمّر مثلاً). هذا عند الـــبدو أما عند الحضر المقيمين المستقرين فلدينا مثال هجرة النبي محمد إلـــى المديـــنة و الصراعات السياسية بين المدن في الحجاز كما في عدة أقاليم عاملة في مجال التجارة.

الفصل الثاني

الحياة المادية و العائلية و الدينية

من المفيد أن نستعرض نوع الغذاء و الثياب و أصناف الزينة و أدوات العناية بالجسم و نوع السكن لنتمكن من خلال ذلك اكتشاف أوجه الشبه بين أهالي السخنة و سكان المدن، أو بالعكس اكتشاف تشابههم مع أسلافهم البدو المحيطين بهم. إن الشبه بين منازلهم و بين خيم مربي القطعان من أجدادهم و جيرانهم يبدو واضحاً جلياً. و سوف نلاحظ في هذا الصدد ، كما في صدد الحفلات العائلية التي سوف نتحدث عنها لاحقاً، الاتجاهين الحضري و البدوي اللذين يؤثران ، بشكل متعاكس ، في سكان القرية.

لكن الحياة الدينية -باستثناء بعض الرواسب الصحراوية- تكشف عن أنهم مسلمون شأن باقي أهل المدن في سوريا و بالأخص أهالي حماة. و نميز التقوى الدينية عند هؤلاء عن لا مبالاة البدو الرحل الظاهرية. و لا يسعنا في هذه المناسبة إلا استذكار حياة النبي الذي كان في الوقت نفسه ساكناً حضرياً و يستخدم الجمال[1].

---

[1] راجع مارسيه في عمله صفحة (٨٩) بعنوان: "المبادئ الأولى للقانون المدني" الواردة في الكتاب الكريم لا تنطبق إلا على التجار الحضر المستقرين.

١ ـ الحياة المادّيّة

أنـــواع الـــتغذية التـــي يســـتخدمها أهل السخنة قريبة من أنواع الأغذية لدى الرعاة الرحّل[١] . فهم لا يستخدمون زيت الزيتون على الرغم مـــن وفرة عدد أشجار الزيتون في بساتينهم. يقوم طبخهم على السمن أو شـــحم الضأن أو زيت البطم. و نظراً لأن التمر عندهم سيئ جداً يقومون بشـــرائه من العراق. و مثل الحضر أيضاً لا يأكلون اللحم إلا قليلاً إذا لم تتوفر لديهم الدواجن. و بالمقابل –حتى لدى الفقراء منهم– استعمال القهوة منتشـــر جداً، أكثر مما لدى القبائل. و كما نعلم نجد الشيء نفسه في مدن نجـــد. يمكن أن يتوفر ١٢ ركوة قهوة في بيت متوسط الحال، و كلها من قياسات مختلفة. و كما نرى رمز الكرم هو هو في كل مكان[٢].

أمـــا لـــباس أهل السخنة فهو أقرب إلى لباس مربي الماشية منه إلـــى لـــباس باقـــي ســـكان منطقة تدمر المتأثر حالياً بنمط سكان المدن الســـورية[٣] فالفساتين مصنوعة غالباً من القطن المائل إلى اللون الأصفر

---

[١] يحول الفقر بينهم و بين الخضار و الفواكه القادمة من حمص و دمشق و المحملة بالشاحنات نحو دير الزور. فهم يتغذون بالقمح المجروش (البرغل) أو بالطحين الذي يصنعون منه خبزاً كما يتغذون بمنتوجات الحليب و بالزيت و الزبيب أو الدبس و من الزيتون و منتوجات حدائقهم. أما البهارات فيستوردونها من المدن.

[٢] راجع دوغتي المرجع السابق ج ٢ ص ٣٣٧

[٣] يلبسون القصيرة و هو "الثوب الأبيض" لدى البدو و السروال و الفستان المفتوح القطني المخطط (زبون) أو السادة (صاية) و العباءة و الفروة. أما غطاء الرأس الأكثر انتشاراً فهو من الفانيلا المثبّت على الرأس بالعقال، ينتعلون الأحذية الحمراء أو السوداء المسماة البسطار أو المداس كما في حلب و ليس المركوب كما في تدمر أو الزربول عند العرب. راجع الرسوم ٤-١ ، ٧-٢ و ٨ و راجع أيضاً بحثنا بعنوان: " أدوات الحياة البدوية.

أو الأخضر كما لدى الحديديين و العمور أو لدى بعض قرى منطقة حلب[1] لكن البعض يرتدون قمصاناً ذات أكمام طويلة (ردين) شبيهة بأردان الرحل أصحاب الجمال مثل آل العنزة و آل شمّر. و لكن بالنسبة للبعض منهم تتمثل الأناقة القصوى بانتعال الجزمات الحلبية أو حتى ، مؤخراً، بارتداء بعض الثياب الأوربية (من ستر أو أحذية أو جوارب أو حمالات جوارب).

تلبس نساء السخنة مثل نساء مربي المواشي[2] و لا يضعن الحجاب ويتقلدن الجواهر المجوهرات المتعددة[3] و لكنهن لا يلبسن الخلاخيل كما هي حال نساء دير الزور و الصليبيات[4] و بالمقابل البعض منهن يضعن خزاما ذهبيا في الأنف و هو من صنع حلب يهدى بمناسبة الزواج و غالباً ما تعلق هذه الحلية بسلسلة في حجاب الرأس خشية أن يتأثر الأنف بوزنها.

و الوشم (الدق) ليس عملاً مقتصراً على النور كما هو الحال عند العنزة. فهنالك بعضٌ من عجائز السخنة يُجِدن صنع الوشم. يخضع

---

[1] قبائل الشمبل مربية القطعان

[2] راجع أدوات الحياة البدوية، تلبس النساء قميصاً بلون أزرق غامق و هو ثوب البدويات الأسمر و الصاية السمراء و الشمبر و الحطة على الراس و هي خمار عند الفتيات و عصبة عند النساء المتزوجات. و ينتعلن أحذية كبيرة ذات كعب مصفح بالحديد و هو غالباً أصفر اللون (أي المشاية). (راجع الشكل ٤-١)

[3] مثل خواتم و سوار الفضة و سوار المجوهرات (الزولة) و السوار الزجاجي (معضد) فوق الكوع و الأقراط (حلق الأذن).

[4] نساء آل الصُليب و هي قبائل منبوذة محتقرة

الـــرجال إلى ذلك لأنهم يرون فيه علاجاً ضد بعض الأمراض أو يُرضي ذوقهـــم بكل بساطة. و لكنهم نسبياً قليلو الوشم و هم أكثر وشماً من البدو الـــرحّل دون شـــك و لكـــنهم أقـــل بكثير من السكان السوريين المقيمين المســـتقرين، حتى من باقي أهل المناظر . و على العكس، تجد الوشم لدى النساء على كافة أعضاء الجسم[1].

أما اليافعون الصغار فرأسهم محلوق مع بقاء خصلة (طُرة) على الجـــبهة. و يترك الشبان ضفائرهم تنمو (الجدايل) تمثلاً بالبدو الرحل. و حيـــنما يـــتقدمون في العمر يحلق الرجال الجدّيون شعر رأسهم كلياً عملاً بتعاليم الدين و أحكامه.

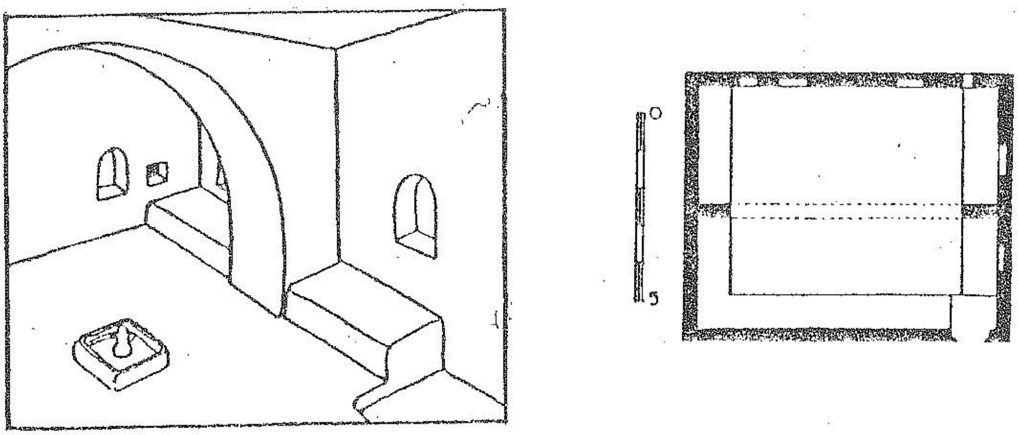
و يحصـــل أن تقـــص النساء -أسوةً بالنساء البدويات- شعرهن لدى وفاة عزيز عليهن. لا أحد يفتخر بهذه الخرافة (التطيّر) و لكننا نشاهد أحـــياناً ضفائر جميلة معلقة في البيوت كانت النساء قد زينتها بالقراميل و هي شرائط مجدولة من الصوف الأسود[2].

أما الشعر و الأظافر فتحجب عادةً بعناية.

---

[1] لهن على الذقن نقاط سوداء تشكل ما يسمونه بـــ "شارب حامد" و هنالك خط من الوشم ينطلق من الذقن عابراً الثديين يسمونه "دق الماني" و الدائرة تحت السرة مثل التي ترسم فوق العصعص تسمى "صيوان" (و هو اسم الخيمة المستديرة المستندة إلى دعامة مركزية يستخدمها غالباً التجار في القبائل). و في أسفل البطن وشم كف الميزان (قبّان). و في الوجه الداخلي للساعد الذي يتكئن عليه للنوم نرى وشم المخدة. فوق العرقوب نرى دوائر يسمونها (حلزون) و على الفخذين وشم مثلثات اسمها (حرايس) .

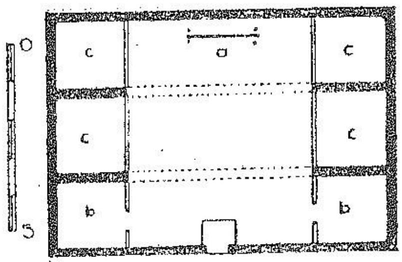
[2] وتسمى في تدمر "عُقصة"



الشكل ٣

قاعة استقبال (منزول) الزعيم السابق صالح الطلاّع

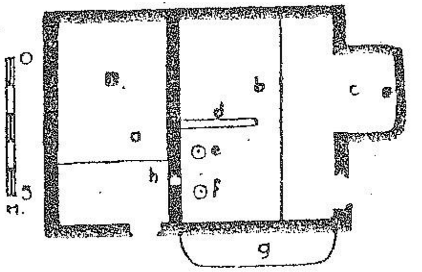
الأرضـية مرتفعة، المقاعد و القنطرة العريضة التي تسند السقف تقليدية لدى كافة قرويي الصحراء.
موقد القهوة و فتحة الاتصال مع قسم النساء تذكّر بالعادات البدوية



الشكل ٤

بيت المونة عند شقرا بنت بركات

نلاحظ وجود نول النسيج a- القناطر تحدد الأقسام bb – غرف نوم cc – مخازن للمؤن



الشكل ٥

منزل الشيخ جرداوي الدرويش يشغله حالياً أحد أبنائه و يمثل الجزء (a) من الشكل ٦ و هو بيت سكني نمطي

a – منزول b – بيت المونة c – مطبخ
d – حائط منخفض يحد بين قسمين e و f – مطحنتا قمح و بطم g – مسطبة h – فتحة بين القسمين

السكن في السخنة هو (الدار) و تتألف من عدة غرف[1] تشرف على باحة توجد فيها أدراج للصعود إلى السطح[2].

و كما أن النساء هنّ اللواتي ينصبن الخيام لدى الرحل هكذا تفعل نساء السخنة بتشييد البيوت. و هنالك منهن من تتمتع بشهرة عالية في هذا المجال.

و البناء ، حتى الحديث منه ، يصنع من الحجارة و الطين و نشاهد في جدران الأسوار المهملة أشياء غريبة كبقايا براميل البنزين و حطام عظم الجمال مخلوطة و مثبتة بالطين و هذا دليل على أن خبرتهم في البناء[3] ليست عريقة.

في كل عام في فصل الربيع يطرش السكان واجهات بيوتهم بالحوّارة و كذلك تتم عملية البناء في نفس الفترة. و قبل أن يشغل المنزل الجديد يقدم المالك ذبيحة و هي أضحية تأسيس المسكن . كما يرسم بدم الضحية على الباب علامة الماشية الخاصة بعشيرته[4].

---

[1] تكاد تماثل بيوت تدمر في القرية القديمة.

[2] لا يوجد سوى بيتين لهما طابق فوق الطابق الأرضي.

[3] لا بد أن يكون المرء عائشاً حياة قريبة جداً من حياة الرحل حتى يستخدم هياكل الجمال العظمية.(أنظر اللوحة ٥) نعرف أن العرب يستعملون عظام هذه الحيوانات كأدوات زراعية حينما يغرسون بعض الخيار في قعر الوادي بسبب عدم توفر أدوات أفضل منها. و يمكننا إجراء مقارنة بين عدم خبرة البنائين الذين يستخدمون أدوات بدائية بهذا الشكل و بين مهارة البنائين في القرى القديمة المستقرة (مثل قرى المسيحيين في جبال لبنان الشرقية).

[4] هذه العادة تجعلنا نتذكر أبواب اليهود المدموغة في مصر بدم حمل (انظر الشكل ٩).

فـــي داخــل المســكن و نظراً لندرة الخشب يصنع السقف من أغصـــان الشجر و من الطين. أما بيوت الأغنياء فمدعومة بقنطرة أو عدة قناطر من حجر غالباً ما تكون عريضةً و هذا ما يستلزم وجود بنّاء ماهر و اســتخدام سقالة خشبية. و أرض البيت غالباً ما تكون مرتفعة و يتصدر مركــز غــرفة الاســتقبال (المنزول) موقد القهوة كما هو الحال في خيام البدو.

و جــناح النساء يستخدم أيضاً لحفظ المؤن (بيت المونة). و نجد فــيه جــدران صغيرة ارتفاعها يبلغ من ٨٠ سم إلى ٢ م (كوارة) تحيط بالمخــازن (الخــزنة) أو حــتى بالغــرف (القطعة) التي تفصل بين عدة عــائلات تعــيش معــاً في البيت الواحد. و هذا شأن البدو مربي القطعان حيــث كل امرأة تشكل لنفسها غرفة خاصة بها بواسطة حواجز مصنوعة مــن القصــب (زريبة). و يشاهد بين غرفة الاستقبال و بين جناح النساء كــوى صغيرة للتهوية[١]. و هذا يذكرنا بسهولة الاتصال بين أقسام مسكن الــبدوي. أو حــتى بالثقوب التي تحدثها النساء في (قطعة) الخيمة بحيث تسمح لهن بمراقبة ما يفعله الرجال.

قديماً كان عدم استتباب الأمن يحول دون توسع و امتداد المدينة. و كان الشبان المتزوجون يشغلون غرفاً حول فناء الدار هذا إذا لم يسكنوا نفــس الغرفة . و حدثت خرائب و انهيارات فيما بعد فقطعت الجدران و

---

[١] دوغتي (، المرجع السابق، ج ١ – ص ١٨٦) يصف منزل بدو مستقرين شبيه جداً بخيمة البدوي.

أصـــبح الفـــناء نوعـــاً مـــن الســـاحة العامة تشرف عليها عدة منازل و إسطبلات.

و هكـــذا و إن لـــم تكن الحياة في السخنة مكشوفة كما هو شأن مخيمات البدو فإنها أقل احتجاباً إذا ما قارناها بكثير من المدن المسلمة.

و قد عاني سكان السخنة طويلاً من هذا الازدحام و لهذا السبب أصـــبحوا يبـــنون أكثر الآن في هذا الجو الأمني السائد. و لكنهم يجلبون البنائيـــن مـــن الخارج. و ضمن الساحات الكبيرة ذات الجدران المرتفعة يقـــوم هؤلاء ببناء بيوت عادية من الطوب (اللِبن) و في هذا دليل على تأثير نمط بناء المدن المتزايد و المتنامي.

و بيـــنما نلاحـــظ أنه في أغلب التجمعات السكنية و بعد مرور وقت من الحياة المستقرة يتفرق سكان هذه التجمعات نجد سكان السخنة – خلافـــاً لذلـــك– متجمعين بشكل وثيق حسب أصولهم على غرار توزع الخيام في المضارب[1].

يـــزودنا مخطـــط المدينة بمعلومات مفيدة شيقة عن نمط حياتهم الاجتماعية[2].

لكن القرية امتدت إلى منطقة البيادر التي تحيط بها، الأمر الذي أدى إلـــى تعقيد مخططها. و لم تتأثر الأفخاذ الكبرى و تتقسم على نفسها

[1] علامات القبيلة التي تزين أبواب بيوتهم هي الدليل على ذلك.
[2] راجع الفصل (٣) أعلاه .

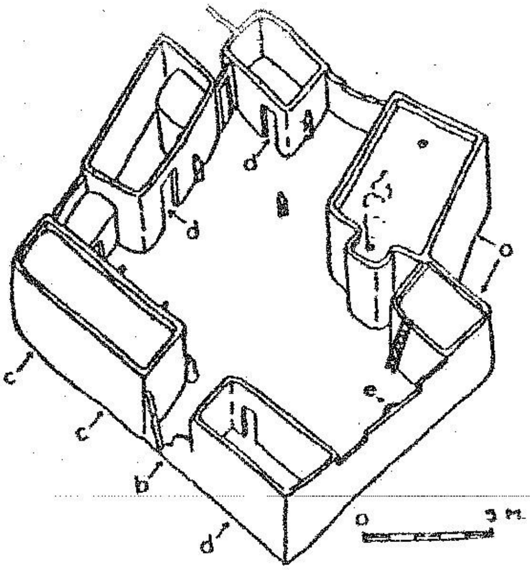
فكــل فخــذ من العائلة يمتلك حصة كبيرة حول الفناء الخارجي، و لكن و بنفس الحين و في وسط كل فخذ نشأت عائلات مقيمة في وسط التجمع و انتشــرت علــى بيادرها بعيداً عن مساكنها الأولى. فحي مني جبيل الذي يمتد نحو الجنوب الغربي بقي موحداً، إلاّ أن أفراداً من مني صلحة و من مني خطبَة و غيرها ستشكل قريباً مركزين لها. و الحال أنه حينما تتشطر العائلة فإن الابتعاد عن عادات الصحراء أمرٌ قادم لا محالة.

٢- الحفلات العائلية

لا تخــتلف هذه الحفلات عن حفلات كافة السوريين و هي ذات طابع إسلامي واضح و لهذا لن نأتي علىَ وصفها. و إليكم مع ذلك بعض المــيزات التــي تتيح لنا أن نكتشف فيها تأثير الحياة البدوية و كذلك تأثير الحياة الحضرية.

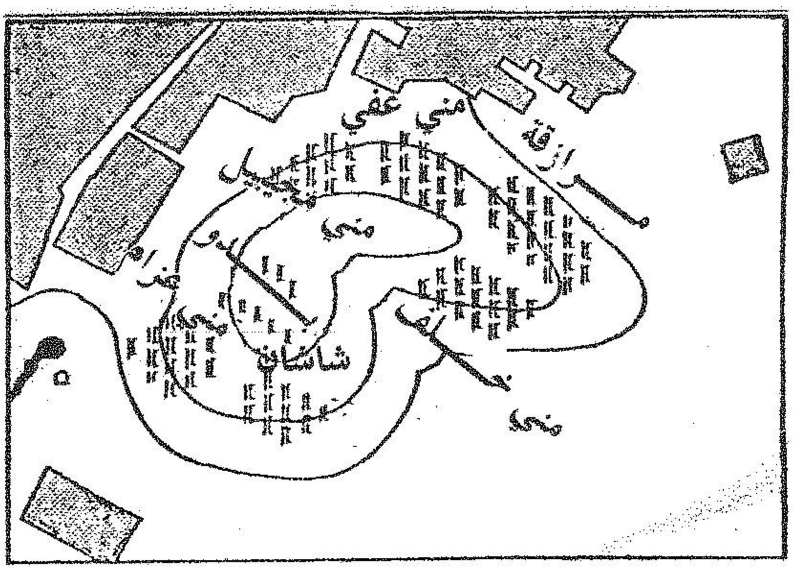
الختان

قديمــاً كــان يقــوم بالختان شخص من أهالي السخنة. و على الــرغم مــن أن كثيريــن منهم الآن قادرون على هذه العملية ، إلاّ أنهم يفضــلون أن يــتم ذلك على يد مطهِّر من مني عباس من الزير وهي بلدة مــن الــرها (أورفة) في تركيا شمال حلب. و بنو عباس هؤلاء يمارسون عملية الختان في القبائل و في الزور و المناظر.



الشكل ٦

منزل الشيخ جرداوي الدرويش من مني عفي نلاحــظ أبعاد الفناء (الباحة الكبرى) الذي يعتبر حديــثاً نوعاً من الترف يمتاز به الزعيم (الشيخ). الفتحة (b) تحول هنا الفناء إلى ساحة عامة تنفتح حولهــا –إضــافة إلى غرفة الزعيم (a)– غرف أولاده (c) و غــرف أخــرى دون سقف نظراً لــندرة الخشب و هي تستعمل كإسطبلات (d) و تشير (e) إلى معصرة البطم الضرورية الموجودة في كل بيت من عائلات السخنة (راجع لوحة ٩).



الشكل ٧

المقبرة: نلاحظ تجمع القبور حسب عشائر المتوفين ، كما ترى قبوراً قديمة لبدو أو لجنود شراكس تعلو التلة التي تطل على أفضل موقع و هو النبع (الحمام). و من وقت قريب قام بنو عزام –و هم بدو مستقرون– ببناء قبورهم على مسافة أكثر قرباً إلى الماء.

الزواج

زادت عـادة تقديم الهدايا إلى أقارب الخطيبة في تكاليف المهر (الصـياغ) الـذي يتفاوت إلى حد كبير: من ١٠ إلى ١٠٠ ليرة ذهبية أي ٣٠ لـيرة ذهبـية وسطياً. أمّا عند الزعماء فيبلغ الصياغ أكثر من ذلك بكثير[١].

و غالباً ما تؤخر الحاجة إلى جمع مبالغ كبيرة زواج الشباب[٢].

و لا يدفـع إلا قسـم مـن المهر (المقدم) أما ثلاثة أرباع المهر تقريباً (المؤخر) فلا يدفع إلا لدى الطلاق[٣]. و قبل الزواج بيومين يعلن في السـوق عـن الزواج[٤]. و تطبق على الاعتراضات أحكام القانون الديني.

---

[١] بلغت صيغة بنات الزعيم الكبير الجرداوي ١٥٠ إلى ٢٠٠ ليرة ذهب مع أنهن خطبن لأبناء عمومتهن. بنات أحمد عبد العزيز بلغ مهرهن ٣٠٠ ليرة ذهب كل واحدة. و لكي يتزوج من امرأة سورية حضرية فقد دفع هذا الشيخ ٤٠٠ ليرة ذهب.

و على سبيل المقارنة لنذكر المهور الحالية: ففي تدمر يقدر المبلغ بـ (٢٠) ليرة ذهباً وسطياً. عند قبيلة العنزة المهر ضئيل (٥ جمال عند آل السَبَعَة) و سبق لدوغيني خلال عبوره في المنطقة أن قدر المهر لدى الفقراء ببعيرين و بضع رؤوس من قطعان (الغنم) الماشية (المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٩١). بالمقابل يبلغ المهر دائماً عند بني خالد الرحل (٥٠) ليرة ذهباً على الأقل.

[٢] غالباً في الأعياد يقدم الشاب إلى خطيبته ليرة ذهبية و ملابس و يولم لها وليمة و لصديقاتها يرقص فيها الشباب و الصبايا. و هي عادة مجهولة لدى كبار البدو الرحل و لكنه لا يقدم ٧٠ رغيفاً كما هو الحال في تدمر -كما يقولون-.

[٣] راجع داغستاني العمل المذكور صفحة ٢٩.

[٤] يتم ذلك دون شك حسب التشريع السوري .

غالباً حينما لا يطالب الشاب بابنة عمه يختار إحدى بنات خاله. و لذا نادراً ما يتم الزواج من خارج عائلتين أو ثلاثة. لاحظنا بنفس الحين أن بعض المسنين قد اتخذوا زوجات لهم من قبيلة الشوايا: و هذا ناتج من أن الحكومة التركية كانت تعفي قديماً من خدمة الجيش أزواج الأجنبيات اللواتي لا تستطيع عائلتهن البعيدة عنهن أن تقوم بأودهن خلال غياب الزوج. و الرحل المستقرون حديثاً في السخنة يتزوجون دون إحراج من المدينة. و بذلك يجدون وسيلة توفر لهم جواً عائلياً[1].

من هنا تحصل بعض القرابة عن طريق النساء مع أشخاص ما يزالون بدواً و ليس في ذلك من حرج. و يجدون في ذلك قدراً لا بأس به من الفخر[2]!.

يتدخل الخطيب في الزواج فيكتب الكتاب و يتلقى قبول الزوجين عن طريق الشهود. و منذ زمن قصير أصبح يطلب شهادة صحية قبل الزواج كما يقضي بذلك القانون السوري.

و قبل الدخول على زوجته يقوم العريس -كما يقولون- بتأدية صلاة من ركعتين[3].

---

[1] هكذا تزوج أسعد ، أخو أحمد العبد العزيز، شابة من الكلش

[2] راجع أعلاه صفحة ٤٢ ملاحظة ٢.

[3] عادة إبريق الماء الذي تكسره أم أو أخت العريس على عتبة غرفة الزوجين معروفة في السخنة (راجع داغستاني المرجع السابق ص ٥٢).

المآتم و الجنازات

يكاد لا يعرف البدو الرحل تقريباً أشكال الاحتفالات، أما لدى أهــل السخنة تدوم زيارات التعازي أسبوعاً يتم خلاله ذبح ضحية كل يوم و يقوم الخطيب بقراءة الفاتحة بعد تناول الطعام.

و تقوم النساء خلال المأتم بالدق على الدف كما يرقصن و يتغنين بفضائل الميت و بالمقابل ترى قريبات المتوفى و قد سودن وجوههن و مزقن ثيابهن و قصصن شعرهن. و تلكم عادة نشهدها هنا كما نشهدها عند القبائل.

زيــارة القبور و وضع الماء عليها هي عادة يشترك فيها الرحل و الحضــر معاً، و قل نفس الشيء بالنسبة لذبح ضحية يطلقون عليها اسم "عنيزة" بعد الوفاة بثلاثة أيام[١] و الاحتفال بعيد الضحية[٢].

و كما تبني النساء البيوت تبني أيضاً القبور. فالحجار المنصوبة (نصــايب) غالــباً ما يكون عددها اثنتان للرجال و ثلاث للنساء. و نجد على القبر دائماً حوضاً (جرن) أو حوضين صغيرين يصب فيهما الماء.

تــتجمع قبور الموتى في المقبرة حسب العشائر التي تنتمي إليها كما هو موضح في الشكل ٧.

---

١ طمانة لدى الرولا (راجع موسيل، رولا صفحة ٦٧٢).

٢ يقــال إن بعــض الأغنياء يجلبون ثيراناً من منطقة الفرات لتقديمها كذبائح (ضحايا). إنها دون شك عادة مصدرها المناطق المستقرة لأنه لا يوجد بقر في السخنة.

بالنسبة للإرث، يتقيد الناس بأحكام الإسلام بحسب المذهب الشافعي. و يقوم الخطيب بدور الحكم في حال خلافات و إذا فشل في مساعيه يلجأ إلى قاضي تدمر.

٣. الحياة الدينية

إن تأثير أهالي حماة و وجود عائلة تقية كهنوتية[١] محترمة تجعل من أهالي السخنة متدينين جداً أكثر من أجدادهم البدو الرحل[٢] و يسود الورع تجمعاتهم . ففي الكوم خصصت أفضل قطعة من الأرض ليبنى عليها المسجد العتيد و قد خصصت له حصة من ماء النبع الذي تم أخيراً إحياؤه. و اعتبر قسم آخر من الأرض التي استصلحت بريها من ماء النبع وقفاً للمسجد. و يتناوب السكان طوعاً و مجاناً على الاعتناء بهذه الأرض. و لدى غياب الخطيب يقوم رجل عجوز، أحمد العطيش بإقامة الصلاة و قد وافته المنية عام ١٩٣٥ و يطلق عليه السكان اسم "السيد" أو الإمام و يتمتع باحترام الجميع.

تلتزم نساء السخنة بالصيام و تشاهدن و هن تؤدين شعائر الصلاة. لا يسمح لهن بدخول المسجد و إنما يقمن مساء الخميس و عشية الأعياد بإشعال مصابيح في الأضرحة و المقامات العديدة نسبياً كما هو الأمر في كل واحات الجزيرة العربية. فكما نعلم ما زالت بعض الطقوس و الشعائر البعيدة عن جوهر الدين تشوب تقوى المؤمنين على شدتها.

---

[١] هذا إذا استطعنا القول بأن للخطيب صبغة شبه كهنوتية.

[٢] راجع لوحة (٧).

فـــي أعلـــى القرية يوجد قبر الشيخ واصل الذي يحظى بتكريم كبـــير. و قـــد ظهرت هذه الشخصية في الحلم إلى أحد أهالي السخنة[1]. و عرّفه باسمه و طلب أن تُبنى له قبة فوق ضريحه[2] فكان له ما أراد.

و نجهـــل كـــل شيء عن الشيخ واصل. يذهب البعض للقول إنه كـــان مـــن صحابة النبي[3] و يعتبره آخرون سخنياً من قبل الهجرة. و من طول قبره نستدل أنه من جيل كان البشر فيه أضخم مما هم عليه الآن[4].

و لا يقصد الناس مزار الشيخ واصل في موكب الربيع[5]، و لكن الخطيب المعتمر كوفية بيضاء (لفّة) يصطحب يوم الجمعة الأولاد و هم يدقون بالطبلة و يقومون إذا احتاج الأمر بتأدية صلاة الاستمطار.

و ما يزال السكان يكرمون حتى الآن قبر الشيخ علي القائم على تلـــة وعرة و المشرف على طريق دير الزور على بعد كيلومتر واحد من شمال شرق السخنة.

---

[1] و هو جويران الأحمد من آل مقبيل.

[2] قبة صغيرة من الخفان بشكل نصف كرة نشاهدها في أغلب بيوت منطقة حلب.

[3] بالتماثل طبعاً مع محمد ابن علي الذي يعلو مزاره مدينة تدمر. و في مقبرة درعا العباسية هناك أيضاً مقام للشيخ واصل الذي يقال إنه من صحابة النبي.

[4] نشاهد في جيزل على بعد ٤٠ كم من غرب تدمر قبوراً تعود إلى بني هلال طولها ٤ إلى ٥ أمتار. (راجع بهذا الموضوع دوغيتي).

٥ كما يفعل سكان تدمر لدى زيارتهم مزار محمد ابن علي

و مقـــام الشـــيخ خضر الأخضر القائم وسط البيوت التي تشرف علـــيها القلعة هو قبة صغيرة من الآجر مبنية في المكان الذي يقال إنه قد مات فيه – في أيام الجاهلية المظلمة – و تقدم له الأضاحي أحياناً.

و قـــبر الشـــيخ ابراهيم الذي يحيط به بناء صغير، يشرف على الطيبة.

و خارج هذه المقامات المكرمة يقوم الناس عشية كل عيد بزيارة قبور أقاربهم حيث يتلون عليها الفاتحة بعد صلاة الموتى. و بعد عبارة "و الســـاعة قريـــت" اعـــتادوا أن يضيفوا : "و الغربي عمّار و الخيل بيجيب مهـــار" و هكـــذا تـــتجلى ، في هذا الذكر للجنة، ضمن ممارسات هؤلاء الحضـــر الورعة، بعض رواسب الحياة البدوية. و في العيد الصغير أيضاً يحظى الفقراء بفطرة الصيام و هي عبارة عن رطل من الطحين أو التمر أو الزبيـــب لكـــل "نفس" على قيد الحياة في البيت. و لا بدّ للتوضيح بأن كلمة "نفس" تعني كل رجل و امرأة و ولد و كذلك المهرة الأصيلة أيضاً.

الخطيب

يعتـــنق ســـكان السخنة المذهب الشافعي، و أئمتهم هم من مني صـــرير الملقبيـــن بالخطباء و زعيمهم هو الشيخ ابن قاسم و تنتمي هذه العائلـــة المحـــترمة إلى قبيلة الشيخ عبد القادر الجيلاني و هو من أولياء بغـــداد المكرميـــن الكـــبار. و سنرى فيما بعد أن هذه العائلة لعبت دوراً سياسياً مشرفاً يجعلنا نذكر – بغض النظر عن الأهمية – السلطة الروحية

التـــي يتمـــتع بها أحفاد محمد عبد الوهاب في السعودية. فليس هناك أحد آخر من أهل السخنة يفكر بممارسة دور ديني.

و خارج السخنة لمني صرير أقارب[1] يتمتعون بنفس المسؤوليات و المهام و الأعباء و يَسِمون قطعانهم بنفس الوسم و يسمونه (العلم)، و هو علامة منتشرة لدى الأولياء المكرمين[2]. و لها علاقة دون شك بالعلم الذي يملكونه[3].

إن شـــهرة هذه العائلة التقية تتعدى حدود السخنة[4] و تدعمها عدة عجائب:

كان أحد الخطباء يوقف قانون الجاذبية و يمنع الماء -إذا رغب في ذلك- من السيلان من إبريق كما كان يحول دون جريان الينابيع.

---

[1] كما هو حال أئمة (مشايخ) العبادة في تدمر من عشيرة أبي الشيخ (راجع كانتينو - المرجع السابق ج ٢ ، ص ٩١. يعتبرهم بنو أعمامهم في السخنة أقارب من الدرجة الدنيا. و يرى كانتينو أنه قد يكون لهم أقارب في حي باب النيرب في حلب و في قرية العتيبة في غوطة دمشق.

[2] بنو القيم في تدمر يعيدون جذورهم إلى محمد بن علي (أي علي صهر النبي) ، و هم يتبنون نفس الوسم (راجع كانتينو صفحة ٨٧).

[3] علينـــا أن نذكـــر بأن (العلم) ليس شعاراً سياسياً كما هو شأن البيرق في الواحات. (راجع دوغيني ، المرجع السابق ، ص ٤٤٤ و مونتانيني ، المرجع السابق ، ص ٧٧).

[4] سمعنا من السَبَعَة تصريحات بأنهم يتقبلون بكل رضى تزويج بناتهم إلى الخطباء من السخنة إذا قبل هؤلاء العيش مثلهم تحت الخيام.

و هنالك خطيب آخر ذهب باتجاه الغرب و حلّ في حلب، و ذات يوم جمعة بينما كان في المسجد، راوده شعور بأن لا أحد في السخنة يشرف على إقامة الصلاة. فاشترى رغيفين و قليلاً من الحلاوة و وضعها على صدره قائلاً: "باسم الله" ثم سار في طريقه نحو السخنة. و في الخطوة الأولى قطع نصف الطريق و في الخطوة الثانية وصل إلى البلدة.

نفهم إذن أن شهرة أسلاف الخطيب كانت تؤمن له بعض الموارد إضافةً إلى أجره الهزيل. فالذبيحة تقدم كاملة له في بعض الأحيان. و إذا لم يُشرّف بحضور وليمة يولمها شيخ المدينة ترسل له ، إلى البيت، حصته المختارة من أفضل لحم الذبيحة.

و كان قديماً يقوم بتعليم الأولاد القراءة إضافةً إلى تعليمهم حفظ القرآن – و يستفيد من منتوجات أحد الحقول المخصصة للوقف– و خدمات العبادة زهيدة إذ يخصص كل رجل مبلغاً زهيداً من المال لنظافة و صيانة المسجد. أما المؤذنون الذين يختارون لقوة صوتهم فهم يعملون لوجه الله و يحظون بتقدير مواطنيهم في المدينة.

خارج أوقات الصلاة وحضوره للحفلات العائلية في المدينة، يستدعي رعاة القطعان المخيمون قرب السخنة الخطيب لحضور مراسم الزواج و دفن الميت –على الأقل يستوجب حضوره لغسل الميت–. و يطلب الحضر و البدو من الخطيب –حتى قبيلة العنزة– مختلف التعاويذ

و يستخدم علمه الأخضر مع طبلة (الدف) لشفاء المجانين و الممسوسين، كما يخرج بهذا العلم أيضاً في مواكب الاستمطار[1].

يدفـــن الخطباء بعد موتهم في مقبرة صغيرة مخصصة لهم قريباً من المسجد[2].

تصــــل تقـــوى أهل السخنة إلى حد الخرافة[3] . و كباقي الناس ، يؤمـــن أهالـــي السخنة بالأرواح التي تسكن الأماكن الصحراوية و كيف يكون غير ذلك و العديد منهم ينحدرون من جنية .

فـــي جبل الضويحكية ، و هو جرف صخري يقع جنوب شرقي السخنة يوجد كهف كانت تسكنه قديماً غولة. و مرَّ رجل من أهالي السخنة و اســـمه دلّيس فمسكته الغولة و اقتادته إلى كهفها و إذ راق لها، تزوجته بدلاً من أن تفترسه و رزقت منه بولدين. ظل السخني يعيش بطمأنينة في

---

[1] تجري هذه المواكب الاحتفالية في السخنة دون إعاقة و بشكل طبيعي. بينما يرفض (حامل العلم) في تدمر المسير أو يجر الموكب أحياناً إلى اتجاهات منحرفة غريبة (راجع كانتينو المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٩٠).

[2] كذلك عدة خطباء من نظرائهم في تدمر دفنوا في مزار أحد أجدادهم ، الشيخ شاكيس (راجع كانتينو المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٩١).

[3] يظهر ذلك خصوصاً في العلاقات الزوجية. يذكر داغستاني بأن بعض الممارسات في سوريا معروفة في السخنة. لنذكر منها أن المرأة التي تشعر بأن زوجها مستقل جداً عنها تقوم بخلط طعامه بشيء من نخاع الحمار أو تلبس "حرز الحمار" و هو عبارة عن حجر بطول الإصبع تفرزه أشداق بعض أنواع الحمير و بهذه الطريقة يمكن لها أن تحول زوجها إلى حمار مطيع!

كهــف الغولـــة و لكنه كان يعلم أنه لو تجرأ بالهرب فلن تتردد الغولة في افتراسه.

و بعد عدة سنوات من حياة مشلولة عن كل حركة فقد استخدام قوة ساقيه فخفت مراقبة الغولة له، و ذات يوم فيما كانت تبحث عن طريدة لها بعث الأب بأحد أولاده إلى الجهة العليا التي تشرف على الكهف و صرخ به من الأسفل قائلاً: "يا بني ماذا ترى؟ أجاب الولد : "أرى على مقربة شيئاً عالياً مخضوضراً" دون أي تحديد لهذا الشيء لأنه كان يصعد إلى سطح الأرض لأول مرة و فيما فكر الاب أن هذا الشيء شجرة أرسل له أبوه بلطة ليقطع خشبها فيصنع منه نوعاً من المحملة، و بعد أن جلس عليها حمله ولداه فصعد و سلك طريق السخنة. و كان يشجع ولديه حينما يشعران بالتعب من جراء حملهم إياه مغنياً:

روحو يا عيسى و أخوه

روحو لا تدبحو

روحو يا كرام

روحو قبل الظلام

تبعـــتهم الغولـــة إلاّ أنهم وصلوا و دخلوا المدينة قبل أن تلحق بهم. و بما أن الأرواح تكره الأماكن المسكونة، فقد نجوا منها.

يقـــدر البعض بأن هذه القصة حدثت من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ عام و آخرون يقولون بأنها حدثت منذ جيلين فقط. و يوجد أيضاً في السخنة من

بيــن مني خلف أشخاص منحدرون من هذه الغولة و اسمهم "عيال الغولة" إنهم مني گيران. و أمثالهم في الصحراء متوافر و كثير[1].

و هكـــذا في الحياة المادية تطفو الكثير من الرواسب البدوية إلى السـطح لكــن الأفكار التي أتينا على ذكرها تبرهن كلها تقريباً على أن تقاليد البدو تتقهقر في أي مجال يتدخل فيه الدين.

هكــذا يمكننا أن نقارب هذا الوضع بتحفظ الشخصيات التقية من قـيم الحــياة الـبدوية. و هــو تحفظ تجلى بوضوح في الحجاز في وقت الهجــرة[2]. و بالمقابل يمكننا دون شك أن نفسر قسماً من المقاومة العربية للنبي محمد من هذه الزاوية، و ندرك لماذا عمل الوهابيون في الصحراء[3] على تحضير الناس بقدر ما عملوا على أسلمتهم[4].

---

[1] راجع دوغيتي صفحة ١٩١. نصادف مثل ذلك أيضاً في التاريخ التوراتي القديم (راجع لودس صفحة ٢٨٠)

[2] راجع لامنس:مدينة الطائف العربية عشية الهجرة صفحة ٣٠٥. و هكذا في الغرب فإن آخر من انضم إلى المسيحية هو باغانوس ساكن الريف.

[3] راجع فيليبي صفحة ، المرجع السابق ، ص ٢٢٣-٢٢٤

[4] هكذا فعل الحكام الأمويون (راجع لامنس صفحة ٣٠٦). إن أوائل الخلفاء كما هو معروف كانوا متسامحين نحو المسيحيين المستقرين التابعين لهم.

الديــن هــو المــبرر الوحــيد الــذي يغطـــي هذا الفشل القائم علىالاســتقرار فـــي الأرض[1]. و التقوى هي القوام الوحيد لهيبة المستقر أمـــام قبيلــته –و كلــنا يعلم ما أهمية معنى الهيبة الشرق– و سوف نرى لاحقاً بأن أهالي السخنة يتشبثون بإيمانهم إلى درجة المبالغة أحياناً. فيغدو ســاكن الواحــات مضطراً للمغالاة في هذا الصدد[2]. و نعرف كلنا أسماء المــدن المقدسة –الأصولية منها و العادية– التي تحيط بالجزيرة العربية. فـــي هذا السياق تحتل السخنة مركزها المتواضع كموقع متقدم من مواقع حماة.

[1] أستخدم دوغيني، المرجع السابق، ج ٢ ، ص ١١٥ عبارة: " فاشلو الصحراء" للدلالة على المتحضرين من قبيلة خيبر. بالمقابل يمكن القول إن: "ترك حياة الرحل و تبني حياة الحضر عمل حميد و يسمى الهجرة و يمكن القول بأن هذه الهجرة الثانوية تساهم إلى حد ما في إبراز صفات الهجرة الأولى. (مارسيه ، المرجع السابق ، ص ٩٢).

٢ راجع لاحقاً ما سيرد في الخاتمة

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية و السياسية

إن تقسيم أهالي السخنة الذي نعرض له في الصفحات التالية هو مصدر من مصادر المعلومات حول الحياة الاجتماعية و السياسية في القرية. سنحاول إذاً شرح كيفية تشكل التجمعات و الأواصر التي تربط بينها.

و سنعدد فيما بعد بعض العادات المتعلقة بالعدالة أو بالمفاهيم الاجتماعية السائدة؛ فإنها تُبرز بوضوح وجود بعض البقايا البدوية ، شأنها في ذلك شأن التفاصيل عن الحياة المادية التي أتينا على ذكرها في الفصل السابق.

نجد هذه البقايا في الحياة السياسية أيضاً إلاّ أن هناك شكلاً أولياً من أشكال الإدارة البلدية يعترض سبيلها. فأهالي السخنة المندمجون في آن واحد في الدولة السورية الحضرية و في مجتمع البادية مضطرون لخدمة سيدين : "الأعراب" و "الحكومة" و دفع الضريبة لهما و محاباتهما. مع ذلك ، فاللعبة السياسية للزعماء المتنافسين ، الذين يسعون من خلال هذين السيدين ، إلى إيجاد حلفاء خارجيين ، تقوم في المدينة بالذات على القرابات كما في المضارب و على حيازة الماء كما في القرى التي تحد السهب .

ا ـ الحياة الاجتماعية

المجموعات الاجتماعية

فـــي السخنة يطلق على كل تجمع اسم " مني فلان " على غرار العادة في القبيلة . و الاسم الأكثر شيوعاً للدلالة على هذه المجموعة هو " بيت " . و لنذكر أيضاً بأن أحفاد الجد الأكبر الذي تسمى المجموعة باسمه يشكلون العائلة الأقوى في المجموعة كما هي الحال في القبيلة.

و هكذا ، إذا طلب من سخني من مني صلحة (المنضمين إلى منـــي مقيبل) أن يعدد أقسام المدينة فإنه دون شك لن يأتي على ذكر مني صـــلحة ، الذيـــن هم أهله ، إلاّ أنه لن يغفل نهائياً ذكر مني مقيبل الذين تشكل عائلته معهم كتلة واحدة.

و لـــنذكر أيضاً بأن كلمة (قوم) – و هي لدى البدو تعني جماعة أو فـــئة (فلان) – تستخدم في السخنة مضافاً إليها اسم مجموعة أو قبيلة و ليس اسم شخص. فهي تشير إلى اسم مجموعة عائلية ما. و بالمقابل فكلمة (جماعـــة) تحـــل محـــل (قوم) بمعنى التجمع السياسي. و نسمع –بلهجة التـــبجح، و هـــذا مـــا يدعو إلى الابتسام و السخرية– بـــ "جماعة الشيخ مرعـــي" تطلـــق علـــى أتـــباع هـــذا الزعـــيم . و يبدو ذلك و كأنه تقليد مصطلحات بدوية غير منسجمة تماماً مع حياة الحضر.

التقسيم :

إن الأعــراف المــتعلقة بالأصول و فحص (الوسم) الذي يطبعه أهالــي الســخنة على جمالهم و على حميرهم[1] و أخيراً صرخات الحرب التــي أصبحت مجرد دعوة للتجمع و التوحد ــو هل يفكر السكان الحضر بالــتحارب و الــتقاتل ؟ – يعيدنا إلى ماضي حياة البدو لدى عشائر أهل السخنة و يسمح لنا بتوضيحه بالتقسيم التالي :[2]

العشيرة	عدد البيوت	صرخة التجمع	الوسم	الأصل
مني خلف (٣) و تضم :	٦٠	العوجان	ǀ +	جيس
مني سويف	١			=
مني حبش	١٢			=
مني عساف	٥–٦			=
مني زيتون	٥–٦			= (١)

[1] لدى الرحل مربي القطعان، القبائل التي تستخدم الحمر (الحمير الصليبي – الحديدين) تطبع عليها (الوسم) كعلامة لتلك الدواب.

[2] نشير في هذا الجدول إلى مجمل الفعاليات و إلى صرخة الحرب المشتركة بين كافة القوى و الفعاليات.

٣ مجموعة وصلت حديثاً إلى السخنة – ربما خلال القرن ١٩

مني ناصر	١٥	أخوة فطيم		=
مني درغام	١٠-١٢			جيس أو عباد مثل مني عفي أو حتى من حديثة (أقارب في كربلاء)
بيت الطلاّل	٢	أخوة عنود		قبيسات مّروا من تدمر
مني ضيف الله	١٠			جيس
مني مقيبل تتشكل نواتهم من:	١٠٠	حبلان (٢)		
مني غنيمة (عائلة الزعماء)	٤٠	أخوة سارة	عمر	ولد علي، تحضروا في خدمة آل العظم في حماة (٣)
و تضم أيضاً				

---

[١] ١ يسكنون طيبة

[٢] و يصرخون أحياناً "أولاد علي"

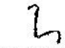
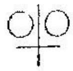
[٣] حسب رأي آخرين ، ربما كان أصلهم من عمارات إبن هذّال (الذين يصرخون أيضاً حبلان) . و حينها يمكن أن تكون سارة هي سارة بنت هذّال المعروفة في تاريخ العنزة إلاّ أن زواج أحد أفراد عائلة العبد العزيز من إحدى بنات ولد علي يجعل هذه القصة الموروثة ضعيفة المصداقية . و لكنهم يتناقلونها بسبب عراقة آل الهذال مما يجعلها مدعاة للفخر.

مني صلحة	٣-٤	حبلان	|○||	سكان السخنة القدماء
مني حسن	١٠	أولاد علي أو حبلان		ولد علي (يقول البعض إنهم أكراد أو أقارب شوايا بو مانع)
مني عيبان	١٢-١٥	أخوة غابا	+ ℿ (١)	سرحان (أهل الشمال) و يقال إنهم عبيد قدماء
مني مينه	٧-١٠	أخوة حربا	|○|	
مني صرير (أو بيت الخطيب أو الخطباء)	٤	الرفاعية (٢)	Ψ/○	بغداد مروراً بحماة دون شك حيث يوجد العديد من آل الجيلاني
مني كلش			ʅ (٣)	موالي قسم شويرتان

[١] الجهة اليمنى من العنق

[٢] و هكذا ، بالإضافة لجدهم عبد القادر الجيلاني ، ينتسبون إلى أحد الأولياء الذي ينتمي إليه كل سحرة المنطقة.

[٣] الحية على الفخذ الأيسر

مني عزام و ينقسمون إلى : عزام بالذات	٧	عيال العود	Z (١)	حوازم
مني بليبل	٧	أخوة باجي		موالي شويرتان
مني عفي و قد ضموا إليهم :	١٧	أخوة نصرة	 (٢)	نعيم
مني محيسن	١ أو ٢			صنَلَبة
بيت زعير (٣)	١ أو ٢			دير الزور
بيت اللوز أو مني حمودة (٥)	٦ أو ٨	أخوة مرة	||+ (٤)	لويزات قسم جبور من منطقة الموصل
المرازقة و قد ضموا إليهم:	٣٠	سناعيس		شمر
مني رحمة (١)	١٠		 (٧)	ربما من المشاهدة، عقيدات الزور (٦)

---

[1] المقص

[2] يسمى وسم الباكورة ، شاهد المطرق و يوضع على الفخذ الأيسر – وعلى العنق بالنسبة للحمير ، الشاهد هو متمم للوسم

[3] عائلة حدادين

[4] يوضع على الخد الأيسر

[5] استقروا في السخنة منذ عشرة أجيال (؟) و هم عائلة الشيخ مرعي

[6] راجع موسيل ، الفرات الأوسط ، ص ٧٣ و يقال أيضاً إنهم يهود.

[7] علامة المشاهدة (على الأنف) و يحملون أحياناً علامة المرازقة

لنضـــف إلى هذه المجموعات بعض الأفراد [٢] المنصهرين جزئياً فقــط فــي المجموعــة[٣]. و يمكنــنا أن نضيف إلى كل هؤلاء المستقرين الحضـــر أشخاصـــاً قليليـــن جداً، يفدون بشكل مستمر و قوامهم من البدو المعوزين البائسين الذين ينصبون خيامهم بشكل نهائي على أطراف القرية و يعملون فيها كرعاة للغنم[٤]. و هكذا تشكلت السخنة و توسعت قديماً بمن جاء إليها من البدو. يستولي هؤلاء القادمون على الأراضي الشاغرة التي تركها المهاجرون. و هكذا يتجدد سكان القرية دون أن يتغيروا[٥].

---

[١] سكان طيبة في القرن الثامن عشر

[٢] تجار من حماة و حلب و حتى من دمشق وصلوا حديثاً و من بين فينة و أخرى، موظفون عابرون قادمون من تدمر: درك، موظفون يرسلهم مأمور الجمارك أو مدير الملح، عامل من دير الزور يعمل في المطحنة، المعلم (من دمشق) قلّما يداوم و لكن التعليم يستمر عن طريق العجوز الحاج ضاهر من مني عيبان الذي يدفع له الأهل أجراً زهيداً. معلم المدرسة الرسمي يســمونه الأستاذ يتقاضى راتبه و لكنه لا يقيم في السخنة إلا خلال شهر من أصل أربعة. و لكن بما أن المستفيد الأساسي من الأمر و هو الحاج ضاهر يحافظ على كسب عيشه ، لا أحد يعترض على ذلك.

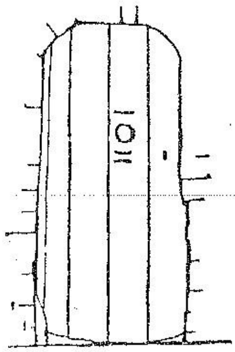
[٣] هكذا شأن بيتي مني طلال القادمين من تدمر و اللذين أتينا على ذكرهما سابقاً، إذ يدفعون (الخــوّة) إلى مني مسرب -مثل أهالي تدمر- و ليس إلى ابن سعيد كما يفعل أهل السخنة. و بالمقــابل فــي الأماكــن التي انتشرت فيها هذه البيوت ، العقيربات و الحصو ، حتى بين التدامرة فإنهم يعتبرون من أهل السخنة

[٤] عام ١٩٣٥ خيمتان من السّبَعة و ربما ازداد العدد أكثر من ذلك من العمور خاصة لو لم تكــن هنالك حاجة ليد عاملة في تدمر ألزمت هؤلاء البدو البائسين على العمل اليدوي لكسب عيشهم.

[٥] حول هذا الاستقرار الحضري، راجع فصل (٥) : الجاليات ، § الكوم

الروابط الاجتماعية

إلــى جانــب نــداءات التجمع الصارخة الشديدة التي ما زالت حماسـية جـداً، تصيبنا الدهشة حينما نكتشف وجود صرخة خاصة يتميز بهـا كل تجمع في القرية، كما نفاجأ بصرخة أخرى "أرگش" مشتركة بين كافة أهالي السخنة[1]. إن شخصاً من مني ناصر مثلاً يصرخ منادياً عائلته للدعـوة إلـى الـذود و المساعدة بـ " أخوة فطيم " أما لمناداة مني خلف فيصـرخ: " العوجـان " و يصرخ " أرگش " لمناداة أي واحد من أهالي السخنة. و يبدو جلياً أن بعض تعابير (النخوة) القديمة لم تعد تستعمل[2].



الشكل ٩

باب أحد بيوت مني صلحة (مأخوذ عن صورة فوتوغرافية) . نلاحظ البنية غير المتقنة و وسم الجماعة

[1] هكـذا يصرخ سكان تدمر "أحزر" أو "عيال أحزر" و أهالي دير الزور " عيال جرات" و القبيسات "عيال مجنونة"، الخ..

[2] هكـذا اسـتعمل مني صلحة ، و هم من الحضر ، تعبيراً لـ (النخوة) من أصل بدوي واضح و هو (حبلان).

لقــد زالــت العلامات القديمة ليحل محلها وسم جديد و هو وسم العائلة التي تم الانضمام إليها[1].

كمــا تشــهد هذه الدلائل، شكلت بيوت عديدة، تنتمي إلى أصول مخــتلفة، كــتلة واحدة حول نواة واحدة. و غالباً ما تعود هذه البيوت إلى طبقات اجتماعية مختلفة: هكذا الصلَبة و الحضر يجتمعون لدى مني عفي مــع النعيم ؛ الحوازم و الموالي انصهروا مع مني عزام. من الغريب أن نــرى هذه الاعتبارات العرقية تختفي و للوصول إلى مثل هذا التمثل كان لا بــد مــن أن يــتم تحــول عميق في عقلية و عادات هؤلاء المستقرين الحضريين الجدد[2].

هكــذا تشكلت التجمعات. و نرى أن الروابط المتينة التي شدت أواصــرها تــبدو ناجمة عن قرابة النساء و عن تجاور بيوت السكن ، إضافة إلى وحدة المصالح السياسية و الاقتصادية.

و يجدر بنا دون شك ألا نبالغ بأهمية قرابة النساء: تحدث أحياناً زيجــات فــي كل العشائر لدى الفقراء ناهيكم عن الزيجات لدى الزعماء

---

[1] منــي خلــف علــى سبيل المثال قاموا بتوحيد الوسم. و يحصل أيضاً أن يقوم رجل قوي باختــيار علامــة وسم جديدة: فقد اعتمد صالح الطّلاع اسم (عمر) ليتجنب أن تختلط جماله العديدة المتجهة إلى الحج مع جمال ولد علي أبناء أعمامه البدو الذي كانوا يعيرون في مناطق المراعي العائدة له.

[2] يذكرنا هذا باسم (إخوان) الذي أطلقه ابن سعود على البدو الوهابيين المستقرين للدلالة على اضمحلال العشائر و القبائل (فيلبي، المرجع السابق ، ص ٢٢٥).

حيث تلعب بعض الأسباب السياسية دوراً هاماً [1]. و نلمس بنفس الحين بأن ساكن السخنة، حتى عندما لا يتزوج من ابنة عمه، نادراً ما يختار رفيقة حياته من خارج عائلته، و لا يتعدى ذلك عائلتين أو ثلاث عائلات قريبة جداً إليه يجد فيها العديد من بنات الأخوال و الخالات. و نصادف حالات مماثلة لذلك في تدمر [2]. يبدو أنهم يحاولون بهذا الشكل إعادة بعث روابط الدم التي يشعرون بأمس الحاجة لها [3].

تجمع المساكن ليس أقل دلالة [4]. سبق أن قلنا بأن بيوت نفس العائلة تبقى مستجمعة مع بعضها، بغض النظر عن بعض الاستثناءات الحديثة النادرة. و خيام العشيرة البدوية، كما نعرف، لا تختلف عن ذلك.

---

[1] لنذكر حالة عدلة من مني مقبيل قريبة صالح الطلاع زوجة درويش الحامد زعيم مني عفي ثم أصبحت في زواجها الثاني زوجة سليم القرين زعيم المرازقة.

[2] في هذه المدينة عائلة يانا غزّول و بنو القيّم يُتعرف عليهم خصوصاً عن طريق النساء (راجع كانتينو ٩٣).

[3] لدى العنزة صلة القرابة الأساسية و القوية هي القرابة من جهة الذكور. و لكن، لديهم أيضاً، القرابة عن طريق النساء، إن لم تمنح أي حق، لا تهمل كلياً. عادة إذا قرر "قصير" (الجار المحمي) البقاء ضمن المجموعة التي آوته ، يتزوج فيها و ينصب خيمته بجانب خيمة العائلة التي صاهرها، إذا كان من وضع اجتماعي لائق. و نعتقد أنه حري بنا أن ننقل كثيراً من شأن الانتقادات التي يوجهها، في هذا الصدد، السيد داغستاني إلى جوسين (راجع داغستاني ١٧٨). إذا لم يطرح الزواج بشرط واجب مسبق، يقولون عادةً إلى القادم الجديد: "سوف نزوجك إحدى بناتنا. سوف تمكث معنا و تصبح واحداً منا. (راجع دوغيتي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٠-٢٢١).

[4] نعرف أنه في واحات الجزيرة العربية، يتجمع غالباً الناس المنحدرون من أصل واحد. و لكل حي زعيمه. و أقوى الزعماء هو الذي يحكم الواحة كلها. إن المشاحنات القائمة بين

مخطـــط السخنة يوحي (في هذه المناسبة) بأفكار غريبة. بعض العـــائلات شادت بيوتها من حجر على نفس الموقع الذي كانت قد نصبت فـــيه خيامها بالأصل[١]. و تشاهد أراض عراء ما تزال قائمة على أطراف بعض التجمعات. بين تقسيمات مخيم فسيح[٢] تقوم بيوت مني عزام و مني كلـــش علـــى صــــف واحد في غرب المدينة، و تشرف كافة أبوابها على الشـــارع، و من الجهة الأخرى لهذا الشارع يقطن بنو غنيمة. و لكن ليس في جدرانهم أية فتحة. هكذا نجد أنفسنا بالطبع في حدود البلدة القديمة التي استقر بقربها قادمون جدد قد تخلواعن حياة الرعاة. و هكذا "و بدون شك" نفـــس مني كلش شاهدوا قديماً –حينما كانوا يتنقلون مع الموالي– رتلاً من الخـــيام الغريـــبة منصـــوبة علـــى طرف مخيمهم[٣]. و هكذا، و من كافة الجهات، تطغى حياة البدو القديمة على حياة العمران[٤].

من وجهة النظر الاجتماعية و السياسية، يتوزع السخنة تياران: يمـــيل التـــيار الأول إلى وحدة البلدة من خلال تجمع سكاني كامل و على تمـــيزها و تفردها عن باقي المناظر و قبائل البدو، أما التيار الثاني فيسعى إلـــى تذكير سكانها بأصولهم أو على الأقل على جعل تجمعاتهم مساوية و

وجهـــاء السـخنة عبر تاريخها تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن تنظيماً من هذا القبيل ربما وجد قديماً في البلدة.

[١] إنها حالة مني عفي (مع بثرهم) و بني عزام ...... إلخ

[٢] جنوب و شرق مني عفي مثلاً.

[٣] من الجهة الأخرى للمدينة يشكل مني طلال القادمون من تدمر نواة صغيرة متجمعة و لكنها منعزلة عن باقي البيوت –حتى عن مني خلف جيرانهم الذين كانوا قد تبنوهم–

[٤] مارســيه، المــرجع السابق، ص ٨٨ حول "المدن الأولى العربية التي بناها بورجوازيو الحجاز خارج الجزيرة العربية".

مماثلــة للتقسـيمات فـي القبائل القائمة على رعي الغنم. و الاتجاه الأول تشـجعه التنظـيمات البلدية على ضآلتها و التقوى الدينية و الزيجات في كـل العشائر، و باختصار الحياة المدنية. و يظهر ذلك بشكل جلي جداً مـثلاً فـي صرخة التجميع المشتركة لدى كافة سكان البلدة[١]. أما الميل المعـاكس فيـتجلى باستمرار صرخات الحرب و بالعلامات القديمة لكل عائلة و هذا أمر طبيعي ، إلاّ أن ما هو أشد دلالة هو تبني صرخة حرب واحـدة و أحـياناً وسم مشترك ضمن تكتل يضم عدة عوائل. و تدعم هذا الاتجاه روابط الجيرة و قرابة النساء التي أتينا على ذكرها. و باختصار، كـل ما يوحي بحياة القبيلة. و خلال بعض فترات القرن التاسع عشر فإن ظهـور زعماء منفردين على رأس التجمعات المنقسمة بين السخنة و بين جالـياتها[٢]، هذا الظهور يبدو لنا و كأنه دليل على قوة هذه التجمعات التي مـا تـزال قائمـة علـى الرغم من بعد الزمان و المكان[٣]. لدى الرعية السـوريين هنالك جماعات مستقرة مشكلة من عائلات من أصول مختلفة كانـت مـن القوة بمكان لتولد تقسيمات حقيقية بدوية حينما عاد القرويون إلى حياة التنقل و عدم الاستقرار[٤].

---

[١] أرگش أي "مـبرقش" و هـو حيوان قديم كما يقولون. كل المناظر و مدن الفرات و قرى الحضر على أطراف الصحراء لديهم صرخة "نخوة"

[٢] منـي مقيـبل من السخنة و من حماة – مني عفي من السخنة و السفيرة (راجع فصل ٥ لاحقاً: الجاليات في السفيرة

[٣] فـي الحقيقة يمكننا أن نذكر ، على العكس، عهوداً أخرى حيث يعترف كل اهالي السخنة بزعيم مشترك كما هو شأن القرويين في سوريا.

[٤] مثلاً هذا حال مني خرسان المتحالفين و المنضمين إلى آل تركي.

سبق لغالبية العشائر في تدمر ، و هي أيضاً متعددة الأصول ، أن تبنت هذه العلامة الموحّدة (O—O): نستنتج من ذلك بأن هذا التجمع قد تطور أكثر من السخنة في الاتجاه المديني. و في القريتين ، و هي أكثر تطورا أيضاً، لا يزال هذان الاتجاهان ماثلين. هكذا نعطي عادة تقسيمين إلى هذه البلدة: يقوم أولهما على التوزع بحسب تجمعات متحالفة –على الأقل جزئياً– حول نواة عائلية[1]. و الآخر ، كما هو في كل المدن، يقوم على التقسيم إلى أحياء (أو حارات). و في السخنة قد يتطابق التقسيمان لأن مساكن الأقرباء تبقى متجمعة و لذا لا يذكر التقسيم الثاني أبداً.

العادات الاجتماعية

هنالك بين المؤسسات عدد كبير مشترك بين البدو و الحضر المستقرين. مثال على ذلك (ثمن الدم)[2] أو بعض الأعراف القانونية. إن الخضوع لتحكيم الشيخ الراوي من دير الزور مثلاً ما هو إلا طريقة يبرهن بها المرء على براءته و هذه الطريقة مقبولة في السخنة و لدى كثير من البدو الشوايا ولدى الحضر المستقرين في الزور[3].

الاحتكام إلى الخطيب (أو الاستئناف لدى قاضي تدمر) في قضايا النساء خاصةً، و الالتزام بالخضوع إلى القضاء السوري (قاضي

[1] إنه "البيت" بمعناه الواسع: بيت فلان ......

[2] تجدر الإشارة إلى أن السخني لا يقتل أحداً

[3] راجع لاحقاً الفصل (٥) الجاليات § الكوم .

الصلح في القريتين) حينما يتاح لرجال الشرطة التدخل في نزاع، و العادة القديمة أيضاً و المطبقة على من يقوم بعمل شائن يلوث سمعته و القائمة علـــى طلـــي وجه الفاعل بالسخام و إركابه حماراً بالمقلوب و تطويفه في البلدة [1]، كل هذه الممارسات تبعدنا جداً عن عادات البدو الرحل[2].

على العكس ، الإعلان عن وقوع حدث سعيد أو عن عمل خير بـــرفع العلـــم الأبيض[3]. هو "عادة" بدوية. و عادة بدوية هي صيغة القَسَم بالغصن التي يستخدمها العمور و كثير من الرحل رعاة القطعان[4]. و عادة بدويـــة أيضـــاً حســـن ضيافة أهل السخنة التي تتفوق بكرمها على أهل المـــناظر كافة. و يمكننا دون شك أن ندرك من خلال العدد الكبير لزوار الزعيم أن المسافر يفضل منزلاً يشعر فيه بالأمان و حسن الاستقبال على

---

[1] يطلقون على مثل هذا الرجل اسم "مسخّم" أي محروق.

[2] يقـــارب كانتيـــنو لهجـــة أهـــل السخنة – التي يصفها بأنها قبيحة– ببعض اللهجات التي يســـتخدمها قدامـــى الحضر المستقرين. و يأتي بهذه المناسبة على ذكر قريتين من حوران: كناكر و زكية، علماً أن ليس لهما أية صفات مشتركة مع السخنة. و يذكر لهجة نابلس حتى و لهجات القبيلة الصغرى،

ربما تناقض هذا الكشف مع كل ما استطعنا ملاحظته في مجالات أخرى. لكن اللغوي العلامة أراد أن يصرح لنا بأن حدّاً أدنى من قدامى الحضر المستقرين (مني صلحة) يكفي لتفسير هذه الظاهرة و ليس في هذا المثال الأوحد من لهجة تناقلها شعب كان بالأصل غريباً عنها.

[3] حيـــنما برئت ساحة أحمد العنوزي من الكوم من تهمة خطيرة كانت قد وجهت إليه، رفع علمـــاً على قمة تل قرينه و علمين في السخنة (واحد في القلعة و آخر على المسجد) و علماً عـــند حامـــيه الشـــيخ ابـــن جلادان من السَبَعَة مسيكي (راجع لاحقاً الفصل ٥ ، الجاليات، § الكوم).

[4] القَسَم هو "وحياة هالعود و الرب المعبود و يبسني مثل ما يبس العود إني ما أخذت شي".

أن يـــنزل في بيت أحد الأمراء العرب حيث تكون إقامته شبه قسرية[1]. و بالمقـــابل فـــإن قيام سيد البيت (المعزّب) برسم إشارة صليب بدم النعجة المذبوحة على عنق ناقة الضيف هي عادة قبلية دون أدنى شك.

لا توجـــد مراتبـــية بين عائلات أهالي السخنة كما هو الأمر بين فروع الرعية. غير أن هناك من تمكنهم ظروفهم من التباهي بنسبهم و لا نفاجأ إذا كانت عائلة من الحدادين (مثل بيت الزعير) ذات أصل حضري مـــن ديـــر الزور. و لا يشعر الحدادون بأي احتقار بسبب مهنتهم بالذات غـــير أن هذه المهنة مقصورة على بضع عائلات تشكل تكتلاً خاصاً فيما بينها[2].

لـــنذكّر أيضـــاً بالطـــريقة التي يقلّد فيها أهالي السخنة لغة البدو فـــتراهم يتكلمون عن "القوم" و عن "الجماعة" و عن شيخ أحد تجمعاتهم و عـــن خاتمـــه الـــذي هـــو شـــعار سلطته... فهم يستخفون بباقي الحضر المســـتقرين كافة، حتى التدمريين منهم، الذين يجري في عروقهم دم أقل بـــداوة و تغلـــب لديهم الزراعة على تربية الجمال. إن "البداوة" – و هي الصـــفة المـــتفاخر بهـــا في كل الصحراء– مسيطرة في السخنة بقدر ما تسيطر في خارجها.

---

[1] راجع مونتاني ، المرجع السابق، صفحة ٧٠

[2] هكـــذا شأن أحمد الزعير و محمد الإبراهيم حداد الكوم الذي يفترض أنه منافسه إذ أنهما يستثمران سوية أرضاً ما زالت مشاعاً فيما بينهما.

د. الحياة السياسية

إدارة البلديات

هنالك تنظيم بلدي بسيط يضم مع **المختار الذي** تعينه الدولة، بناءً على رأي مواطني بلدته، أربعة مستشارين "أعضاء" معينين بناءً على اقتراح زعيم القرية بالتشاور مع الأهالي . و يمكن إقالة التنظيم البلدي بناءً على طلب من هؤلاء السكان. المختار الحالي هو أحمد العبد العزيز. ينفّذ الـ " أعضاوات"[١]، عن طريق المقربين إليهم، الأوامر التي يتلقونها من السلطات و لا يحق للأعضاء تلقي أي تعويض و لكن يمنحهم زعيمهم عادةً بعض الإكراميات ليضمهم إلى جانبه[٢]. و الموظف البلدي الوحيد المعادل لحرس الحقول لدينا "الحارس" يُدفع له أجر يقوم بشكل خاص على إعفائه من أعمال السخرة. على كل حال، الإدارة تكاد تكون غير موجودة. فالسواقي يصونها مالكو الأرض، و الجامع يقوم عليه المؤمنون أما المدرسة فتشرف عليها الدولة[٣].

---

[١] نلاحظ هنا جمع الجمع. – إنهم سليمان العيد من آل حبش و طريف الحسين من مني عفي و عواد الحمادة من مني عيبان و حامد جرداوي من مني عفي. منذ عامين ، ما يزال الأخيران فقط يقومان بدور فاعل.

[٢] كان أحمد قد لجأ إلى حيلة بارعة إذ عيّن منافسه الشيخ مرعي مستشاراً له حتى يبعده عن منافسته و يجبره على التعاون معه.

[٣] توجد مدرسة رسمية بنيت عام ١٩٣٠

الضرائب

أ – ضرائب (الخوّة) :

كانت الضرائب لمدة طويلة ضرائب (خوّة) تدفع إلى الزعماء الأعراب الرحل. و كانت إشكالات (حوادث) عديدة ترافق جبايتها. ابن سعيد بشكل خاص[1] كان يزرع الهلع في المدينة يلزم الناس بإيجاد المال فوراً و إلا يصادر جمالهم. و على الرغم من المبالغ المدفوعة قتل ذات مرة حضرياً دون أن يدفع ثمن دمه. لو أن أهالي السخنة عاشوا في العبودية لربما توفرت لهم الحماية[2].

قديماً في عهد أغوات حسية، كل حامي –و كانوا قلة حينئذٍ– كان يفرض على البلدة ضريبة مقدارها ٤٠ غازي (أي ما يعادل ٩٠٠ فرنك تقريباً)، لكن في عهد الأتراك ازداد عدد "الأخوة البدو" و كذلك ازدادت متطلباتهم. و في الأعوام التي سبقت الاحتلال الفرنسي، كانت تصل بهم الجرأة إلى سلب كل دواب المدينة و لا يعيدونها إلا مقابل فدية.

---

[1] أحد مشايخ السّبَعة الصغار.

[2] راجع موسيل، نجد الشمالي ، صفحة ٣٠٣. راجع مارسوا، المرجع السابق، ص ٦٩٣. "إن هؤلاء الحضر المستقرين يفضلون أن يكونوا أتباعاً لزعيم واحد من أن يكونوا ضحايا الجميع".

من بين المستفيدين من هذه الضريبة لنذكر عند العنزة:

السبعة	:	ابن سعيد من مني رحمة
		البحيري من مني عبادات[1]
		العجيلان من مني مسيكي [2]
فدعان	:	ابن قوبوين من العجاجرة
		ابن غافل من القاعشيش
ولد سليمان	:	العواجي
العمارات[3]	:	ابن قنفذ من السلاطين
		ابن مقلط من الدهامشة
		ابن هذال من الجبل

لم يكن ولد علي يجبون مكوساً (رسوماً) منتظمة لأنهم كانوا بعيدين جداً، الأمر الذي حال دون فرضها بانتظام. كانوا يحجزون بكل

---

١ الذي حل في البداية محل ابن سعيد من أجل ثمن عباءة و لكنه فيما بعد أصبح يجبي ما يحلو له .

٢ الذي حل في البداية محل ابن سعيد من أجل ثمن بطيخة . قارن مع جوسن و سافينياك (المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٧٢ : كان ابن غازي ، زعيم الحويطات ، يتلقى كل عام من سكان معان خمسة جزمات و اثنتي عشر كفية و عقال . ابن تايه ، و هو زعيم آخر في القبيلة ، طالب بخمس عشرة جزمة .

٣ لم يطل الأمر بالعمارات حتى تجاوزوا إلى حد بعيد الأربعين غازياً .

بســـاطة قوافـــل أهـــل السخنة و يعيدونها لهم مقابل دفع ليرة أو ليرة و نصـــف من ذهب عن كل بعير. و هكذا كان تصرف أغلب زعماء شمّر (ابـــن عجيل من آل عبده؛ ابن فروان و لمعقلي من السقارة؛ ابن فهد من آل قربة من الجزيرة) و لكن ابن رشيد كان يفرض عموماً ضريبة أكبر.

من بين رعاة القطعان كان أمراء الموالي يجبون رسوماً منذ أمد بعـــيد جـــداً. و منذ زمن حديث جدا، . خلافاً لذلك، قام شلاش العمر من العمور أبو حربة و القياط بالمطالبة بضرائب مثلهم.

ب – ضرائب الدولة:

كانـــت أول الضـــرائب المنتظمة التي تجبى في السخنة في عهد الآغا هي العُشر (أي عشر منتوج كافة المزروعات المسجلة) إضافةً إلى المســـقفات (و كانت في الأصل تبلغ ٥ إلى ١٠ قروش على كل نار توقد (بيـــت). يخضـــع أهالـــي السخنة حالياً إلى نفس الضرائب المترتبة على القـــرى السورية. و لكن إضافةً إلى "العداد" (ضريبة على الماشية) كانوا يـــتحملون ضرائب تكاليف القلي [١] أو على عصر البطم الذي يستخرجون مـــنه الزيـــت[٢].في عهد الأتراك كانت هنالك ضرائب أيضاً على الملح و

---

[١] بوتاس مستخدم في صناعة الصابون

[٢] تحدّد هذه الرسوم كل عام عن طريق المناقصة. و يعتمد الذي ترسو عليه المناقصة ممثلاً لـــه (وكيل) أو (مأمور) في كل محلة منتجة و في الأسواق السورية. و هو يجمع الضرائب على البطم في نهاية كل موسم على أساس ١٠% و يقوم المأمور بجباية مباشرة للضريبة من قوافل القلي عند خروجها من السخنة.

علـــى الخشـــب (٢٥ قرشـــاً لكل قنطار) و في الوقت الراهن لم تعد هذه التجارة مسموحة.

ضريبة الزعيم

تخـــول الحكومـــة المختار الحق بجباية مجيديين عن كل مكلف بالضريبة بالتوافق مع وجهاء البلدة، و يسمي أهالي السخنة هذه المساهمة بـــ "الشيخة"[1].

الدخل الوحيد للزعيم كان سابقاً رسماً على القلي يجبى بعد قيادة و وصـــول القافلـــة إلى حلب و تصريف البضاعة[2]. كل بائع كان يدفع له "برغوتيـــن" علـــى كـــل حمولة جمل. و كان المشتري يقوم بالمثل لا بل يضـــيف إلـــى ذلك خفية عشرة إلى خمسة عشر قرشاً على سبيل الرشوة حينما كانت السوق رابحة[3].

---

[1] مثل الضريبة التي يدفعها الرّحل إلى زعيمهم. و لكي يتجنب مكائد منافسه الشيخ مرعي الذي كان له مؤيدون عديدون، تنازل له أحمد العبد العزيز منذ عدة أعوام عن ضريبة (الشيخة) المفروضة على مني خلف و مني عفي.

[2] تجدر المقارنة مع الضرائب المفروضة للزعماء المحليين كما يصفها دوغيتي لدى العنزة (المـــرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٥) و في قرى تابعة إلى بريدة (نفس المرجع ص ٤١٤) راجع أيضاً موسيل نجد الشمالي، ص ٢٤١.

[3] هـــذه الرشوة يطلق عليها اسم (جزمة). الموارد غير النظامية لم تزل في هذه الأيام. في شـــهر آذار ١٩٣٥ قـــام تجـــار ماشية عابرون بتركها ترعى في البساتين. الأمر الذي سبب أضـــراراً كبيرة. و قدم المختار عريضة شكوى فقضي للبلدة بـــ (٤٠٠) فرنك تعويضاً عن العطل و الضرر إلاّ أن هذا المبلغ لم يخرج بكل تأكيد من جيب الشيخ أحمد.

السياسة الداخلية

لا يجهل الشيخ أحمد العبد العزيز أياً من ألاعيب السياسة.

فأخوه أسعد إلى جانبه ، يلعب تارة دور الشريك و تارة أخرى دور المنافس و ذلك حسب الحاجة.

عام ١٩٣١ رغب أحمد السيطرة على الطيبة التي اشترى فيها كمية كبيرة من الماء. فعين نفسه فيها مختاراً و ترك السخنة لأخيه. و سرعان ما لاقت سياسته نجاحاً. فاحتج المعارضون بأن أسعد بالغ في استقلاليته، حينئذٍ قدّم أهالي السخنة اعتراضاً و استعاد أحمد زعامتهم.

و بالمقابل ، لم يكن أحمد بمنأى عن المكائد . حتى إن أقاربه بالذات، مني مقيبل، لم يعودوا يطيعونه دائماً بإخلاص.في المنافسات السياسية[1] ، من المعروف أن كل الذرائع مقبولةفي القرى السورية. و بلدة السخنة ليست استثناءً من ذلك. مررنا فيها عام ١٩٣٢ في نفس اليوم الذي أطيح بأحمد : (١٥٠) بيتاً كانت قد أيدت الشيخ مرعي و لم يبق سوى ٢٠ بيتاً راسخاً في الولاء للشيخ أحمد. لقد تجمعت مشاعر الحقد نحوه، لأنه عندما تم توظيف بعض العمال للعمل في خط أنابيب النفط[2] ، لم يسجل إلا الخلّص من أنصاره. انتقل أحد أبرز الوجهاء وهو، خليف التيسان، إلى المعارضة مع ٢٠ عائلة بسبب ضريبة فرضها عليه عندما

---

[1] راجع لاترون ، الحياة الريفية في سوريا و لبنان، الفصل الثامن.

[2] الفرع الشمالي من أنابيب شركة نفط العراق يمر على بعد بضع عشرات من الكيلومترات جنوب السخنة.

باع علفاً لكوكبة عابرة من الهجانة – و حسب رأيه- كان يمكن أن توزع هذه الضريبة بشكل أفضل. و قد حذا بنو عيبان (١٥ عائلة) نفس الطريق و تصـــرفوا مـــثل سابقيهم، ثم لحق بهم أقرباء الخطيب و كل الأتقياء[1]. و بـــالفعل و منذ وقت قصير لم يعد احمد يمنح مالاً للقائمين على الصلاة و العـــبادة ويغفل إرسال نصيبهم من اللحم حينما يذبح نعجة لضيوفه. اغتنم معارضو هذا الزعيم غيابه الطويل إثر تورطه في عمليات تهريب، تقدموا بعريضة إلى الحكومة فاستجابت لمطالبهم.

و لكن كان الجميع يعرف بأن خبو نجم الشيخ أحمد لن يطول به الأمد إذ أنه غني و سياسي محنك. فهو يحل المنازعات بين أعوانه بشكل يرضـــي الجمـــيع و و يرضي مصلحته الخاصة بالطبع، و هكذا يتحاشى الجمـــيع اللجـــوء إلى القضاء الرسمي. إنه يدلل بذلك على مهارة يرفقها بالكـــرم و يدعمـــه العمـــور –و هم شلة من اللصوص- حينما يرتكبون لصوصـــية تراه يدافع عنهم في تدمر و غالباً ما يبرئهم لدى الفرنسيين و يكتفـــي بعدهـــا بنصف أسلابهم تعويضاً له. و بالمقابل فشل الشيخ مرعي بســـرعة بالبقاء في السلطة و ذلك من جراء بخله. و باختصار كان الناس يعـــتقدون أن أحمد سيوزّع خلال فترة قصيرة المبلغ الكافي من المال على وجهـــاء المـــنطقة حـــتى يستعيد مركزه . و هذا ما حصل فعلاً بعد عدة أشهر.

---

[1] منذ ذلك الحين ظل الشيخ علي في المعارضة، أما ابن عمه الشيخ حليّل فهو أكثر قرباً من المختار الحالي.

هكذا يتبين لنا أن مزايا زعيم ما لا تختلف في السخنة عن زعيم آخـــر يعيش تحت الخيام. و إذا فتشنا عن الركيزة التي يبني عليها الزعيم سلطته فإنها يقاس بعدد أنصاره كما هو الحال في القبيلة. و واقع الأمر أن نـــواة هؤلاء الأنصار تشكلها عائلته. هذه هي حال مني جبيل و هم أقوى تجمـــع فـــي السخنة. من بينهم نجد مني غنيمة و هم القبيلة الأكثر عدداً. يحظى أحمد عبد العزيز إذن بدعم أقوى من دعم التحالفات سيئة التشكيل التي يحاول الشيخ مرعي الاعتماد عليها.

و الـــثروة ضـــرورية أيضـــاً للـــزعماء أكثر من ضرورة نبل المحتد[1].

و تأتـــي الثروة عن طريق القوافل و الزراعة. سبق لنا أن رأينا أهمـــية الأرباح التي حصل عليها الزعماء عن طريق الحج[2]. أو من نقل البوتاس. و قد حصلوا على قسم من هذه الثروة عن طريق سلطتهم . في كافة الأزمنة، كانت تعتبر قيادة القوافل الكبيرة في الجزيرة العربية امتيازاً لكبار الزعماء السياسيين ، بل غالباً ما تقود إلى الحكم. و يخطر ببالنا هنا باشـــا دمشق الذي كان يقود بنفسه قافلة الحجيج[3] و عائلة ابن رشيد التي تقود بعثات الحجاج و التجار[4].

---

[1] (دوغيتي، المرجع السابق، ج ١، ص ٣١٣-٣١٤) يذكر حالة حداد اغتنى فأصبح زعيم قرية.

[2] راجع موسيل – نجد الشمالي صفحة ٢٤١.

٣ راجع فولني ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٠

٤ راجع فيلبي ، المرجع السابق ، ص ١٠٣.

فـــي الســـخنة، سياسة الزعماء الحاليين تميل إلى السيطرة على ينابيع الماء. و حينما تصيب أزمة سكان الصحراء ، تتزايد أهمية زراعة الأراضي المروية بتناسب طردي مع تناقص الموارد التي يجنيها الحضر من التجارة،. و في كل قرى البلدان الجافة، زعيم القرية هو قبل كل شيء أكـــبر مالك للمياه. من هنا نفهم سياسة أحمد العبد العزيز في الطيبة و في الســـخنة. يمتلك (٢٠) ساعة من ماء الينابيع الرئيسة، و يمتلك مدة يومين من عين أحمد العمر و نصف الوازعية[١].

إنه يشغل مؤقتاً ، على سبيل الرهن، لقاء قروض مالية عديدة ، عـــدة بســـاتين و يتصرف بحصتها من الماء. و لا يعيدها لمالكيها إلا بعد ســـداد ديونهم. أي بعد وقت لا يعلم الله متى يحين! و هنا لا يسعنا إلاّ أن نذكـــر الأســـاليب التـــي يلجـــأ إليها أثرياء حمص و حماة للاستيلاء على أراضي الفلاحين المدينين لهم[٢].

يسيطر أحمد إذن بالفعل على حصة كبيرة من المياه و الأراضي (و لا قـــيمة لأرض بدون ماء). و ندرك أنه ، حتى إذا سلمنا بأن أعوانه اســـتغنوا عنه ذات يوم، فإنه يبقى قوياً جداً. و تظهر النزاعات العائدة لنبع الوازعية بجلاء أهمية هذه القضية.

و إذ نجـــح أحمد العبد العزيز في تحويل كل المياه لصالحه منذ عـــدة أعـــوام، اعترض مرعي على ذلك. و النتيجة أن دخل أحمد السجن

---

[١] نعلم أن هذا النبع يشكل منازعات حادة.

[٢] راجع لاترون: ملاحظات حول الملكية العقارية في سوريا الوسطى، ص ١٣٤.

ثــلاث مرات و خرج منه في كل مرة طليقاً بدفع رشوة مقدارها (٦٠٠) لــيرة ذهبــية كمــا قيل.! أمام هذا الوضع ، طلب مرعي مالاً من جميع أقاربــه، مــن هذا (٥٠) ليرة ذهباً و من ذاك (٦٠) ليتمكن من توزيعها بــدوره علــى الموظفيــن و القضاة كرشوة ذات قيمة . و بالطبع احتفظ بالمــال لنفسه! و هذا ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن مركزه كان جيداً (أو أن القضاة كانوا نزيهين) ، لأنه ربح القضية عام ١٩٣٢ دون أن يدفع شيئاً. و لكن المشكلة لم تنتهِ بل ما زالت معلقة حتى أيامنا هذه.

السياسة الخارجية

تقــيم الســخنة علاقات جيدة مع المدن البعيدة عنها التي لا ترى فــيها منافســا يُخشى جانبه. هكذا حال أهل القريتين الذين يحظون بسمعة جــيدة كمــا هــو حال أهل دير الزور. على العكس ، تعتبر تدمر و أرك مدينتين منافستين لها و حصلت قديماً "حرب" (قوم) بين السخنة و أرك. و التعبير "حرب" المستخدم يجب ألا يخيفنا[١].

كــان أهالي أرك يمدون على الطريق بساطاً حينما كانت الريح تأتــيهم من الشمال الشرقي حتى لا يتنشقوا هواءً مرّ فوق بلدة السخنة. و يحــاولون أيضاً الاستهزاء بأهالي السخنة. نذكر قصة أحدهم إذ طلب من زوجــته الشــابة، البسيطة نوعاً ما، بعد زواجه أن تأخذ من جرتها قبضة

---

[١] يســتخدمون كلمات "كبيرة" في السخنة. قارن مع لونس، المرجع السابق، صفحة ٣٨٢. حيــث يقول " مذبحة أهالي فلسطين عند استيلاء العبرانيين على البلد ليست سوى مبالغة من قبل متحضرين جدد."

مــن الزبيب فلم تفلح ذلك لأنها كانت ملزمة علىسحب قبضتها مفتوحة و إنمــا فارغة، أو أنها لم تكن تستطيع أن تخرج من الجرة قبضتها المغلقة. حينــئذٍ وضـــعها زوجهـــا مع الجرة على حمار و طلب منها الذهاب إلى السخنة لطلب النصيحة.

كـــان أهالي السخنة أقل مزاحاً و لكنهم يعرفون كيف يفرضون احـــترامهم. لم يجمعوا الخوة من أهالي تدمر كما يروي البعض و لكنهم كـــانوا "يقـــتلون"[1] أولئك الذين يغامرون بالتعدي على القلي و البطم في أملاكهـــم أو على الأقل يضربونهم و ينتزعون منهم حميرهم و ثيابهم. و عـــندما كـــان الـــتدامرة يعبرون مع إبلهم المحملة وادي مني عفي كانوا يخطمونهـــا حـــتى لا ترعى الروثة العائدة لأصحاب الأرض لأنه ذلك لو حصـــل لعرّضهم لعقوبات رادعة قاسية. إلاّ أن هذا لم يكن يحدث إلاّ قبل وصول محمد بن عبد الله العروق إلى السلطة في تدمر[2].

أصـــبح الـــتدامرة حالياً أغنياء و أصدقاء للـــ (دولة) ؛ و سكان أرك هـــم أقـــارب النائب أحمد عبد الرحمن الملقب أبو سكّر، و لا يمكن لأهل السخنة إلا أن يقنعوا بالعيش معهم حياة جوار و وفاق.

العلاقـــات مـــع الـــبدو – و خصوصاً مع السبعة – تسود على سياسة السخنة الخارجية. لا يمكنها إلا أن تكون على أحسن ما يرام طالما

---

[1] يجب عدم أخذ الكلمة بمعناها الحرفي.

[2] رافـــق هذا الزعيم ليدي بلنت في نجد و حضر معرض باريس العام ١٨٨٩ و كان ممن ساهموا في ازدهار تدمر عن طريق استثمار السواح.

أن البدو الرحل أقوياء. و هذه العلاقات الطيبة تعود إلى زمن بعيد، - إلى تلك الحقبة التي كان فيها الراصد القابع على قمة القلعة يخبر عن وصول الغـزاة فيسـرع الجميع إلى إخفاء ما من شأنه أن يغري أولئك الضيوف الذيـن يدعون أنفسهم للمجيء إلى بلدتهم - و فيما كانت السرقات متكررة على الرغم من دفع الخوة كانت الجرائم التي يقترفها البدو نادرة جداً (لأنه لا بد من العلم بأن أهالي السخنة يعيشون دائماً و كأنهم في القبيلة). لم تعد ضرائب الأخوة تدفع أبداً في هذه الأيام و البدو يحترمون الضعيف[1].

مع العمور، الصلات ثابتة، فالعلاقات لا يمكن أن تكون دائماً كاملة.على الرغم من أن حياة البدو و استعدادهم للنهب يجعلانهم أقوياء نسبياً لكن بؤسهم و عدم أصالتهم تسمح بالتعامل معهم على قدم المساواة تقريباً و على الأخص ، أنهم يدفعون دائماً ثمن الدم ، و يدفعونه أحياناً غالياً[2].

لا نجـد فـي السخنة كما هو الحال في كثير من مدن الجزيرة العربـية -فـي حايل بشكل خاص كما يأتي على لسان مونتاني[3]- لا نجد

---

[1] عـام ١٩٣١ حيـنما اضطر سكان الكوم إلى ترك مزروعاتهم، تركوا فيها و بدون خوف نسـائهم و شـيوخهم . و هـذا ما يفسر أن ذبح امرأة على يد السّبعة في الطيبة عام ١٩١٧ اعتـبر جـريمة شنيعة فترة ما زال الناس يتحدثون عنها و تكفي حتى الآن لجعل الزوجات اللواتي عاد أزواجهن إلى الطيبة يترددن على الرغم من الأمان السائد.

[2] هكـذا أحد أخوة أحمد العبد العزيز الذي حاول إغواء فتاة من بناتهم تم ذبحه خلال عملية بـيع جمال و رمي به من أعلى تلة صخرية غرب قرية الضاحك. حصل أحمد على (٢٠٠) ليرة ذهباً كفدية.

[3] المرجع السابق ، ص ٧٧

مراتبية بين المجموعات و لا طبقة مسيطرة لأن البلدة لم تكن أبداً مركز نفوذ لقبيلة كبيرة متجانسة من الرحل[1]. و هي من الفقر بمكان لا يؤهلها لتكون مركز تموين.

و بسبب كثرة العشائر التي ترتادها أصبح من المستحيل على إحداها الاستقرار فيها بشكل دائم . و كانت المناطق الحضرية قريبة إلى حد جعل السكان يفضلون النفي على الانصياع الذليل. و موقعها كمنفذ يصل بين حلب و الحماد كان من الأهمية بحيث جعل الحكومة التركية – على ضعفها– تسمح بوجود تجمع بدوي هام. و بالمناسبة يبدو أن أهالي السخنة قد فرضوا احترامهم بقوة السلاح[2]. و مع ذلك، فذكرى الأصول الرعوية و الاعتزاز بها[3] ؛ و اثبات على التراث و الارتباط بالبدو الرحل الحقيقيين و تمزق المؤسسات السياسية بين أنظمة القبائل و أنظمة المدن ، كلها ميزات مشتركة لكل الواحات أكانت نقاط دعم للاتحادات[4] أو العشائر

١ لم يكن الموالي الذين سيطروا على منطقة تدمر خلال قرون سوى رحل نصف مستقرين من أصول و جذور متعددة.

٢ راجع ج.ب. ل. روسو ، رحلة من بغداد إلى حلب ، ص ١٥٦

٣ أو أقارب : يفخر أحمد العبد العزيز بأن شقيقة جدته هي جدة لزعيم إحدى العشائر الكبيرة، و هو سلطان طيّار من ولد علي

٤ مثل حايل

البدوية[1] أم -بالعكس- مراكزا تجارية متقدمة و معزولة لتسويق بضائع المدن[2].

لنلاحظ إضافةً إلى ذلك بأن أهالي السخنة – بما أن الأرض لا تشغل إلا حيزاً صغيراً في حياتهم- يظهرون لنا كبدو رحل تحولوا إلى سكان مدن، أي أنهم أصبحوا تجاراً و منظمي قوافل لا مزارعين[3]، خلافاً لما نلحظه في كثير من بساتين النخل البدوية في الجزيرة العربية[4]. فمرحلة الزراعة ليست ضرورية، كما يعتقد البعض للانتقال من الحياة الرعوية إلى الحياة المدنية.

---

[1] مثل مناطق الحجاز الشمالي و منطقة العلا و حارة خيبر حيث توجد الإقامات المستقرة لعشائر العنزة (راجع دوغيتي، المرجع السابق، ج ١ ، فصل ١٥) و واحات وادي دواسير.

[2] مثل المناظر و الواحات على عرض الفرات المتوسط (من قبيسة إلى كربلاء) أو مدن الحجاز (المدينة – مكة – الطائف).

[3] كانت القوافل تجعل من سكان السخنة قريبين جداً من القبائل إلى درجة أن مظاهر حياتهم البدوية ليست فقط رواسب و انبعاثات ورثوها عن الماضي و إنما هي تأقلم مع الضرورات الراهنة.

[4] في الجزيرة العربية أيضاً نصادف البدوي الذي صار يسكن في بيت من طين و يعمل بائعاً متجولاً. يصفهم دوغيتي (المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٠) بأنهم "أناس بائسون" ، " منبوذون من العالم". و أهالي السخنة غالباً ليسوا أفضل منهم .

الفصل الرابع

الحياة الاقتصادية

تعــتمد الحــياة الاقتصادية في السخنة إلى حدٍ ما على منتوجات الأرض و القطعــان. يسبب الأزمة و الركود اللذان يسودان خلال كتابتنا هذه الدراسة (شتاء ١٩٣٣-١٩٣٤) تطوراً زراعياً مشوهاً و حركة عودة إلــى نمــط حياة الرعاة. و حينما ندرك حجم الأمور المفيتة التي اضطر هــؤلاء الحضر الأتقياء إلى تحملها ليصل بهم الأمر إلى تلك الحال، تبدو لــنا هــذه الظاهــرة إحــدى أغــرب الظواهر التي يمكن لنا رصدها في الصــحراء هــذه الأيام[1]. مع أن أهالي السخنة يدينون إلى التجارة بأفضل مواردهم. إن أشغال النساء –و بشكل خاص أشغال بعض الحرفيين– هي فــي غالبيــتها مخصصة للبيع للقبائل. في كافة المنطقة الشمالية من بادية الشام، ما زال أهالي السخنة يتمتعون بنوع من الامتياز القائم على التجارة مــع الأعراب، تجارة تنسجم بشكل رائع مع استثمار كل منتوجات السهب الطبيعــية، و واقع الحال أنهم لم يهملوا أياً من تلك الوسائل. يذهل المرء مــن غزارة و تنوع "غنى الصحراء" ذاك، و من الفائدة التي عرف كيف يجنــيها قديمــاً أولــئك المستثمرون و من البلبلة التي أتت بها الحضارة الغربية و الاستقرار اليوم و أثرت على اقتصادهم و هم غير قادرين على

---

[1] راجــع مارســيه، المرجع السابق ، ص ٩٢ ، إذ يقول نقلاً عن حديث نبوي شريف "ما أخشاه على أمتي هو حليب يثوي فيه إبليس بين الزبد و الدسم. سوف يحبون أن يشربوا منه و سيعودون إلى الصحراء هاجرين الأماكن التي تقام فيها الصلاة بشكل جماعي".(لم نجد لمثل هذا الحديث أي أصل – المترجمان)

مجابهتها. يلجأ البعض إلى أنواع من الحرف ما تزال تدر عليهم شيئاً من الـربح، و الـبعض الآخـر يفلتون من النظام التجاري الجديد عن طريق ممارسة التهريب. تبقى الزراعة هي موردهم الأخير قطعاً. و بدلاً من الرضوخ لهـا، يقـوم الكثير منهم بالبحث عن خلاصهم في الهجرة و يقصدون المدن السورية مفضلين أعمالها السهلة نسبياً على الكدح القاسي في الحقول[1].

أ. في المدينة

١- الأرض و الماء

<u>الماء:</u> يعود اسم قرية السخنة إلى مياهها الحارة و الكريهة (الحمام ٣٨ درجة تقريباً) التي تمتد طبقتها تحت سطح الأرض التي أقيم البناء فوقها[2]. و ينتشر العديد من الآبارقليلة العمق في الحي الشمالي و الشرقي[3].يذهب السكان حالياً لجلب الماء من الينابيع حيث يصب هذا المخزون المائي و بشكل خاص في جنوب التجمع السكاني.

هذه الينابيع هي:

---

[1] يبدو أن قدماء الرحل ينسجمون بسهولة أكبر مع التجارة مما ينسجمون مع الزراعة.

[2] يعرف السكان منذ زمن بعيد كيف يبردون الماء و يهوونه بواسطة الجرار الموجودة في البيوت أو على السطوح ليلاً. (راجع ابن بطوطة، يستشهد به موسيل في بالميرينا صفحة ٨٣ في الحواشي).

[3] تجعلنا نظن أن الحياة الحضرية قديماً كانت أكثر تنظيماً. فللبيوت باحات حفرت فيها آبار فوق قنوات قديمة غالباً.

أ- ينابيع على أطراف القرية:

١- الحمـــام: نبع حراري يزود ثلاثة أرباع الأراضي المسقية في القرية (انظر اللوحة ٧ - ٢)

٢- عيـــن عـــياش: نبع صغير واقع تحت قبة يؤخذ منه ماء الشرب و يصب ما يفيض منه في الحمام.

٣- نـــبع الجفيّر: يعبر ماؤه بقناة فوق التصريفات المجاورة و يصب في خزان (بركة) ثم يسقي بعض الأراضي (انظر الشكل ١١).

٤- عيـــن أحمـــد العمر: يمر مصبه تحت باقي التمديدات و ينتهـــي فـــي بركة. (انظر الشكل ١١). أحياناً تختلط مياه هذين النبعين مع النبع الرئيسي.

٥- عيـــن فـــيّاض: في الشمال الشرقي للبلدة، تسقي أراضي وادي مني خلف.

٦- عيـــن التيسان: تقع شمال عين عياش و عين فارس العبد العزيـــز (جنوب عين أحمد العمر) و كلاهما قد نضبت مياهها الآن، عين الصوفة أو أبو الفوّار (شمال المقبرة) و لا يصلح ماؤها للري.

ب-ينابيع في شرق الأراضي المزروعة:

٧- عيـــن السـيّح : ماؤهـــا مالح جداً، و لم يكن يستخدم إلا قلـــيلاً. أما الآن فيصل إلى بركتها قليلٌ من ماء الوازعية. تروي حقولاً قائمة بعيداً جداً من جهة الشرق.

٨- عين الجبّول: في الشمال الشرقي للعين السابقة. أقل

غزارة من سابقتها و ماؤها مالح.

٩- الينابيع الصغيرة الخمسة و المسماة (الزرقاء) الأزارق، في الشمال تنضب في فصل الصيف.

ج- ينابيع الجنوب الغربي:

١٠- نبع الوازعية: إذا نظف مجرى هذا النبع فربما يكون أكثر الينابيع غزارة في السخنة. ماؤه عذب نقي جداً. يغذي حالياً بركة في الطرف الجنوبي الغربي للمنطقة المزروعة بالإضافة لما يرفد به عين السيح

سبق أن أتينا على الأهمية التي يوليها الزعماء لمياه الري. و سوف نرى هنا (فيما يخص الوازعية) تلك النزاعات الشديدة التي يقوم بها أصحابها لاستغلال رأس المال هذا و يحرموا منه جيرانهم. الاتفاقات التي تنهي -أو بالأحرى التي توقف هذه النزاعات- تساهم في إرساء حق كل طرف في نصيبه من الماء و ذلك عن طريق اتفاقيات استثمارية سلمية. مهما كانت الزراعة قديمة فجوار البدو الرحل و أعمال السكان التجارية قد جعلت حياتهم غير ثابتة و غير مستقرة. و لهذا نلاحظ أن أهالي السخنة الذين عملوا في الزراعة منذ مدة طويلة يتركون لديك انطباعاً أنهم بدءوا في هذا العمل منذ وقت قصير جداً. نرى إذن عندهم نظام ريّ وليد بينما نراه معقداً جداً في القرى السورية القديمة أو في الواحات الكبرى مثل غوطة دمشق[1].

---

[1] راجع تومان ، المرجع السابق.

يلعب نبع الوازعية دوراً بالغ الأهمية في البلدة و هذا ما يدفعنا إلىاستعراض كافة مراحل استثماره بالتفصيل. و لا يسعنا إلاّ أن نقرنها بالنزاعات السياسية التي استخدمت كذريعة لها.

كان ينبع قديماً على شكل عدة عيون صغيرة[1]. و ذات يوم تسبب حافر أحد جمال البدو بحفرة[2] كشفت عن قنوات قديمة كان الماء يجري فيه بغزارة. و اشترى أحمد العبد العزيز بمقدار مائتي ليرة ذهب ثلاثة أرباع أرض أحد المالكين من مني درغام و أنفق أكثر من (٨٠٠) ليرة ذهب للمعاملات و الأشغال(؟). و نبش باتجاه الثقب الذي أحدثه حافر البعير فوجد النقطة التي ينبجس فيها الماء من الصخر.

و نظراً لعدم توفر المال لم يستطع أن يعيد كل التمديد إلى حالته الأولى و لكنه نجح في تجفيف كل المصبات القديمة ليستفيد من حوض أنشأه لجمع الماء.

و قبل أن يعترضوا قام بنو عباكة، المالكون الأساسيون و جمعوا في السخنة العديد من أقاربهم المشاركين لهم في ملكية الماء. ثم و بدعم من قبل مجموعة من أتباعهم قام مرعي زعيم مني عفي بحفر بئر في بستانه و كشف عن تمديد آخر يؤدي إلى النبع الأصلي. و لكنهم لم يستفيدوا من هذه العملية لسقاية الحقول القديمة لأن مستوى الماء قد

---

[1] إحداها ملك لمني درغام و آخر لمني صلحة و اثنان لمني حبش و أهمها لمني عباكة و هي عائلة من مني عفي تملك معظم الأراضي في الجوار.

[2] بين نبع مني ضرغام و نبع مني حبش

انخفض جداً من جراء الأعمال التي كان يقوم بها الشيخ أحمد[١]. حينئذ قاموا بتمهيد التمديدات القديمة باتجاه مصب النبع أي نحو بركة عين السبح و استطاعوا أن يوصلوا إليها جزءاً من الماء، لكن الصخرة التي اعترضتهم في منتصف نهاية الطريق عاقت دون حصولهم على منسوب ماء كاف ليحدث الشح في مصب الشيخ أحمد. ففضلوا إذن الاستمرار في متابعة التمديد القديم.

في اليوم الذي سيجرى فيه نبع ماء الوازعية بحرية، لن يكافأ مني عفي على أتعابهم و مساعيهم فحسب و إنما سوف يثأر لهم. و لكن لسوء الحظ توقفت الأعمال حالياً (١٩٣٥) في أطراف حقل يملكه خليّف التيسان و يبدو أن هذا قد قرر بحزم أن يدفع له غالياً حق المرور في حقله. تلقى عروضاً من كلا الطرفين و سوف يلبي رغبة المزايد الأعلى.

ملكية الماء : كما نرى لم يكن الماء قد ارتبط بعد بالأرض التي يرويها. و الأرجح أنه يرتبط بالأرض التي ينبع منها[٢]. و بما أن تسجيل مقاسم الأرض -ماخلا البيوت و المزروعات المروية- كان حديثاً جداً. فالماء الذي يكتشف عادةً في الأراضي القاحلة التي تشرف على البساتين هو بالطبع ملك لأول من يكتشفه[٣].

[١] منذ القيام بتلك الأشغال اضطر المشاركون في الملكية لإرواء (سقاية) أراضيهم بماء الحمام على حساب بقية مزروعاتهم الكائنة في الشمال الشرقي.

[٢] و هكذا فإن عين السبّح ملك للخطيب

[٣] و هكذا عين فياض و عين أحمد العمر و عين عياش اتخذت اسم مكتشفها و مالكها الأول

عديـد من هذه الينابيع – و بشكل خاص الضعيفة منها و حديثة التفعيـل– هي ملك لرجل واحد [1]أو عائلة واحدة يستثمره أفرادها مشاركةً فـيما بينهم[2].أما الينابيع الأكثر أهمية فموزعة بين عدة مالكين. إن أصول هذا التقسيم و علاقاتها بالأرض تبدو لنا هنا بأوضح صورها بينما يصعب اكتشافها في العديد من القرى السورية و حتى في تدمر.

تكـون قطعـة الأرض أحياناً ملكاً لرجل و يكون نبع ما ملكية رجـل آخـر، تروى أرضه مجاناً من الماء الفائض للحصول على زرع هـزيل. و حينما يتم تنظيف مجرى هذا النبع نهائياً و يصل منسوب الماء إلـى الحد الأقصى و حينما تحرث كامل الأرض التي تسقى و تصل إلى درجة الانتشار القصوى يضطر كافة المعنيين للاجتماع لتوزيع الأرض و المـاء من جديد فيما بينهم[3]. هذا التوزيع يحصل مع الأخذ بعين الاعتبار للحقـوق السـابقة للمالكيـن و لمـا أنجزوه و قدموه من عمل ؛ و يقدّر العـارفون بالأمور الأكفاء بأن ثلاثة أرباع رأس المال المشترك يجب أن يكون من نصيب من يزود الماء.

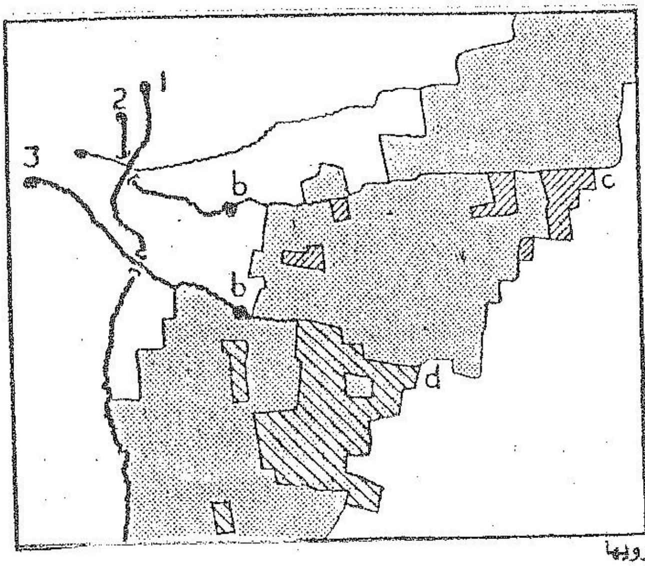
---

١ مثل عين الجبول العائدة لزيدان الزطاطة من مني صلحة.

٢ مثل عين فياض لمني حباش، عين الجفيّر يملكها بنو عيبان وحدهم حالياً (لكن احمد العبد العزيـز كـان يملـك جزءاً من مياهها). أيضاً و منذ عدة سنوات، كل من ينابيع الوازعية الصغيرة.

٣ هكذا وضع عين السيّح من ملكية الخطيب التي استفادوا منها سابقاً في سقايات محدودة في حقول مني حبش المجاورة. منذ عام ١٩٣٣ ازداد ماء هذا النبع بما رفده من نبع الوازعية و هـو مـن ملكـية منـي عفي، فانتشر بعيداً يروي الأراضي التي يزرعها الخطيب و خليف النيسان. و سوف يقوم هؤلاء الأخيرون، مع مني عفي، على تقسيم نهائي للأرض و الماء بعد الانتهاء من الأعمال القائمة.

و يحـــدث أيضاً أن يحتاج تمديد سيئ إلى تنظيف[1] أو أن يحتاج إلـــى منســـوب أعلـــى[2] و في كلا الحالين يلجؤون إلى وجيه غني يتكفل بإنجاز الأعمال مقابل حصوله على استخدام قطعة ما من الأرض و بعض المـــاء. فإمّا أن تسلم له حصته بعد تحديدها بدقة و إما يضعون الحصص بشكل مشترك ويتقاسمون بعدها المنتوج حسب عقد المساهمة و المشاركة آخذين بالحسبان –إذا اقتضى الأمر– دفع أجور المزارعين[3].



الشكل ١١

شبكات الري

١– الحمام : ظللت المناطق القابلة للري من هذا النبع باللون الرمادي

٢– عين الجفير : المناطق التي يرويها هذا النبع معلمة بخطوط مائلة ///

٣– عين محمد العمور: المناطق التي يرويها هذا النبع معلمة بخطوط مائلة \\\\

b – بركة تجميع . الخطوط b c و b d تمثل بالتتالي الساقيتين الرئيستين للنبعين و في الوقت نفسه أعلى مستوى يمكن أن يبلغه ماؤهما. الحقول التي ترويها موجودة جنوبي هذه القنوات

---

[1] كما حصل للجُبَيْب في الطيبة حيث تنازل المالكون عن الربع إلى الشيخ أحمد العبد العزيز.

[2] حال مني درغام الذين تنازلوا إلى الشيخ أحمد عن ثلاثة أرباع ملكيتهم في الوازعية.

[3] هذا ما يحدث خصوصاً إذا كان المالك المشارك يقيم بعيداً و يترك لقدامى الملاكين شؤون الاستثمار. و هذا هو حال القنا في الطيبة حيث وزع أحمد العبد العزيز الربح الصافي بينه و بين مقدم المال من دير الزور (حسن الطه) بعد دفعه كافة التكاليف بما فيها أجور المرابعين.

و أحـــياناً أخـــرى، لتجنب اللجوء إلى شخصية قوية، يختارون عمالاً يؤدون لهم مكافآتهم -بعد انتهاء المشروع- بمنحهم يوم أو عدة أيام اســتفادة مــن المـــاء عن جهودهم و أتعابهم و عن إنجاز المعاملات مع السلطات الرسمية[١].

فـــيما بعـــد و حيـــنما اســـتقر وضع الينابيع، كان من شأن بيع الأراضـــي -بمائهـــا أو بدونه- أن أنهى تداخلات الأرض و تعقيد حقوق مـــاء الـــريِ و لكـــن، و لمدة طويلة أيضاً، يلاحظ استقلال الأرض عن الماء[٢].

لكل نبع هنالك ساقية أو عدة سواقٍ أساسية روعي فيها أن تكون علـــى أقـــل قـــدر من الانحدار و تحدّد المستوى الأعلى للاستخدام. و إذا فحصنا المساحات التي تصب فيها هذه المجاري يتبين لنا بأن:

١- باســتثناء عيـــن فياض التي تجري مياهها باتجاه وادي مني حبش، كل مياه السخنة يمكن أن توصل بنبع الحمام. و يلجـــأ مـــالكو هذا النبع إليه غالباً حينما يضعف الشريان الثانوي الذي كان يسقي أحد حقولهم.

---

[١] ذلكم حال الفرع الشمالي للوازعية: لجأ بنو عباكي إلى مني عفي (بالإضافة لرجل غريب مـــن منـــي خلف). و وعدوهم بنصف ماء النبع أي ما يساوي (٨) أيام ماء من أصل (١٦) (يلحق حصة للغريب يوم ماء) ثم أحدثوا اليوم السابع عشر لمكافأة الشيخ مرعي على جهوده.

[٢] على ما يبدو ، كانت الأوضاع مماثلة في معان عندما مر بها جوسين و سافينياك (المرجع السابق، ج ١ ، ص ٤٦٠)

٢- المســاحات المروية بنبع ثانوي لا تشكل كتلة كما يحــدث دون شــك، لو أن الماء و الأرض كانا مرتبطين[١]. لكنها موزعــة هــنا و هناك و مطوقة بمساحات يسقيها نبع الحمام. و الــذي يملك من جهة جزءاً من الماء الذي يأتيه من أحد الينابيع و يملــك مــن جهة أخرى قطعة أرض سهلة الاتصال بهذا الماء، يمكنه استجرار الماء إلى أرضه بكل سهولة و بساطة.

<u>توزيــع الماء:</u> باستثناء نبع الحمام الذي يجري دون انقطاع[٢]، يجمــع المــاء، هــذا السائل النفيس، في بركة مخصصة لكل نبع، تفتح صــباحاً و مســاءً[٣]. و المــاء المتجمع في البركة يسمى (السدّة) أي الماء المحجوز. حصة الماء في فصل الشتاء هي (يوم) أي كمية الماء المتجمع خلال يوم كامل. و في الصيف نصف يوم[٤].

النــبع الكبير الذي يجري بشكل طبيعي يوزع بالساعات. و من أجل تنظيم هذه القسمة، كان هناك حتى عهد قريب ساعة رملية في عهدة الخطيــب. توزيــع حصــص المــاء هو في الواقع من أحد أهم المهام و أخطــرها فــي الواحات. في الشتاء عندما يتوفر الماء بغزارة و حينما لا يرغبون السهر ليلاً لفتح أو إغلاق الأقنية، يجر الماء إلى إحدى البرك

---

[١] بهذا الشكل فقط يمكن الاستفادة من كامل مردود النبع

[٢] يأمل الناس بالحصول على المردود نفسه من نبع الوازعية بعد انتهاء الأعمال

[٣] المقارنــة مــع جوسين و سافينياك ، المرجع السابق، صفحة ٤٧٦. يتفق مالكو الينابيع الصــغيرة فيما بينهم على الانتظار حتى تمتلئ البركة. هكذا يفرغ مالكو الأزارق بركهم في الربيع كل (٤٨) ساعة فقط و يتأخر دور كل واحد منهم تبعاً لذلك.

[٤] على هذا يصبح للمشترك دوران بدلاً من واحد

(كـبركة التركـي و بركة معقا الخ .) حيث يوزع في الصباح ما تجمع مـنه. فـي هـذه الفترة من السنة يترك الماء غالباً يسيل في المستنقعات الممـتدة بيـن القرية و البساتين. و في فصل الصيف حصة الماء من نبع الحمام تنزل أيضاً إلى النصف فلا يتوفر لمالك ساعة من الماء إلا ثلاثون دقيقة.

أدوار حصـص الماء تبدو، لأول وهلة، متنوعة جداً: في الكوم[1] تتفاوت بين /٤/ إلى /٢٤/ يوماً شتاءً. أما بالنسبة للينابيع الصغيرة حيث يزرع بعض المالكين أرضهم بشكل مشترك فتلغى هذه الأدوار أحياناً[2]. و بـنفس الحين نلاحظ أن هناك توجهاً لتوحيد شكل أدوار الماء على أساس (١٦) يومـاً شتاءً و (٨) صيفاً أكان ذلك في السخنة أم في القرى التابعة لهـا علـى غرار ما هو معمول به في نبع الحمام[3]. ندرك هكذا بأن هذا الإجـراء يمـتاز بالتسـهيلات حيـنما تستطيع مختلف الينابيع أن تتصل ببعضـها و حيـنما تكـون الأرض معتادة على نظام معين[4]. هكذا وحّد

---

١ في مشاريع زراعية مستقلة عن بعضها

٢ مثلاً، في عين فياض و في القنا في الطيبة

٣ في السخنة : الحمام و عين محمد العمر و الجفيّر في طيبة : الجبيّب و نبعان من ينابيع عين زعاتا؛ في الكوم : النبع الرئيسي.

٤ إلـى درجة أنه حينما يحصل للدور أن يتكرر كل (٤) أو (٨) أيام. يفضل الاحتفاظ بالرقم (١٦). هكذا في الجفيّر، يخصص يومان لمالك و (١٤) لآخر على الرغم من أن التوزيع : ١/ ٧ أيـام أكثر مناسبة للأرض. بالنسبة للينابيع المعزولة يبدو أن تبني التقسيم إلى (١٦) يوماً هو من قبيل الروتين.

الـــتدامرة أدوارهـــم المائـــية علـــى أساس (٢١) يوماً على الرغم من أن وضعهم أكثر تعقيداً[1].

يـــتم تســـجيل نظـــام الينابـــيع في سرايا القريتين و بهذا يتمتع المـــالكون ببعض الضمانات. بالمقابل، في حال نشوب نزاع يمكن للقضاء السوري التدخل في خلافاتهم. و هذا ما حصل بالنسبة للوازعية.

عملـــياً، فـــي الوقـــت الراهن لم تعد تباع أرض مروية من نبع الحمـــام دون التنازل بنفس الحين عن حصة الماء المخصصة لها[2]. لا بد من الإشارة إلى أن الصفقات حول الأراضي تكاد تكون معدومة، و يكتفى الآن بوضـــعها تحت الرهن. و لكن تأجير كميات قليلة من الماء في حال الضـــرورة مـــا زال يعمـــل بـــه أحياناً. و بدلاً من أن ينفق المزارعون "بـــرغوتاً" يفضلون عموماً اختصار المساحة المبذورة فلا يحرثون قطعة الأرض إلا مرة كل عامين.

---

[1] حيـنما يضـــطرون إلـــى تعديـــل الدور بحيث يصبح كل (١٧) يوماً -كما سيحصل في الوازعـــية- فإنما يحصل ذلك لسبب غيرمتوقع. مثلاً : الاضطرار إلى دفع أتعاب لشخصية ذات مكانـــة. و فـــي تدمر أيضاً ، كان دور الماء قديماً (٢٠) ساعة اضطروا لإضافة (٢٤) ساعة إليها من أجل عائلة الزعماء.

[2] سابقاً، يمكن تقديرمُدّة عين محمد العمر بـــ (٢٠) ليرة ذهباً و ساعة الماء من النبع الكبير بـــ (١٥) ليرة ذهباً. انخفضت الأسعار اليوم بنسبة الثلثين.

تعــود ملكــية المـــاء إلى بضعة أغنياء، ربما لا يتجاوز عددهم ١٠% مــن إجمالي السكان[1]. وهذا الاحتكار يولد استياء لدى الفقراء على الــرغم مــن أنهــم يساهمون في هذا الوضع عن طريق رهن أراضيهم ليحصــلوا علــى بعــض القروض. و في قرى المناطق الصحراوية، إذا فرضــت الــنزاعات الاجتماعــية ذات يــوم تقســيم أملاك الأغنياء فإن "البروليــتاريا" ستطالب بتوزيع المياه و ليس الأرض التي تعتبر لا قيمة لها لوحدها.

الزراعات:

الأرض الســقي: فــي البساتين المسورة بجدران حيث توجد قبة صــغيرة مــن الطوب للناطور تنمو بعض الأشجار (تتم سقايتها بدءاً من شــهر شباط فقط). و أشجار النخيل هزيلة، لكن أشجار الزيتون و التين و المشمش و الرمان تزدهر أكثر منها[2]. تحت الأشجار أو بين الحقول غير المســورة يــنمو القمــح و الشعير شتاءً، أما في الصيف فتزرع الذرة و خضار عديدة كما هو الوضع في تدمر[3].

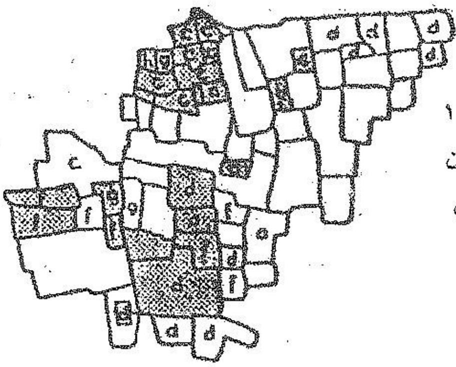
---

١ ما عدا أحمد العبد العزيز، المالكون الأساسيون للماء هم : خليف التيسان ، وهو أهمهم (يملك أربعة أيام في الحمام و ستة في عين محمد العمر الخ.) و الخطباء و الشيخ مرعي و يملك أقل من سابقيه بكثير.

تعود ملكية الحمام لـــ /١٥/ عائلة فقط .

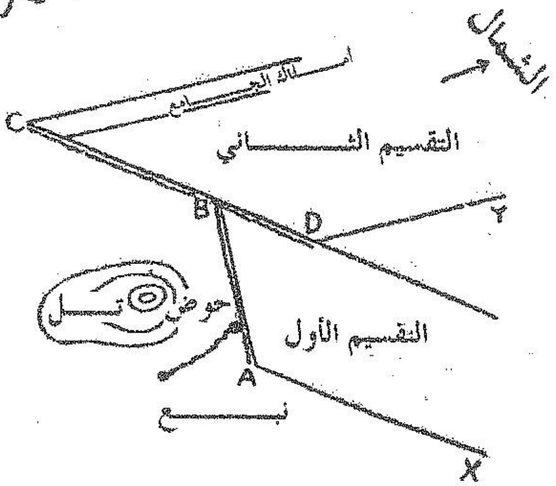
[2] راجع اللوحة ٩

[3] راج كانتينو ، المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٣



الشكل ١٢

توزع الملكيات في المنطقة الممثلة في الشكل ١١
a – مرازقة b – ملي عزام c – ملي عريان
d – ملي غليمة f – ملي عفي g – ملي
حبش h – ملي أحمد الحسين
الحقول بالأبيض و البساتين بالرمادي



الشكل ١٣

توزيع حديث في الكوم لأراضٍ حديثة الري (١٩٣٤)

قـام عشـرة مالكين لحصص متساوية بتفعيل جديد للنبع القديم و أوصلوا الماء إلى البركة . فيما بعد، حدث توزيعان متتاليان:

ـ الأول : استصـلح المجـرى A – B ثـم قسمت هذه القاعدة إلى /١٠/ أطوال متساوية . الحيز المروي يشكل إذاً عشر قطع متوازية غير محدودة من جهة الشمال الشرقي (الاتجاه A – X)

– الثاني : بمـا أن الماء كان غزيراً ، أعيدت نفس العملية بالنسبة للساقية C – D كقاعدة جديدة . فأضيف إلى الفرقاء العشرة المشتركين فريق آخر هو المسجد العتيد .

نلاحظ الاهتمام بالتساوي في التوزيع – البحث عن منفذ سهل و قريب إلى القرية لكل حقل – عدم وجود حدود عند الطرف البعيد عن التجمع السكني بحيث يحرث كل واحد إلى أقصى حد يستطيعه – و أخيراً شدة الشعور الديني.

على الرغم من أن الأرض موزعة في السخنة منذ زمن طويل، لا نلاحظ تجمعاً في الملكيات إلا قليلاً و لا أي أثر للتقسيم. فقد تغير المالكون كثيراً إذ أن ارتباط المرء بحقله ضعيف. في أسفل تل الكوم حيث اكتشف نبع جديد، يمكننا بالمقابل أن نلاحظ تقسيماً حديثاً من الأرض بشكل رقع متوازية بادئة من مكان التجمع السكاني و هو تقسيم يماثل تماماً ذلك التقسيم الذي لاحظه (م. لاترون) في القرى السورية[1] التي تسود فيها حياة مشتركة. و يبدو أن سكان السخنة تعلموا طرق الزراعة المتبعة في شمال سوريا من خلال الهجرات – في السفيرة بشكل خاص التي يتميز فيها مخططها المساحي بخصوصيته[2].

تجزأ الأرض المروية إلى مربعات صغيرة يبلغ ضلعها (٣) أو (٤) أمتار و تسمى (مسكبة). و تشكل كل /٤٠/ مسكبة ما يسمونه بالكدنة و تعادل تقريباً العمل خلال الفترة الصباحية [3]. و واقع الأمر أنه لا يمكن أن نطلب من أهالي السخنة مزيداً من الكدح [4]: من هنا تأتي سمعة أهالي السخنة كفلاحين كسالى ، حتى في نظر التدامرة. و هم يقرون بذلك دون أي إحراج أو خجل شأنهم في ذلك شأن البدو الرحل الذين انصاعوا حديثاً إلى نمط حياة الفلاحة فلا يزرعون إلا الحد الأدنى الضروري لمعيشتهم.

---

[1] راجع لاترون ، الحياة الريفية في سورية و لبنان ، فصل /٥/

[2] راجع لاترون ، المرجع السابق ، ملحق ٢

[3] الكدنة هو العمل الذي يقوم به ثور حراثة أو رجل. لاترون ، المرجع السابق ، فصل ١

٤ فما ينجزونه هو يوم عمل في بعض واحات الجزيرة العربية كما في خيبرمثلاً (دوغيتي، المرجع السابق، ج ٢، ص ١١٣).

و القليل منهم يعملون بأيديهم إذ يشترك خمسة أو ستة مالكين و ينفقون مع (مرابع) يدفعون له ربع المحصول. و ينتمي المرابعون إلى نفس العائلات تقريباً (غالباً، و ليس حصراً، ما يكونون من عداد المقيمين القدامى). لديهم معرفة كبيرة بالأرض و يسمون كل قطعة منها، مهما صغرت ، باسمها. كما أنهم يعرفون حق كل فرد في الماء. و هؤلاء العمال المزارعون ليسوا أكثر السكان بؤساً كما نميل إلى الاعتقاد في مجتمع مركب في غالبيته من الرحل. خليف النيسان و ذووه مرابعون و هم من أغنى أهالي السخنة. لا بد للقول أنهم يشكلون فئة متخصصة ، شبيهة بمزارعي تدمر و بعدة واحات في الجزيرة العربية[١]. و هم لا يشكلون هنا سوى أقلية صغيرة من السكان. و خلافاً لجيرانهم التدامرة الذين غالباً ما تقف حدودهم عند حدود البساتين ، فإن عددهم الضئيل لا يسمح لهم بنسيان الصحراء[٢].

الأراضي غير المروية (الأراضي البعل):

لا يمكن زراعة الأراضي البعل إلاّ إذا أمطرت السماء بغزارة. و هي تمتد حول الأراضي المروية و في الوديان ذات القعر المسطح التي تغذيها أمطار الشتاء أو في الروضات (مناطق تغمرها السيول التي تنتهي في السهل). و يساعد وضع السكان البائس على تطوير هذه

---

١ راجع دوغتي ، المرجع السابق، ج ٢ ، ص ٣٨٣.

٢ من هنا عدم وجود لهجة خاصة بهم. في تدمر أيضاً يتميز التجار و الجمالون بلهجة متأثرة بالبدو الذين يجاورونهم. المزارعون وحدهم يستخدمون اللغة (التي قام بدراستها كانتينو) و هم يشكلون الغالبية في البلدة.

الأراضــي البعلــية. و لم يكن لها أصلاً مالكون. فكل إنسان يحرث أينما يشاء و يحصد ما زرعت يداه (من الشعير و القمح فقط). علاوة على ذلك ، و حــتى فترة قريبة ، لم تكن مقاييس المساحة معروفة. و هذا ما يجعلنا نقترب من حياة البداوة[1].

القطعان

يملــك سكان السخنة حيوانات للنقل و أخرى للركوب –جمال و حمــير و حتى خيول[2] –و حيوانات حراثة– من الحمير حصراً و يملكون أيضاً الخراف و الماعز.

و قديمــاً كانــت كل القطعان تعهد إلى العمور[3] خوفاً من الذين يقومون بالغزوات. و ما زال بعض منها موجود حتى الآن لدى هؤلاء[4] و لكن نقص سهول الرعي في السنوات الأخيرة أضر بهم كثيراً [5].

---

[1] أدخلت الدولة استخدام "الذراع" و الدونم الذي يعادل (١٦٠٠) ذراع = ٩٠٩ م[2] و يعرف البعض الشفر و هو المساحة التي تبذر بملء قبضة بذّار و هو يرمي الحب في الهواء.

[2] ثلاثة: واحد لكل من الشيخ مرعي و أحمد العبيد و إبن تيسان

[3] يفضل تسليمها إلى الخرسان كما أن قطعان تدمر توكل إلى البوحربة

[4] من الماعز خصوصاً ؛ أغلب القطعان هي اليوم في أيدي آل السخنة أو رعاتهم.

[5] يعيد العموري الدواب إلى أصحابها في الربيع و إلاّ فعليه أن يسلمه الصوف مع رطل من السـمن عن كل نعجة و يحتفظ بالحليب. أجرته عموماً تبلغ نصف مجيدي عن كل رأس. و كان يرضى سابقاً بربع مجيدي و لكن شريطة أو يؤمن له عدة السقاية. يستلم المالك الخراف و يدفـع ما عليها من "عدد" إلى الدولة و في حال حدوث سرقة يذهب هو بالذات للبحث عن دوابه المختفية.

هنالك عادة أخرى عند العمور تقوم على أخذ نعجات صغيرة ثم إعادتها بعد ثلاثة أعوام بعد أن تلد. حتى ذلك الحين، يستفيدون من منتوجها. و يقال للنعاج في هذه الحال "عدايل".

و حينما أصبح الوضع في المنطقة أكثر أماناً قام أهل السخنة منذ عدة أعوام بتشغيل الرعاة (و هم إما من البؤساء أو من البدو أو من العمور) لقاء أجرة قدرها ليرة ذهب شهرياً. ثم أحلوا أولادهم محلهم من الآن فصاعداً. علاوة على ذلك، و منذ عام ١٩٢٧ تقريباً بدأوا يشترون خياماً من وبر الماعز من حلب و يبرود و بدأوا يرعون دوابهم قرب قراهم حتى بئر قديم. و هكذا أصبح لديهم في العام ١٩٢٩ قرابة ٣٠ خيمة . و عام ١٩٣٢ على أثر جائحة قضت على قسم كبير من القطعان، انخفض عدد الخيام إلى ١٥ أو ١٦ خيمة و إلى ١٢ خيمة عام ١٩٣٤ و يزيد هذا العدد بالتأكيد في سنوات الخير مثل ١٩٣٥.

تعيش النساء و الأولاد أيضاً تحت الخيام و لكنهم ما يبرحون يزورون السخنة. المرضى و النساء الحوامل (على وشك الوضع) يغادرون الخيام. و يتناوب الأخوة حراسة الحيوانات إذا كانت العائلة كثيرة العدد. و في فصل الشتاء حينما تصبح المراعي قريبة غالباً ما يعودون إلى بيوتهم.

و يكتفي أهالي السخنة صيفاً كالبدو ببيوت بسيطة صغيرة. و بالعكس، خلال فصل سيئ لا يترك الذين يبقون في السهب أية قطعة قماش في البلدة (الشقة) و ينصبون خيماً عادية ذات عمود أو عمودين[1].

لكن لا يمكننا تماماً أن نعتبر هؤلاء العائدين إلى حياة الرعاة

---

[1] لم يتجاوز أحد هذا الرقم حتى أكثر الشخصيات أهمية مثل ابن حمادة من مني عيبان أو علي السويف الذي كان يملك في عام ١٩٣٢ أكثر من ٤٠٠ نعجة.

أنصـــاف بدو . إذ من النادر جداً ، أن تتجمع عدة خيام[1]. و عادة ما تتناثر إلـــى خيمة أو خيمتين أو ثلاثة على أبعد تقدير في منعرج الوادي لتستفيد مـــن وجـــود حد أدنى من الكلأ. هكذا لا يقيم سكان السخنة خيامهم حسب تجمـــع العشـــائر، و تترافق العودة إلى حياة الترحال لديهم بتشرذم شبيه بحـــياة البدو الذين يستقرون. بينما يحدث خلاف ذلك لديهم في البلدة حيث يمـــيلون -كمـــا ســـبق و ذكـــرنا- للبقاء مجتمعين كما هو شأن أسلافهم الرعية.

نلمـــس التـــبدلات التـــي ســـببتها الأحـــداث القريبة. فالأزمة الاقتصـــادية جعلـــت أصحاب القوافل يتحولون إلى مربي قطعان بعد أن عـــانوا الأمرين فاضطروا إلى ممارسة إحدى المهن النادرة التي لا تزال ذات فـــائدة في الصحراء ؛ أما الأمن ، الذي يثبت في الأرض العديد من القبائل المنكوبة فإنه يدفع بهؤلاء السكان المستقرين المفقرين إلى الترحال طلـــباً للماء للكلأ. و بنفس الحين فإن هذه التبدلات العميقة في نمط الحياة من شأنها أن تفرق بين المجموعات المتأقلمة على نمط حياة أخرى.

و لكـــن يجـــب ألاّ يأتيـــن علـــى بال أحد بأننا هنا أمام ظاهرة اســـتثنائية جداً. في سوريا منذ أن استتب الأمن في الصحراء، انفتح باب

---

[1] يلـــزم ذلـــك أن تكـــون الخضـــرة متوفرة بشكل استثنائي أو أن يشح الماء. في الصيف خصوصـــاً. منذ أن حفر بئر الحليحلة على بعد (٢٠) كم جنوب غرب السخنة، يتجمع غالباً خيام أهل السخنة و نلاحظ فيها أشغالاً صغيرة من طين (مواقد – معالف – تنور – بيت مونة ...إلـــخ) و هـــي من ذكرى حياة الحضر المستقرين في وسط السهب. و هذه كلها تدل على أولئك الذين نجدهم على أطراف المنطقة المزروعة لدى البدو الذين يحاولون الاستقرار.

تربية القطعان أمام الفلاحين ، وعديدون هم الرعاة المنحدرون من قرى قديمة و الذين يقيمون تحت الخيام. و لكننا لسنا هنا في الحقيقة إلا أمام حالات منفردة مهما كانت مألوفة و متكررة. كما نلاحظ لها مثلاً في مراعي الجبال في فرنسا. منذ زمن طويل اعتاد حضر الحجاز على هجرات خلال فصل الربيع حيث يشرفون بأنفسهم على رعي ماعزهم (و يعهدون بها إلى الأعراب[1] في الفصول الأخرى من السنة). و في الضفة الغربية و في فترات مختلفة (متعددة) جداً، هنالك العديد من المزارعين الذين تحولوا بشكل مؤقت إلى حياة البداوة. و في أيامنا هذه ما زال قرويون و حتى مدنيون يخيمون غالباً خلال عدة أشهر في العام[2]. يبدو أننا هنا أمام نفس الظاهرة القائمة في السخنة – وهي ظاهرة أكثر حدة لأننا تجاه تجمعات ثابتة ترسخت في الأرض منذ زمن طويل جداً– إنها حال أناس سدت في وجههم سبل العيش الأخرى فلجأوا إلى حياة الرعاة. وعلى الرغم من جاذبية حياة البدو فإنها لا تستثير حماسة أولئك الذين يضطرون لعيشها عن عوز.

المهن

آ- مهن المدينة

تلعب بعض المهن دوراً هاماً في اقتصاد السخنة الداخلي. و ليست أقلها مهن النساء اللواتي يلبين تقريباً كافة متطلبات الحياة البيتية و

[1] هتيم . راجع دوغتي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٠١

[2] و حتى إن هناك عرباً مسيحيين .

هن بذلك أقرب إلى البدويات منهن إلى الحضريات. و يشكل منتوج عمل النساء الذي يباع إلى الخارج أحياناً دخلاً لا بأس به لبيوتهن.

مهن النساء

تغـزل النســاء صــوف الخروف و وبر الجمل و شعر الماعز المــأخوذة مــن قطعانهــنّ أو المشــتراة مــن القبائل[1]. سجاد السخنة ذو الوبر الناعم الصقيل يحظى بالتقدير بشكل خاص. و نصادف نفس الرسوم و الألــوان تقريــباً المشــغولة في تدمر باستثناء البقع البنيّة التي نشاهدها بســبب كثرة استخدام وبر الجمال. و لكن الحبكة أقوى بكثير و على هذا يصبح البساط أثقل وزناً فيباع أيضاً بسعر أغلى بكثير.

أكــثر النســاء مهارة يطرزن بالإبرة و هن يجدن صنع القرب كالــبدويات و كثيرات منهن يصنعن القِرَب. و لا بد من أن نذكّر بعملهن كبنّاءات كما أوردنا سابقاً.

الحرفيون

يقــوم بعض الحرفيين بالأعمال التي لا يمكن للنساء الاضطلاع بها و بهذا يكملون تلبية مستلزمات مواطنيهم. يستقدمون المواد الأولية من

---

[1] و لا يصنعن ما يسمى بالــ (فردة) و هي خُرج لنقل الحوائج يوضع على ظهر البعير كما تفعل نساء البدو الرحل. لكنهن ينسجن البساط و المخدات و العبايات و الأغطية (الشف) و أغلفة الحدايج أو برادع الحمير -فلا يبقى للرجال إلاّ أن يملؤوها بالتبن - و يصنعن الأرسان أو الأربطة المسطحة (السفايف).

المديـنة و يصـرّفون جزءاً من منتوجاتهم في الصحراء و بهذه المناسبة يقومون ببعض الجولات في المضارب المجاورة. و لا ينتمون إلاّ ى طبقة اجتماعية دنيا على خلاف أمثالهم في الجزيرة العربية.[1]

لا تعـرف السـخنة صـناعة النحاس و لكننا نجد فيها حدادين (صـنّاع) يركـبون حوافـر للخيل و خصوصاً للحمير، ومبيضين الذين يصلحون القدور و النجارين الذين يصنعون الأبواب و الصناديق الخشبية (علـب) و يصلحون أعمدة الخيام و السروج (البرادع)[2] و لا يصنعون فـي السـخنة عدة سروج الخيول و الجمال و لكنهم يعرفون جميعاً حشو البردعة و سرج الحمير. تستخدم البرادع للقوافل أو للبيع . لكن البدو في سوريا أصبحوا يلجؤون أكثر فأكثر إلى المدن لتأمين لوازمهم.

يشـاهد في السخنة سطوح كثيرة تعلوها تلك الهوادج التي يسافر فـيها البدو على الجمال. و لا يتم صنعها في المدينة و إنما في القبائل[3]. و المـالك الذي لا يحتاج إليها يتركها أمانة لدى أحد معارفه من السخنة. و إذا اضـطرته الظـروف إلـى اسـتخدامها مـن جديد فتجار السوق هنا موجـودون و جاهـزون لتأمين كافة الملحقات (من جلد و قماش و زينة إلخ.) الضرورية لإعادتها صالحة من جديد.

ركّب رجل من مني خلف من الدير طاحونة تعمل على

---

[1] راجع دوغتي ، المرجع السابق، ج ٢ ، ص ٤٠١ ؛ مونتاني، المرجع السابق، ص ٧٧

[2] لا يصنعونها و إنما يجلبونها من حلب

[3] و يصنعها أيضاً نجار من دير الزور

المحــرك[1]. و يمكن لعائلة أن تطحن بــ ٣ مجيديات (١٢ فرنكاً في عام ١٩٣٥) قــنطاراً مــن الحب (٢٥٠ كغ تقريباً) و هكذا بدأوا بالتخلّي عن الطواحين اليدوية.

أصحاب الدكاكين

توجـد بعض الدكاكين في السخنة. و هي تملأ الشارع الرئيسي أو شارع حارة القلعة. و كثير منها أقيمت قرب الكراج[2].

و حيـنما يخيم البدو قرب البلدة يأتون للقيام ببعض المشتريات. لكــن التجارة شبه مشلولة في هذه الأيام، علماً بأنها لم تكن دائماً كما هي علــيه الآن. و هذه حال تدمر –مع الاحتفاظ بالنسب– و لكن الجميع يذكر ازدهار سوقها منذ (٤٠) عاماً[3].

زد علــى ذلك أن الجميع يعرف أهمية هذه الأسواق في واحات الجزيرة العربية[4]. في الوقت الراهن، السلام و العلاقات الجيدة مع الدولة

---

[1] بالاشتراك مع ممول من تلك المدينة و قد حل محله في الوقت الحاضر. يعمل فيها الآن اثنان من الدير

[2] أغلب أصحاب الدكاكين من مني خلف و مني مقيبل و خصوصاً من مني عيبان. هنالك دكانان للمرازقة و واحدة لمني عفي. يضاف إليهم حلبي مقيم منذ زمن في السخنة و تزوج بامرأة من المرازقة. و هنالك حمصي و دمشقيان و ثلاثة رجال وصلوا مؤخراً من حماة.

٣ راجع تقرير حنا جبور الذي يستشهد به غالباً م. كانتينو

٤ راجع دوغتي حول موضوع حايل (المرجع السابق، ج ٢ ، ص ٤٩)

تجعــل الــبدو يقضــون الصيف في المعمورة[1] و يستفيدون من التجارة مباشرة مع المدن السورية على حساب المناظر.

و سوف نرى فيما بعد أن أهل السخنة لا يسمحون لهم بذلك مجاناً.

ب- المهن الممارسة في الخارج

جزازو القطعان

حينما يصيب الجرب الحيوانات، يذهب أهالي السخنة في الربيع لجــز جمال البدو أو نتف وبرها. و يمكن للجزاز أي (القاصوص) كسب لــيرة أو ليرتي ذهب في جولته إذا ما عالج ٥ حيوانات تقريباً يومياً على أســاس ٠,٢٥ مجيدي لكل رأس. و يحق له إضافة لذلك نصف الوبر. و بعد الجز (أو النتف) يدهن الحيوان الجَرِب بالقطران الذي يؤمنه المالك و الذي يشتريه غالباً من تاجر من السخنة.

حفّارو الآبار

يعمــل السّخانة الفقراء أيضاً في حفر الآبار (الجب) لبني بلدتهم أحــياناً[2] و للعــربان (البدو) أحياناً أخرى[1] و لكن هؤلاء ليسوا مختصين

---

[1] منطقة يقطن فيها قسم كبير من الرحل الذين استقروا في محافظات حماة و حمص و حلب.

[2] أرادو مؤخراً إصلاح قناة قصر الحير و لكن التنافس بين الشيخ أحمد و الشيخ مرعي أجبرتهم على التخلي عن الفكرة.

(محترفين) و لا يعرفون استخدام المتفجرات. في العام ١٩٣٥، تبلغ أجرة حافر الآبار ١,٢٥ مجيدي في اليوم.

صيادو الباز

يعمل البعض على استخراج طيور الباز من جحورها لزعماء البدو. هذه الصناعة، الذائعة الصيت في الضمير و القريتين[2]، كان لها في السخنة أتباع قليلون على الرغم من التحفظات ضدها لاعتبارات دينية.

يروى أن محمد العبيّد ،من أهالي السخنة البائسين الدراويش، كان يلتقط صغار صقور من جبل ضاحك و يترك عادة فرخاً واحداً دائماً في العش[3]. في أحد الأعوام، كان البؤس على أشده و الصقور تباع غالياً جداً ، قام صاحبنا بأخذ كل ما في العش. و عندما هبطت أم الفراخ على العش و لم ترَ صغارها، اكتشفت عن بعد رجلاً يمتطي حماره و يسير نحو السخنة. فطارت نحوه و قبالة بئر مني عفي انقضت عليه و ضربته على عنقه فقتلته.

---

[1] هكذا أعادوا إحياء مراكز ماء قديمة في جنيم و العسيجة و حسية. و في بير لبدة في الجبل. و حفروا بئراً جديدة في بير جديد و استخرجوا حديثاً الماء في الكوم.

[2] يضع صيادو الباز من القريتين علامتهم تحت العش الذي يكتشفونه و بالتالي تعتبرصغاره ملكاً لهم. و يخفون شيئاً قرب العش للبرهان على أنهم هم الذين اكتشفوا العش في حال نشوب خلاف. و هكذا يقوم منافسوهم غير الشريفين قبل تغيير العلامة بالبحث و التفتيش في جوار المكان لاكتشاف (الشيء) الشاهد.

٣ هذه القاعدة موجودة في التاريخ العبري القديم (راجع لودز، المرجع السابق، ص ٢٤٦)

انقرضـــت عائلة محمد اليوم. و لكن على الرغم من هذا الدرس مـــا زال البعض يذهبون أيضاً إلى جبل ضاحك حيث يكثر الصقر الأسود المســـمى (بحــري). لا بد أن نذكر بأن هؤلاء الصيادين كلهم تقريباً من الحداديـــن أو مـــن المبيضـــين[1] و هم أناس تجعلهم مهنتهم متساهلين فيما يخص سمعتهم.

حيـــنما لا تؤخـــذ أفـــراخ الصقور من أعشاشها[2]، يتم اصطياد الصقر البالغ بطعم موضوع على شبكة يَعلَق الطير المصطاد بخيوطها.

يصل ثمن بعض الصقور إلى (٢٠) ليرة ذهباً و لكن أسعار هذه الطيور متفاوتة مع أنها مأخوذة من نفس العش. فمن البيوض الخمس التي نجدهـــا فـــي العـــش، الفـــرخ الأول هو أكثرها أهمية و يأتي بعده الثاني المسمى بالـــ "الذيذ" ثم الثالث و يسمى المهجور. أما باقي الأفراخ فلا قيمة لهـــا. تباع الصقور فتية جداً و لا يحتفظ أبداً في السخنة بصقر كبير بالغ (قرناص) .

٤- منتجات الصحراء

<u>عشـــب الصابون</u> : سبق أن ذكرنا بأن ضريبة البوتاس ظلت لمـــدة طويلـــة الرسم الوحيد الذي يجبيه زعيم القرية و من المسلم به أن القلـــي كان حينذاك من أحد أهم موارد السخنة و كافة منطقة تدمر. و ما

---

[1] باستثناء بعض الأشخاص أمثال سويدان الطلال المقيم حالياً في الحسو

[2] عـــندما لا يطال العش يرسل إليه من فوق الصخرة شاباً (يافعاً) معلقاً بحبل و تسمى هذه الطريقة (اللولحة).

يــزال جمعــه من الاهتمامات الكبرى للسكان على الرغم من أن منافسة الصابون المستورد من أوربا يجعله أقل ربحاً.

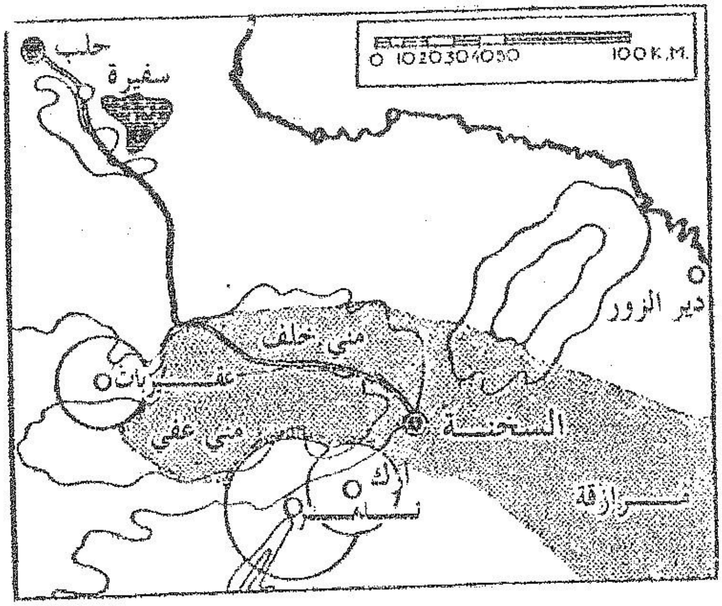
مــنذ زمــن طويل شكلت هذه المادة تجارة رائجة جداً و كانت معامل الصابون في مرسيليا توليه أكبر الاهتمام[1].

حيــنما يحـل الصيف يقوم الشباب بمجموعات صغيرة ممتطين الحمير و مزودين بقربة ماء و مؤونة لمدة أسبوعين، يأخذ كل واحد منهم فأســاً (قدوم) و ينزعون به الشنان ذو الأوراق الأنبوبية الشكل. و إذا زاد الطلــب علــيهم يضــيفون إلى الشنان أحياناً بنسبة جيدة جذع الجذرف و الــدّواد و هي نباتات أقل قيمة. و عندما يتم حصد كمية كبيرة من عشب الصــابون، يحفــرون حفــرة و يجمعــون فــيها حصيلتهم مع قليل من المحــروقات (جذور النباتات الليفية الموجودة في المكان) ثم يشعلونها في فــترة العصــر. و هكذا يتم تحضير عدة مواقد مسبقاً ليتم إشعالها في آن واحــد. و نشاهد حينئذٍ ألسنة من الدخان ترتفع وسط السهب. في صبيحة الــيوم التالــي يتم تبريد الرماد و يحصلون من جراء هذا الاحتراق على القلي[2] و يسمى (السكن)

---

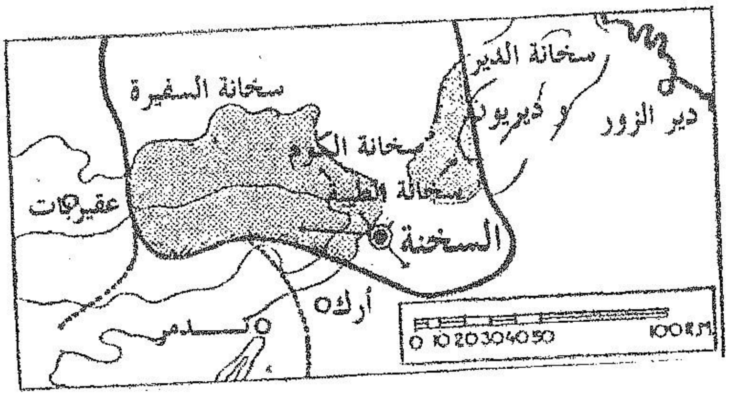
[1] إلى جانب المحصول السوري الذي يتجه خصوصاً نحو حلب. فمحصول جنوب فلسطين كان يجلب الازدهار إلى غزة في نهاية القرن (١٨) (راجع فولني، المرجع السابق، ج ١، ص ٢١٦). أما بالنسبة لمعامل الصابون في إنطاكية فإن تاريخها يعود إلى القرن (١٩) (راجع فولرس، المرجع السابق، ص ٦٦)

[2] يقــال له القلو عند العرب و "عاد" في نجد . يصفه نيبهور (المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٩ كما يلي: "نبات قبيح الشكل يشبه السرمق يحتوي كمية كبيرة من ملح قلوي مفيد جداً في تبييض الثياب".



الشكل ١٤

المناطق التي يستثمر فيها السخانة عشبة الصابون



الشكل ١٥

خريطة مناطق استثمار البطم أو الفستق البري

ينتشر أهالي السخنة في المنطقة المظللة بالرمادي من أجل هذا العمل

الحفـرة المحدثة في الأرض و المغطاة بحزمة من العشب يقال لهـا (الـراموش) و يجـدون فيها كتلة كبيرة من القلي شبيهة بالحجر و تسـمى "حجـر" و حصـى أصـغر حجماً تسمى "زرد" . و أحياناً تشعل كومـات صـغيرة لمـدة أقصـر على سطح الأرض و تسمى "كفّين" و خلاصـتها نـوع من الطين يسمى "حل"[1]. يباع مسحوق البوتاس (زهرة ناعمـة[2]) في دير الزور حيث تستخدم مباشرة كصابون و هي من النوع الجيد و تطلب كثيراً في السوق.

قديماً حينما كانت الطلبات على القلي كثيرة، كان سكان المناظر يفضـلون حصـد العشب، على ما يبدو، داخل الحدود التي رسمتها دائرة المسـاحة التركـية أي على أطراف مناطق قراهم[3] . و لكن ، خارج هذا الـنطاق، كـان هناك و ما يزال، مناطق لها أفضلية خاصة. يعتبر أهل السخنة الجزء الأكبر من الضلعان أرضاً لهم، و باستثناء المرازقة الذين يرتادون خصوصا وادي عويرض و وادي سريم في الجنوب ، كل باقي العشـائر التي تعمل في البوتاس تقوم بعملها في الجبال و أحياناً قريباً جداً مـن تدمـر أو عقـيربات دون أن يجرؤ المقيمون في هذه الأمكنة على منافسـتهم. هكذا يستثمر مني خلف خصوصاً منطقة جديّم، و يستثمر أبو فياض و أبو النيتل و مني عفي جبل الصعر و جبل الصيفي. و قد توصل

[1] نسبة سعر البوتاس بين حجر و زرد و حل هي : ٣/٢/١

[2] يتم الحصول عليها بتجفيف النبتة دون حرق

٣ منحت دائرة المساحة هذه أراضٍ شاسعة لكل بلدة

هــؤلاء إلـــى جعل الحكومة العثمانية تتنازل لهم عن الوادي الذي يحمل اسمهم في أعلى وادي حسية[1].

زيـــت التربنتين : باستثناء اثنين أو ثلاثة من الأغنياء، يعمل أهالـــي الســـخنة كافـــة بجمع ثمرة التريبنتين (أو الفستق البري) المسماة (البطم)[2]. و يدعون بأنهم يجمعونها في كل مكان تنبت فيه هذه الشجرة[3]. مـــع ذلـــك فمنطقة القطاف المألوفة لديهم تبدو واقعة بشكل خاص غربي بلدتهم و شرقي جبل الصيفي[4]

تعتـــبر صناعة زيت البطم أهم الأحداث السنوية في القرية. و لا تختلف عن عملية عصر العنب و الزيتون في جنوب فرنسا.

---

١ يشير موسيل أيضاً (منطقة تدمر ص ١٥٣) إلى سلسلة هضاب شمال بير قديم تحت اسم "العفويجات"

[2] بعـــض المســـتقرين فـــي المعمـــورة، أهل الزور و العمور يفعلون ذلك أيضاً لكن هؤلاء الأخيرين يكتفون ببيع محصولهم إلى أهل السخنة و تدمر.

[3] نلتقـــي بـــأهل الزور في جبل البشري . جالية أهالي السخنة في الدير ليست قليلة . يقصد الـــتدامرة السفوح الجنوبية للضلعان، و أهل أرك تصل الأطراف الشمالية و الشمالية الشرقية لبيوتهم حتى جبل سطيح. و البلعاس هو مكان إقامة حضر عقيربات و المعمورة. كل الإطار الشمالي للضلعان تعمل به جاليات من عمال أهل السخنة. في الشرق هنالك عمال من الطيبة و الكوم و في الغرب عمال السفيرة.

[4] لم نسمع بأي ادعاء بملكيةأرض مزروعة بأشجار الفستق ، كل ما هنالك أن بعض العوائل أو القرى تفضل أرضاً على أرض. و حتى على المستوى الفردي، يمكن أن يفضل شخص ما منطقة دون غيرها.

يذهب الناس ممتطين حماراً أو بعيراً و يجنون عناقيد البطمة الثمينة بواسطة عصا معقوفة (مشعاب)، ثم تجمع في (مزود) (و يسمونه شلاّج في تدمر) يحملونه معلقاً في رقبتهم و تبقى فوهته مفتوحة بواسطة غصن محني بشكل دائري[1].

يجفف محصول الموسم على السطوح في السخنة و يذرّونه بواسطة أواني قليلة الارتفاع (علبة) لإزالة القش ثم توضع في الماء فتطفو الحبوب السيئة التي تجمع و تعطى علفاً للدواب، أما الجيدة فتجفف و تنزع قشرتها في طاحون حجرية (رحا)[2] فتصبح شبيهة بالسميد تعجنه عدة نساء في وعاء كبير يسكب عليه من حين إلى آخر ماء غالٍ و هكذا تخرج الحرارة الزيت. و يحفظون العجينة في ققف يسمونها "مقصورة" (في تدمر يقال لها مكبوسة) كانوا قد صنعوها من سعف النخيل (خوص). و فوق حوض من الحجر أو الجبصين (جص) يشكلون بواسطة الأخشاب حاجزاً مفرغاً و يضعون داخله المقصورة فيأتي رجل قوي البنية و يدوسها برجليه فيسيل الزيت. بعد عمل الرجل يأتي دور الحجرة الثقيلة (المعصرة) التي تنهي عملية العصر. و يجفف الثقل و يعطى طعاماً للدواب. أما السائل المحفوظ في الحوض (الجورة) فيوضع في جرار

---

١ قارن مع كانتينو ، المرجع السابق، ج ٢ ، ص ٤٣

٢ هذه الطاحونة التي تشترى من المدن مؤلفة من حجرين مسطحين دائريين . يتم تدوير الحجر الأعلى بواسطة قبضة حول محور من حديد . تقوم امرأتان بهذا العمل و هما جالستان القرفصاء الواحدة مقابل الأخرى و هما تغنيان غالباً.

مسدودة بحجرة و بقليل من الطين. و تُحفظ هكذا مدة عامين أوثلاثة[1].

يجري بيع زيت البطم بسهولة في القبائل و في المدن السورية و لكن لا يصدر منه إلاّ القليل[2]. على الرغم من مراره فإنه مرغوب جداً في الأطعمة (أحياناً تؤكل حبوب البطم نيئة).

الخشب

كان أهالي دير الزور قديماً يحرقون الطرفة و البرطاع و بدأت هــذه الأشــجار تختفــي[3]. و لذا ، منذ عام ١٩٣٠، صار أهالي السخنة يبيعونهم البطم[4]. و بما أن هذه التجارة ممنوعة ، يخزّن الخشب في مكان آمن: باحة الطاحون.

---

١ هذا الزيت الذي كان يباع بسعر نصف مجيدي للرطل وصل في عام ١٩٣٥ إلى ١٠ فرنكات.

٢ وحدة كيل الزيت "القدح" (أو الكتح في تدمر) معروفة في السخنة باسم أكثر بداوة ألا و هو "الطاسة" و تعادل ثلث الرطل.

٣ بخصوص اختفاء الأشجار، راجع موئلر، المرجع السابق، ص ١٢

٤ يبـيع التدامرة منه في مدينتهم. و يجني العمور بعض الفائدة من مهنة التحطيب، و أهالي القريتيــن لا يقصدون البحث عن الحطب "ما يحطبون". و على العكس، فأهالي عقيربات و بري و سلمية يقرمون بحملات منظمة لقطع الخشب في البلعاس على الرغم من وجود الدرك و حراس الغابات. في هذه المنطقة تعتبر مهنة جيدة تدر (٢٠) فرنكاً في اليوم على ما يبدو. و لكن الربح في السخنة أقل لأن التصريف إلى دير الزور بعيد و لأنه لا يمكن استخدام الطنابر التي تتحمل ٣ قناطير (٧٥٠) كغ و إنما الجمال ذات البرادع التي لا تستطيع أن تحمل أكثر مــن قنطار واحد. و الحمولة التي يبلغ ثمنها (١٠) فرنكات في السخنة تباع في الدير بثلاثين أو أربعين فرنكاً.

الفحم الخشبي

لا يجيد اهالي تدمر و إرك صناعة فحم الحطب. هذه المهنة لا تلقى في الصحراء سمعة جيدة[1]، و يعود ذلك دون شك، إلى الدور الذي يلعبه الفحم في تصنيع الحديد. و بالعكس فإن سكان العقيربات و مني خلف من برّي هم صناع فحم مهرة. و قد علّم هؤلاء الأخيرون مهنتهم إلى أحد أقاربهم في السخنة. هذه المهنة ليست سيئة و إنما رجال الشرطة يجعلونها خطرة. هذا الفحام كان الوحيد في المدينة عام ١٩٣٢ (ربما أصبح له الآن بعض التلاميذ) و كان يبني أفرانه في ثنايا "قليلات" الجبلية و جبل سطيح و يصرّف فحمه في دير الزور.

نباتات أخرى

تستثمر الكمأة[2] في السنوات التي تنمو فيها. و الكمأة البيضاء تسمى (زبيدي) و الحمراء تسمى (جباة) . كل هذه الأنواع تنمو في نفس الأمكنة و بعد هطول أمطار غزيرة جداً[3] في شهر تشرين الثاني. العمور و البدو يعملون أيضاً في جمعها حينما يرزقهم الله بها. تصدّر الكما إلى المدن. و في الربيع يتبارى الباحثون عنها لأن الدفعات الأولى التي تصل إلى السوق تباع غالياً جداً[4].

---

١ راجع لاندبرغ : لغة البدو العنزة، تاريخ الحثربي ، ص ٣١

٢ تسمى "فقع" لدى البدو

٣ و تسمى "ثراوي" أي الثريا

٤ سعر الرطل حينها كان خمسة فرنكات أو أكثر و فيما بعد أصبح فرنكاً واحداً.

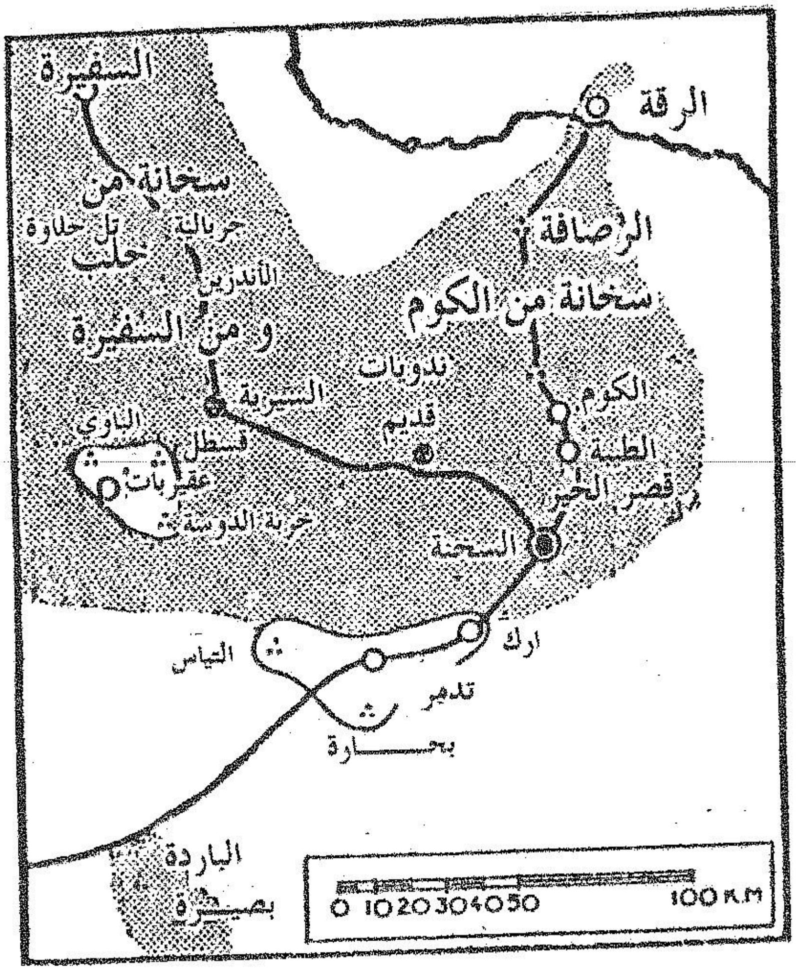
منذ عشر سنوات كانوا ما زالوا يجمعون في دير الزور و ضواحي الكوم عرق السوس. و يشتريه تاجر مسيحي من حلب على أساس قرشين للرطل و ينقله الجمالون إلى مرفأ بيلان أي مرفأ الإسكندرون حيث يبحر به إلى بلاد بعيدة. و لكن هذه التجارة انقرضت الآن من سوء الحظ.

لغاية عام ١٩٢٥ كانوا يذهبون إلى منطقة الجزيرة السورية قرب آبار ثريا الغارة و ثريا الملح لاقتلاع جذور "السريّس" و هو صمغ يباع في المدن. بعد أن يجفف و يهرس و يُغلى في الماء ينتج مادة لاصقة.

الملح و ملح البارود

أصبحت صناعة استخراج الملح قليلة جداً بالنسبة لما كانت عليه سابقاً حينما كانت تجارته حرة. مع ذلك، في الكوم، و بعد الأمطار الغزيرة، يستجمّ الماء في قعر البرك الصغيرة، و بعد أن يتبخر، تجمع كمية لا بأس بهامن الملح. يُستخدم للاستهلاك المحلي و يحاولون تصريف بعض الحمولات منه إلى الخارج إذا تمكنوا من الإفلات من مُخبري "مدير الملح" في تدمر.

في بعض مغاور منطقة تدمر نجد ملح البارود . و كان أهالي السخنة يبحثون عنه قديماً و يبيعونه إلى البدو لصنع البارود. منذ أربعين عاماً، تغلب أهالي عقيربات عليهم في هذه الصناعة فتركوها نهائياً.



الشكل ١٦

استثمار اللقى القديمة (منطقة تنقيب

أهالي السخنة مظللة بالرمادي)

اللقى القديمة

كثـير من السوريين من أهالي الزور و المناظر كرسوا أنفسهم للبحـث عـن الآثـار (أنتيكات) و لكن أهالي السخنة تفوقوا على غيرهم بمعرفة (الشمبل) و قد عرفوا تنظيماً تجارياً قوياً عن طريق أخوة لهم في المدن. و لهذا فهم مشهورون جداً باستثمارهم المنظم للبحث عن الثروات الأثرية في الصحراء[1].

للمنقبيـن عـن الآثار أماكنهم المفضلة[2]: لم يكتفِ أهالي السخنة المقـيمون في حلب و السفيرة باستثمار التنقيبات في القرباطية و الاندرين و تـل حلاوة التي استخدموا فيها أكثر من (٣٠٠) رجل، فنافسوا التدامرة مـنذ بضـعة أعـوام في العقيربات في البلعاس و حول القسطل و تفوقوا علـيهم. و قـد وصلوا حتى الباردة و البصيرة (موقعان غنيان في شرق

---

[1] قـارن بروسو (المرجع السابق، ص٦٩) القائل : "آثار بابل أصبحت بشكل من الأشكال وسيلة رزق للعرب. غالباً ما يتوصل هؤلاء عن طريق حفر الأرض، إلى إيجاد ميداليات من برونـز و من الفضة و حتى من الذهب كما يجدون أشياء مختلفة ذات أسعار جيدة. و حتى إنهم يعرفون كيف يستفيدون من الطوب الذي ينقلونه إلى بغداد في مراكبهم و يبيعونه بسعر مجز".

[2] لا ينقب التدامرة عن آثار خارج مدينتهم لأن فيها ما يكفيهم. و يغامر البعض بالذهاب إلى بحارة أو جبل تياس استثنائياً. و يعمل أهالي إرك في أرضهم أو في تدمر. أهل عقيربات هم المنقبون الوحيدون الذين يعادلون أهالي السخنة بكفاءتهم و نشاطهم. و قد نقبوا في الباوي و القسـطل و خـربة الدوسـة و في الشيخ هلال بشكل خاص. إضافة إلى التنقيب في قريتهم بالذات.

القريتيــن). و هم يتعاونون مع أخوة لهم في الرقة الذين يكادون يكرسون كل نشاطهم للبحث عن الآثار في هذه المدينة.

أمّـا سـكان السخنة بالذات فقد عملوا قرب بلدتهم[1] و كذلك في الطيـبة و الكوم و قصر الحير و التدويات و جديّم إلخ........ و ندين لهم بما قاموا به من تنقيبات نشيطة و مثمرة في الرصافة.

يـبدو أن الحلبـي رشيد الطيار كان يؤمّن تصريف اللقى، كما يصـرف القلي، ليس فقط لأهالي السخنة فحسب –و هم من أكبر و أهم المنتجيـن – وإنمـا أيضاً لكافة المنقبين. و يمكننا القول إن أهالي السخنة يمارسون شيئاً من الاحتكار على هذا المنتوج كما على كثير من منتوجات الصـحراء. و قد عرفت هذه الصناعة بعد الحرب نشاطاً كبيراً. و عديدة كانـت الطلبات على الآثار في السوق في سوريا حيث كان يتوافد السواح و علمـاء الآثار. لكن و لسوء الحظ، أتت القوانين الصارمة الصادرة عن مصـلحة الآثـار و مراقبة قوى الصحراء (الهجانة) و الشرطة في المدن لتقضـي علـى هـذا الدخل الذي كان على وشك أن يصبح أهم دخل في السخنة بعد انخفاض أهمية البوتاس.

الجلود

لا يمكن التقليل من أهمية الطرائد المتوفرة جداً في منطقة تدمر. يقوم بعض سكان السخنة بالصيد للحصول على الجلود أكثر من الحصول

---

١ السفوح الدنيا لجبل "الشيخ واصل" مغطاة بالمقابر القديمة و قد تم كشفها بشكل دقيق و كذلك الخرائب الموجودة غرب الوازعية.

على اللحم و هو وجبة قلّما تقدم (استثنائية) و هنالك بالإضافة إلى ذلك في المنطقة صياد محترف يسمى سيكماني أو بواردي[1].

بعــد تجفــيف الجلود و تمليحها تنقل إلى المدن في سوريا عن طريق سائقي السيارات عموماً.

العظام

العظــام، و خاصـــة عظام هياكل الجمال المرمية على جوانب الطرقات ذات دخل مفيد و تباع في المدن حيث تصنع منها الأمشاط وفحم العظام و الغراء.

---

[1] يســتخدم الصيادون مع البنادق كلاب السلوقي للأرنب البري و للثعلب و حتى للغزال كما يســتخدمون الكلاب الوجارة (البوجي) للثعلب و الشيهم إلخ........ إضافة إلى مجموعة من الأفخــاخ و المعــاول و أسياخ الحديد بطول مترين و تسمى "حديدة" يدخلونها في الوكر. و يعرفون أيضاً تدخين الحيوانات (إخراج الحيوانات بواسطة الدخان). و يقال إن البعض منهم لا يمكن أن يرى ثعلباً إلا و يعود بجثته.

٥- الجمالون و التجار

مـــا كان للتجارة في القبيلة أن تكون ما هي عليه و تلعب دورها في حياة السخنة لولا توفر عدد كبير من الجمال ذات البرادع. في السابق، كـــان موسم الحج و القوافل الكبيرة المتجهة إلى حلب من أجل نقل القلي، مصدر ازدهار كبير لجمّالي القرية. أما حالياً فهناك تراجع متسارع بسبب منافسة السيارات الظافرة.

التجارة لدى القبائل

رجال القوافل و الباعة أصحاب الدكاكين و بشكل خاص أقاربهم الشبان الفقراء يمارسون التجارة لدى القبائل. و كثير من الباعة المتجولين الذيـــن نصادفهم في منطقة تدمر هم من أهل السخنة[1] كما يعلم الجميع. و النقالون على البغال (البغّالون) – و يسميهم البدو "حوج" – يتجولون على حمـــار أو حماريـــن إلى أبعد أقاصي السهب. و خلافاً لكثير من الجماليين الذين لا يسيرون إلا على الطريق الرئيسي، يعرف أهل السخنة صحرائهم بعمق كما يعرفون التسميات البدوية للمواقع[2].

---

١ لدرجة أن البدو يطلقون اسم "سخني" على أي تاجر يرتاد مضاربهم.

٢ على الرغم من استخدامهم للكثير من المواقع تسميات مختلفة. خلافاً لما لاحظه دوغيتي في الجزيـــرة العربية(المرجع السابق، ج ١، ص ٤٩) يوجد في منطقة تدمر اسماء يستخدمها

يبيع هؤلاء الباعة الصغار منتوجات المدن التي يوصونهم بجلبها أو يصرّقون ثياباً و مواد غذائية و حوائج صغيرة أخرى. تأتي كل حمولتهم من حلب عموماً يحملونها هم أو جمالون من معارفهم. غالباً ما يدفع لهم عيناً: صوف، زبدة إلخ ...... و هي تشكل أجرة العودة لأولئك الجمالين إلى سوريا[1].

في المخيمات يحتفى بأهالي السخنة بسبب الهدايا التي يقدمونها لشيوخ القبائل و بسبب الفائدة التي تجنيها القبيلة منهم. و لكي يحظوا بالاحترام العام ، يبدون ورعاً عميقاً. كما يقدمون خدمات صغيرة للبدو. فغالباً ما يجيدون القراءة و الكتابة، فيحررون رسائل لمضيفيهم و لباقي الأعراب.

و نادراً ما نجد بينهم تجاراً كباراً و لكننا نصادف -كما سنرى- هؤلاء التجار الكبار في جاليات أهل السخنة المقيمين في المدن السورية.

و هم يشكلون نوعاً من الارستقراطية حديثة النعمة التي نجد مثيلاً لها في واحات الجزيرة العربية[2]. كما هو الوضع في كافة البلدان التي اعتمدت

المستقرون و تبدو انها أكثر قدماً من تلك التي يستخدمها البدو و لا بد من التذكير أن هؤلاء الأخيرين هم وافدون جدد.

[1] حينما يحل تاجر ميسور بعض الوقت عند البدو ينصب خيمة صغيرة بيضاء دائرية الشكل تقع عموماً قرب خيمة زعيم القبيلة. و يحدث أن تجتمع أربع أو خمسة خيام و ربما أكثر في قبيلة الرولا. أما البائع المتجول العادي فيقيم غالباً في ضيافة رجل يعرفه و يعقد صفقاته عنده.

[2] هؤلاء هم "أرباب الجِمال" أو (الجماميل) الذين عاشرهم دوغيتي في بريدة و لدى العنزة الذين يحملون القمح من بلاد ما بين النهرين و يجلبون إلى نجد الثياب و التُمّن(الأرزّ) .

علـــى التجارة (مثل هانسه و البندقية و مرسيليا). و في هذه المناسبة لا بد من التذكير بأنهم يلعبون دوراً سياسياً هاماً[1].

مواسم الحج

نعرف كيف دعّم بعض الزعماء قديماً سلطتهم عن طريق تأمين الجمـــال لموســـم الحج. حتى عام ١٨٨٠ عبد الرحمن باشا الملقب "باشا الحـــج" (توفـــي عام ١٩٠٠) كان ينظم في دمشق حصراً طلبات الحج و يوزعهـــم بيـــن المناظر[2]. كان المالك يكسب من كل جمل يؤجره من (٥) إلى (٧) ليرات ذهب وسطياً و يجني متسلّم الحج ربحاً هاماً. و لكن لا بد مـــن تأمين سائقين للجمال و لم تكن السخنة بكافية لهذا الغرض. ففرضت على كثير من الرجال مرافقة القوافل كل عام. و كان الأغنياء يدفعون بدل ذلك الإلزام و يقال أن بعض الفقراء اضطروا أن يبيعوا بناتهم ليدفعوا هذا

يحمّلون التمر و (القمح من القصيم نحو المدينة، و ينقلون في الخريف السمن الذي يجمعونه مـــن عـــند البدو إلى مكة حيث يجلبون منها القهوة(، المرجع السابق، ج ٢ ، ص٣١٩). لوصف نشاط التجار الأغنياء من اهل السخنة في حلب و حماة ، يمكننا قول الشيء نفسه بعد تغيير اسم المدن المقصودة و إضافة عشب الصابون إلى السلع المذكورة.

١ لنذكر رشيد الطيار في حلب . و بخصوص الدور السياسي لمتعهدي القوافل، نذكّر بدور مهنا في بريدة (دوغتي ، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣١٣) و أحمد بن سعيد في مسقط (فيلبي ، المرجع السابق، ص ٧٧)

٢ كـــان صـــالح الطلاّع يؤمن -كما ذكرنا سابقاً- حوالي ألفي جمل و يتفوق على جار الله العروق من تدمر و حتى على آغا القريتين. و نعرف أيضاً أن زعماء مني عفي يدينون لهذه التجارة بالمكانة التي اكتسبوها في المنطقة تجاه باقي الوجهاء.

الـــبدل[1]. و فيما بعد ، عندما لم تعد المناظر هي التي تزود موكب دمشق مباشـــرة، استفاد جمالو أهل السخنة أيضا فوائد ثمينة من حجيج الفرس و العراقييـــن بيـــن ديـــر الزور و دمشق حيث كانوا يؤجرون لهم مطايا و حيوانات مسروجة.

كـــان يسرى قرابة ثلاثة آلاف بغل أو جمل تعبر محملة غالباً بســـروج ذات مقعديـــن[2] إضافة إلى الدواب التي تحمل الخيام و المؤن. و يمتطـــي رئيس الموكب فرسه أو بغلته متقدماً الموكب ليحضّر المخيم. و قـــد أغنى موسم الحج السخنة حتى عام ١٩١٣. فطيلة الأيام الثمانية التي كانـــت تتوالى فيها المواكب لم يكن بإمكانك أن تجد فيها بيضة واحدة[3]. و يمكننا تشبيه هذا المشهد بمرور الموكب المتجه إلى مكة من نجد أو أيضا

---

[1] نحـــو عـــام ١٨٧٠ شاهدت السيدة بيرتون في طريقها إلى دمشق جماعة من أهل السخنة قاصدين مكة للحج و وصفت المشهد الحي كما يلي:
فـــريق مؤلف من مائة عربي تقريباً من العجيل قادمين من مناطق بغداد و حماة و السخنة و من أماكن أخرى..... كانوا يمتطون الهجن و هي جمال متوسطة النوعية ذات رسن معدني و خـــروج مشـــغولة و شرّابات تزين هذه الجمال. و تفوح منها رائحة القطران الذي دهنوا به مطاياهم بشكل قوي" (المرجع السابق، ص ٥٥)

[2] تسمى "دَمْبَلِك" . و كان هناك أيضاً " التختروان" ذو النوافذ و هو عبارة عن محفة يحملها بغلان من الأمام و من الخلف . هكذا كان طاقم الشخصيات الرفيعة.

[3] كـــان مـــرور الموكب مناسبة بنفس الحين للاتصال بالأجانب. عام ١٨٩٠ جلب الحجاج الفـــرس معهـــم الشاي إلى السخنة و من هناك انتشرت في الصحراء. كانت الشاي تنقع في أباريق القهوة مع البهارات و الفلفل الحلو.

بمـــا يمكــن أن نشاهده في دمشق، بشكل أضخم، خلال الشهر الذي كان يسبق انطلاق الحجاج السوريين.[1]

قافلة القلي

أثّــر انحســـار الحـــج كثيراً على الجمالين و لكن ما زال هناك موارد أخرى باقية لهم. من هذه الموارد كانت قافلة القلي بشكل خاص. و حيــنما يــتم تجميع مائتي حمولة مثلا، ينطلقون إما سيراً على الأقدام أو على الحمير. كل واحد يرافق دوابه و قد ربطت صفاً واحداً يبلغ أربعة أو خمســة دواب. و عند هبوط الليل، يعلق جرس في رقبة آخر دابة ليشير برنيــنه المنتظم بأن الأمور تسير على أحسن ما يرام. و كان شيخ المدينة –و هــو بنفس الحين شيخ القافلة– يسير ممتطياً فرسه أو حماره الأبيض الجميل الأصيل. كانوا يسيرون كل يوم قرابة ٦ أو سبع ساعات، منطلقين مـــنذ الصـــباح قـبل الفجـــر حتى يتاح للحيوانات أن ترعى العشب بعد الظهـــيرة. و فـــي كـــل مـــرحلة استراحة كانوا ينصبون الخيم الصغيرة البيضاء و يشربون القهوة.

---

[1] كانوا يجنون من المسافرين فائدة كبرى جعلت سياسة الولايات العربية تتمحور حول الحج (دوغيتـــي ، المـــرجع السابق، ج ٢،ص ٤٩ و فيلبيي ، المرجع السابق، ص ٨٠) يقول موسيل (نجد الشمالي ، ص ٢٤٣) بان محمد بن رشيد استطاع عن طريق هداياه و تهديداته علـــى حد سواء، أن يجعل كل القوافل تمر في عاصمته حايل). و قد جلبت له قوافل الحجاج بشكل خاص اكبر الفوائد.

تنصب المخيمات بالتتالي في : جبل اللابدة، بير قديم، عصيان، السيرية ، مغار ، خناصر ، السفيرة. في اليوم الثامن يصل الموكب إلى حلب.

من السفيرة يتقدم الزعيم الموكب يحيط به بعض الوجهاء قاصداً احد وجهاء السخنة في حلب[1] الذي يكون قد تدبر مسبقاً أمر تصريف البضاعة بعد أن استلم طلبيات مدينته و المدن المجاورة (انطاكية، عينتاب، إلخ..) و يعقد صلات بين المنتجين و الزبائن. و كان المفتش يشهد، إذا اقتضى الأمر، على نوعية البضاعة. و بعد أن تسلم الحمولة، يدفع الجمالون للوسيط عمولته دون أن ينسوا عمولة زعيمهم و عمولة الخبير إذا اقتضى الأمر[2]. و يعودون بربح صاف مقداره ليرتان ذهباً على كل حمولة على الأقل[3]. و غالباً ما كان الصناعي الذي يبيعونه القلي يعهد إليهم بحمولات هامة من الصابون مخصصة لكل مدن جنوب تركيا و

---

[1] وهو رشيد الطيار الذي بقي زمناً طويلاً على هذه الحال و كان له امتياز تجارة البوتاس و يجمع بالتالي منتوجات تدمر. لكنه كان يولي الأفضلية لأخوته في السخنة، وهذا أمر طبيعي.

[2] خضعت هذه العمولات لمساومات. إذ قدرت عام ١٩١٠ ببرغوثين للأول و كذلك للثاني وبرغوث واحد للأخير(دوغيتي ، المرجع السابق، ج ٢ ، ص٤٥٧). يروي لنا بأن زعيم العنزة كان يجني ريالاً عن كل جمل. ويرى موسيل بأن الضريبة في حايل على الحجاج كانت (٣٠) مجيدياً للذهاب و (٥٠) للإياب. (نجد الشمالي ، ص٢٤٣)

٣ ارتفع سعر القنطار في العام ١٩٢١ إلى أكثر من أربعين ليرة ذهباً. و اليوم يتراوح السعر بين ١٢٠ و ١٤٠ فرنكاً.

كردســتان و الجزيــرة)[1]. و كــانو يعملــون كجمالين مأجورين (جمالة مكاريــة)[2] و هــذا ما كان يحصل لهم أحياناً منذ الانطلاق من السخنة. و تــتكون أجــرة العودة نحو بلدتهم من سلع تلزم لعائلاتهم و خصوصاً مما يمكن أن يبيعوه في القبائل.

خلال الأعوام الجيدة ، يذهبون إلى حلب أو إلى "مدن صناعة الصابون" المجاورة بقافلة من القلي عشرمرات في العام. و في أيام الازدهار تلك كان سبعمئة أو ثمانمئة من الجمال لا تستخدم إلاّ لهذه التجارة حصراً. إنها الفترة التي كان شيخ تدمر محمد بن عبد الله العروق يرسل إلى رشيد الطيار أكثر من ألف حيوان محملة بالبوتاس و كان يطلق اسمه على بعض نقاط الطريق بين تدمر و حلب (مثلاً "شجرة محمد" و هي شجرة منعزلة جنوب جبل الصعر). و هكذا لا يمكن للمرء إلا أن يخطر بباله كل تلك المدن في الجزيرة العربية التي تكاد لا تقوم حياتها إلا على القوافل[3]. في أيامنا هذه، يتيح الأمن السائد للمسافر التحرك وحده دون سلاح[4]، و لكن سعر القلي و كذلك أجور الجمالين تدهورت.

---

[1] كــان الجمّال يشتري مادة القلي من السخنة. و إذا لم يكن هو المالك للدواب، يستأجرها بليرة و نصف ذهباً (تعادل الآن ٨٠ فرنكاً فقط) و يتحمل النفقات ، أو يتقاسم مناصفة سعر البيع.

[2] بخصــوص تصــدير صابون إنطاكية، راجع فوليريس (المرجع السابق، ص ٦٦). لقد حصــل أهالــي الســخنة العاملون في نقل بضائع على حصة جيدة في العمليات التي يصفها الكاتب.

٣ مدن القوافل في القصيم التي تزود بلدات الحجاز بالسمن (دوغتي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤٥٧)

٤ على حد زعم ليدي بلنت، كان السخانة مزودين بالبنادق حتى و هم مجتمعون.

الجمّال

يكاد عدد الجمالين يساوي ثلثي سكان السخنة[1]. و هذا دليل على الأهمية الاقتصادية لهذه المهنة[2]. و بالإضافة إلى البوتاس ينقل الجمالون كافة المنتوجات الطبيعية في الصحراء (زيت البطم و الكمأة و الخشب و القمح و عرق السوس و الصمغ و الملح و لقى الآثار و العظام إلخ..) كما ينقلون كل منتوجات تربية القطعان لدى البدو (صوف و زبدة و جلود الجمال و الخراف إلخ..) و إذا ما استثنينا تجارة الآثار، نحسب و كأننا نعيش مع المستقرين الحضر في الحجاز زمن هجرة النبي كما يصفهم لامنس[3]. فهم يعملون أحياناً لحسابهم و أحياناً أخرى يقوم بدو و تجار دير الزور أو مصنعو الصابون -من حلب و إنطاكية خصوصاً- باستئجار خدماتهم.

في حال عودتهم مباشرة إلى مدينتهم، أي عندما لا يكون عليهم مواكبة البضائع في أرجاء الصحراء، يجلبون من المدن الثياب و الأحذية و المؤن (بقول و حلويات و قهوة و شاي و الهال و البهارات و التبغ

---

[1] راجع دوغتي (المرجع السابق، ج ٢ ، ص ٣١٢) " قرابة ثلث أهالي القصيم هم رجال قوافل"

[2] يحمل الجمّال في تنقلاته قربة ماء و بعض المؤن (زوادة) و يطعم جماله كل يوم شيئاً من العلف (عليق أو حريف) و هو عبارة عن بعض كريات من الشعير المسحوق الممزوج غالباً بالجلبانة و الحبة السوداء التي تغدو حمراء بعد تقشيرها و تشبه الكرسنة.

[3] راجع لامنس في "مدينة الطائف العربية عشية الهجرة" صفحة ٢٢٥ و ٢٢٦:"يجب أن نضيف الخشب و الفحم و الراتنج و الصمغ و الزفت المأخوذ من غابات السرات. و تحضير الجلود من قبل البدو (على يد البدو) و تصريف الزبدة و مشتقاتها و الأصواف، إلخ .

والتنباك (غالباً بالتهريب) و البعض يجلب السلاح و الذخيرة في حدود ما يتســاهل به رجال الدرك معهم. و يخزنون هذه المواد أو يذهبون بالحال لبيعها إلى القبائل.

غالباً ما يكون الجمّال في الوقت نفسه تاجراً. لا شك أن بمقدوره أن يعمــل مــأجوراً (بالكـــروة). في هذه الحال، و بعد الاتفاق معه يقوم المرســل بتســليمه رســالةمن طــرفه مذيلة بخاتمه و يدرج عليها قائمة بالبضـــائع و السعرها الواجب دفعه له: هكذا تقوم عملياً و بشكل خاص، التجارة عبر الصحراء. و لكن السخني، حتى في هذه الحالة، يقوم ببعض الصـــفقات دائماً و هو في طريق رحلته، فما بالك إذا كانت الحمولة ملكاً لــه؟ و هــذا أمر مألوف . يقول فيلبي (المرجع السابق، ص ١٣٨) "إن البدو أنفسهم لا يهملون مثل تلك المكاسب".

مهـــنة الجمّـــال – وهي مهنة النبي محمد بالذات- تضفي على ذلك الذي يمارسها نوعاً من الكرامة و النبل و كذلك كل ما يتعلق بصفات النـــبل لـــدى الجمل. من هنا يرى البدو في سكان السخنة امتيازاًعن باقي الحضـــر- أو بالأحرى وضاعة أقل -. و من هنا دون شك نفهم الازدراء الـــذي يكـــنونه تجـــاه أهـــل تدمر. و من هنا أخيراً المعرفة العميقة التي يتمـــيزون بها في معرفة الناس و أمور الصحراء، حتى و لو كان هؤلاء الـــناس بعيديـــن جداً عنهم و يعود هذا إلى أن أهالي السخنة منتشرون في كل مكان. أما البدو فلا تتعدى معارفهم معرفة النقالين و رجال القوافل.

السيّارة

و بمقـــابل الجمل تكتسب السيارة الشاحنة زبائن أكثر كل يوم[1]. فالخان حيث كان يتوقف قديماً الحجاج و رجال القوافل أصبح الآن خراباً. و بالمقـــابل فتحت ثلاثة "كاراجات"[2]. و خلافاً لما قد يتبادر إلى ذهننا، لا تحــتوي هذه الكاراجات لا على سيارات و لا عُدَد و لا ميكانيكيين و لكن يقـيم فـيها سائقون يقدم لهم عدة الطعام و الشراب و السكن و يمكنهم أن يـتزودوا منها بالمحروقات و يركنوا فيها سياراتهم. يبيعون للعاملين في الكاراجــات بعــض الثمار و الخضار المشتراة من دمشق و حمص[3]. و تدريجــياً ازداد عــدد الحوانيت في الكاراجات و أصبحت تنافس حوانيت شارع القلعة[4].

---

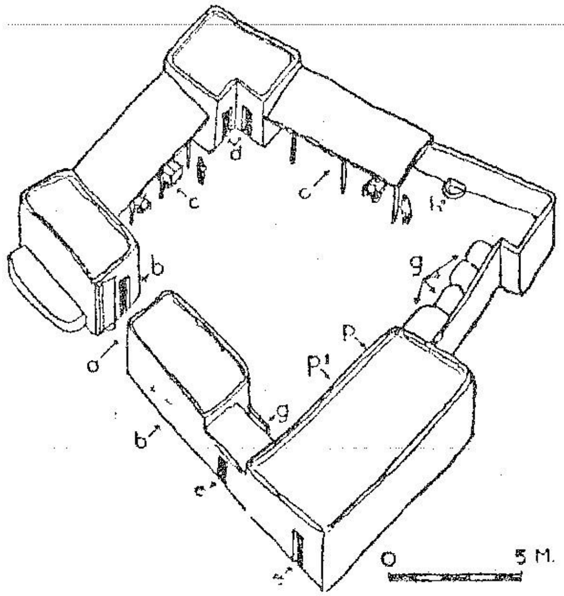
[1] ظهرت السيارة عملياً عام ١٩٣٥ و بدأ تجار كثيرون يستأجرونها من المدن ليقوموا بالتجارة بين السخنة و القبائل. و قد تحسنت الأمور حينما قام رجل من دير الزور بتأجير سيارة في المنطقة حيث قامت فيها بأكثر من رحلة.

٢ أحدها تديره فضة بنت مزيد، زوجة قاسم بن محمد (من مني مينه) ؛ الثاني تديره شقرا بنت بركات، أرملة سعيد بن قويسم الأحمد و ابنها ؛ أما الأخير فليس سوى الطاحون.

٣ مثل سابقيهم الجمالين، لا يهملون "الأعمال" في الطريق

[4] إن ثلثي هذه الكاراجات -كما لاحظنا في الريف و ضواحي القرى و أطراف الصحراء- تديـرها نســاء. و لاحظـــنا نفس الظاهرة في القريتين و القطيفة (و لكن ليس في تدمر) هل نســتنتج مــن ذلك بان السيارة هي مركبة ساهمت في تحرير المرأة ؟ نميل إلى الاعتقاد أن الغذاء و إيواء العابرين (المسافرين) و أي عمل آخر له علاقة بالبيت هو من مهام المرأة التي يوكــل لها زوجها هذه المهمة بينما هو منشغل في أمور أخرى: فتح دكان (حانوت) مجاور على سبيل المثال. من هنا حصل أن تولت نساء إدارة بعض الخانات قديماً. (راجع بارسون ، المرجع السابق، ص ٥٢).

احتفظ الكاراج الذي حل محل الخان بشكله الظاهري. له واقيات تلجأ إليها السيارات خلال الموسم السيئ بينما تبقى خلال الصيف في باحته الواسعة، و غرف إقامة السائقين قريبة من بابه أما غرف عائلة المالك فهي معزولة في الداخل. و تأتي الحوانيت التي تشرف على الشارع لتكمل هذا المجمّع: هذه الحوانيت مرغوبة بسبب موقعها لأن المسافر العابر يملك مالاً ينفقه أكثر من ساكن المنطقة المقيم.



الشكل ١٧

كراج شقرا بنت بركات

يوصل باب كبير (a) إلى الباحة التي ينفتح عليها مساكن السائقين (b) و عنابر السيارات (c) و غرف تستخدم كمخازن أو كغرف إضافية عند الحاجة (d). كل هذا يشكل الكراج بالمعنى الحصري . و نجد فيه بالإضافة لذلك مسكن المالكين (p) و المنتفعات و حظيرة الماشية (g) و معصرة البطم التي لا بد منها (h) . تنفتح على الشارع أبواب المحلات التجارية (e)

و مـــن جهة أخرى، و في منطقة يسود فيها هذا النوع من الفقر، يحاول الـــباعة أكـــثر فأكثر تصريف منتوجاتهم القادمة من الخارج، و لهذا من الطبيعـــي أن ينصبوا بسطاتهم على مقربة من الكاراج حيث يتم تفريغ هذه الســـلع.ألم نلاحظ قديماً في بعض المدن السورية بأن السوق قد نشأ حول الخان[١]؟ أما الدراجة فقد ظهرت في السخنة بنوع من الخجل[٢].

٦. فعاليات بعض سكان السخنة بعيداً عن بلدتهم

تجارة الماشية

١- الجمـــال : تشـــكل القطعـــان التي يربيها الأعراب المنتوج الأساسي في الصحراء. و نتوقع إذن أن يمارس أهالي السخنة تجارتها. و بـــنفس الحيـــن لا نجد من تجار الجمال إلا القليلين. قد يفاجئنا هذا و نحن نعلـــم الـــدور الهـــام الذي تلعبه هذه الحيوانات في حياتهم. إذ لا يمكنهم التفكـــير بمنافسة آل العجيل في مجالهم و قد غطت تجارتهم المنظمة كل الجزيـــرة العربية، و ليس بمقدورهم حتى جمع رؤوس الأموال اللازمة لذلك. و أولئك الذين يعملون في هذه التجارة -و هم قليلون جداً- يعملون

---

١ راجع فولرس (المرجع السابق، ص ٦٤)

٢ لا يملـــك ســـاكن واحد من السخنة دراجة. و استخدمها البعض خارج البلد. يمكن للمرء التســـاؤل هل ستحل الدراجة محل الحمار كما حلت السيارة محل الحصان و الشاحنة محل الجمل على غرار ما حدث في تدمر.

البدو ، وهم أكثر تشككاً، يسمون وسيلة النقل هذه "حصان إبليس" و الدراجة النارية " عفريت طقطق"

لحساب أخوة لهم أغنياء في حلب أو في حماة. يشترون دوابهم من مناطق تدمـر، من الجزيرة السورية أو بلاد الموصل لتصريفها في شمال سوريا و يصـلون أحـياناً –و لكـن نادراً– حتى مصر حيث حيوانات الجزارة مـرغوبة جـداً. و لذلـك يجتازون المناطق المأهولة متحاشين المغامرة بدخول الحماد خصوصاً جنوب طريق دمشق – بغداد.

٢ – الخراف

تتطلـب تجارة الغنم أيضاً أموالاً كثيرة و غالباً ما تكون أرباحها ضخمة و لكنها يمكن أن تتحول، في إثر سنة سيئة، إلى إفلاس تام. غالباً مـا يعهد أغنياء السخنة المقيمون في حلب و حماة، و هم من كبار تجار الخراف، بماشيتهم لأخوة لهم في المدينة الأم. يفعلون ذلك بكل رضى لأن هؤلاء عارفون جيداً بأمور الصحراء و يتركون لهم نصف الربح الصافي عن كل صفقة.

يقـوم الذيـن يرافقون القطعان بشرائها في منطقة الموصل في بداية الشتاء و يجهدون لإيصال دوابهم سالمة على الرغم من سوء الطقس و سـرقات الـبدو. و يقدمـون لـزعماء القبائل هدايا تحل محل ضريبة "الأخـوة" و تعتـبر نوعاً من التأمين ضد السرقة و حقاً برعي القطعان بنفس الحين. يبحثون عن مواطن الكلأ في الجزيرة ثم في منطقة تدمر و يمكـثون أحياناً في شمبل لغاية شهر نيسان . يعلمهم شركاؤهم في حلب و حماة و حمص بالأسعار فيختارون الوقت المناسب للبيع[١].

---

١ في العام ١٩٣٥، يشترون ٣ خرفان بليرة ذهباً و يبيعونها بثمانين فرنكاً للرأس

التهريب

منذ أن أعاقت القوانين و الضرائب التجارة الحرة التي كانت مزدهرة (آثار و ملح إلخ....) يضطر أهالي السخنة إلى بيع جزء من بضائعهم بالتهريب. و يبقى التهريب بالنسبة لهم صنعة مربحة بالرغم من أخطارها.

حوالي عام ١٩٢١، حقق البعض أرباحاً هائلة عن طريق نقل السلاح من مزيريب في حوران إلى مناطق القبائل. و في أيامنا يخرجون التبغ في الأكياس من المدن السورية ؛ و من الصحراء يجلبون قليلاً من الخشب و الفحم و لقى أثرية و الزبدة و الجلود إلى جانب الصوف التي يشترونها من البدو في الأراضي السورية أو من بدو العراق الملزمين بتسديد ديون على ذمتهم. و أحياناً ينهبون بضع شحنات من السلاح و الذخيرة.

يسمح العدد الكبير للجاليات السخنية بجمع و تصريف البضائع دون إقامة علاقة مع الغرباء. ففي حلب و حماة يتم التحميل غالباً بواسطة السيارة. و السيارات هي من ملكية أغنياء تلك الجاليات. و في السخنة بالذات يقوم بعض التجار بدور المؤتمنين. أخيراً في السهب يبقى الجمالون و العاملون على الحمير متعاونين ثقات[1]. ويندر أن لا يتمكن المهرب من التملص من ورطته في حال القبض عليه.

---

[1] نعرف عائلة -و هي ليست الوحيدة من نوعها- آل ت ؟ تستفيد من التبغ لتحصيل أكبر مواردها. لنذكر بأن مهنة المهرب تعمق معرفة أهل السخنة بشكل أفضل بالصحراء و بالبدو.

فـــي أمسيةٍ من عام ١٩٣٢، كان أحد أهالي السخنة المقيمين في حماة، و هو مهرب كبير للتبغ، عائداً من جولة و معه حمولة تحتوي على السـمن و السـجاد و بشكل خاص السلاح ، قضى الليل في السفيرة عند نسيبٍ لأحمد العبد العزيز.

في صباح اليوم التالي حجزت سيارته في حلب و استطاع الهرب. و كان له سائق مثل باقي الناس الذين لا يتقنون قيادة السيارات. و لمااستجوبت الشرطة هذا السائق، رفض أن يشي بمعلمه و لكنه اعترف أخيراً بأنه قضى ليلته في السفيرة عند ابن جاعد من مني عفي فأوقف الدرك هذا الأخير. و أتى المهرب لمقابلة الشيخ أحمد العبد العزيز و ذهبا معاً قاصدين نواف الصالح شيخ الحديديين الذين تربطهم بالفرنسيين علاقات جيدة. وكان المطلوب من نواف أن يشهد، لقاء عمولة كبيرة، أن ذلك السلاح كان مرسلاً له. و حينما رتبت الأمور بشكل جيد، توجهوا إلى بيروت حيث تمت تصفية المشكلة بسرعة.

علينا ألا نفهم من ذلك بأن الميل للتهريب هو من خصائص أهل السخنة. إنه رد فعل ضد النظام الجمركي الحالي. و هو رد فعل ناجم عن أناس لم يعرفوا معنى للحدود الاقتصادية لأن وضعهم الجغرافي يحررهم من كل مراقبة. و في هذا السياق نعرف دور قبائل سيناء في تهريب المخدرات أو الثروة التي حصلت عليها الكويت عن طريق التجارة بالأسلحة.

التطوع في الجيش

علـــى الرغم من أن بين المتحضرين المستقرين في منطقة تدمر يعتبر أهل السخنة أكثرهم قساوة و لكنهم لا يبدو عليهم للوهلة الأولى أنهم يولون أهمية للبطولة إذ يرون فيها ميزةً خاصةً بالبدو. كانت خدمة الجيش فـــي عهد الأتراك إلزامية. و كان الأغنياء لا يقضون إلا ثلاثة أشهر في خدمـــة العلـــم مقابل دفع (٥٠) ليرة ذهباً. أما الفقراء فيقضون فيها قرابة ســـتة أعوام مبدئياً. و استطاع الكثيرون التهرب من التجنيد. خلال حرب ١٩١٤–١٩١٨،تـــم الإعـــلان عـــن التعبئة العامة و هرب الكثيرون من الشـــباب نحـــو المـــدن الســـورية حيـــث يأملون بإيجاد ملجأ يجنبهم شر الملاحقة[1].

إلاّ أنـــنا نجد رجالاً من السخنة يعملون في الجيش، و معرفتهم الجـــيدة بالصحراء تزيد من مقامهم. و هم أنفسهم يرون أن مهنة المرتزق في الجيش مهنة لا بأس بها [2].و كانوا قديماً جنوداً بغّالين لدى الأتراك في الصـــحراء و مشاةً خارج الصحراء. و يلحقون بكتائبهم إلى أماكن بعيدة[3]. و هـــم الآن هجانـــة فـــي تدمـــر –وغالباً ما جندواً للقيام بدور الدليل– و

---

١ و قد تجذر فيها الكثيرون

٢ هذا رأي كثير من المتحضرين و البدو في الجزيرة العربية، يعملون كفرسان أو هجانة في القـــوات المرســـلة إلى العراق و على الضفة الغربية للأردن و سوريا. يذكر دوغتي بعض الجنود العجيل الذين أصلهم من القصيم (المرجع السابق، ج ٢ ، ص ٣١٢)

٣ بهذه الطريقة ذهب خليف التيسان إلى اليمن سيراً و عاد بنفس الطريقة.

البعض منهم، من دير الزور و من السفيرة، يعملون في الدير كهجانة أو في قطعات "مصفحات الرشاشات الخفيفة في الصحراء"[1].

الهجرة

لا يخشى سكان البلدان الفقيرة الاغتراب[2]. هكذا شأن حضر أهالي مكة أو الطائف قبل الهجرة[3]، و هذا شأن آل العجيل في الجزيرة العربية الوسطى الذين نجدهم على كافة الطرق من فارس إلى مصر. و لا يشكل أهل السخنة استثناءً لذلك. يشجعهم على ذلك ازدهار جالياتهم أغلب الأحيان. فهم ما يكادون يجدون عملاً مجزياً و لو في مكان بعيد حتى يسارعوا إلى تعاطيه. عمل كثير منهم في خط حديد الحجاز[4] و حتى إن أحدهم هاجر إلى أميركا.

ليس من الضروري الذهاب إلى مثل هذا البعد. فالعديد منهم يعرفون سوريا و العراق و جنوب تركيا و نجد و الحجاز الشمالي. و إليكم بإيجاز سيرة حياة اثنين ممن زودونا بالمعلومات. و وضعهم ليس استثنائياً : فهم يختلفون عن القرويين السوريين الذين يضيعون إذا ما

---

[1] مهنة الهجانة تزيد معرفتهم بالسهوب كما هو شأن مهنة الجمال و النقال و تاجر القطعان أو المهرب

٢ من هنا يأتي تناقص السكان الذي أدهش أوبنهايم (المرجع السابق، ص ٣٢٣)

٣ راجع لامنس، مدينة الطائف العربية عشية الهجرة، ص ٢١١

٤ يخطر ببالنا أولئك الذين قدموا من القصيم للعمل في الحفر و الردم في قناة السويس(راجع دوغتي، المرجع السابق، ج ٢ ، ص ٤٢١)

ابـتعدوا عـن مسكنهم قرابة ٢٠ كيلو متراً. و لكنهم يتشابهون مع رجال القوافل في الجزيرة العربية.

فـياض بن جرداوي ابن زعيم مني عفي السابق، بدأ في مقتبل العمـر يمارس مهنة التجارة بمرافقة الجمال لدى البدو و إلى حلب. و قد عمل في حامية دير الزور بصفة جندي بغّال لدى الأتراك ثم أشرف على ملاّحـة "بوارة" و لحق بكتيبته إلى ماردين و إلى كل الجنوب الغربي في كردسـتان. و بمساعدة أموال أغنياء من بلدته في حماة اتجه فيما بعد إلى تجـارة الخـراف و قام بصفقات خاسرة. و بصفته جمالاً و تاجراً ، زار سـوريا و العراق بالكامل من جبال الأكراد وصولاً إلى كربلاء. و التحق بالفرنسـيين الذين عينوه دليلاً ثم في هجانة تدمر و خدم فيها على الرغم من تقدمه في السن حيث تعرف على عدد لا يحصى من البدو.

أمـا حمـود السـويدان فهو من أصل أقل شأناً من الأول. تعلم القـراءة و الكـتابة و هـو صـغير عند الخطيب ثم عمل في خط حديد الحجـاز. و زار في تلك الفترة عمان و معان و تبوك و لكنه لم يصل إلى الأماكـن المقدسـة في الجزيرة العربية و اكتفى بالحج إلى بيت المقدس. خـلال عملـه كجمّال مأجور، ذهب إلى حلب و إنطاكية و الإسكندرون لنقل القلي إليها و قام بمرافقة قوافل (لنقل الصابون بشكل خاص) مرسلة إلـى عينـتاب و ديار بكر و عامودة و الحسكه و تل عفار و كل الوادي الأوسـط للفـرات و شطاطا. و عمل دون كلل في "السريس" بين ثريا و

حلب[1]. و في العراق رافق دوابه إلى بغداد و مشهد علي (النجف) و مشهد حسين (كربلاء). و على حدود نجد انتقل إلى بريت و نفوذ و قريّات الملح على طريق الجوف. و وصل إلى حايل عام ١٩١٨[2]. حالياً مهنة الجمال لم تعد تجلب الربح لذلك هاجر إلى الحسو في شرقي عقيربات حيث يعمل في الزارعة.

٧- الانهيار الاقتصادي

أتينا فيما سبق على عدد و تنوع موارد الصحراء و على البؤس الذي يعيش فيه أولئك الذين يستثمرون هذه الموارد. و خلال مدة طويلة تبين أنه إذا ضعفت إحدى الموارد فإنه سرعان ما كانوا يبتكرون موارد أخرى جديدة: فبعد الصودا أتى مورد الجج ثم تجارة الآثار ثم الخشب .. و نكاد نقول أنها اختفت بالتدريج في أيامنا هذه. فالمنقبون يلاحقون و التجارات القديمة أصبحت غير مسموح بها و انتهى دور الجمال أمام السيارات الشاحنة. و لم تعد مدينة حلب تشتري شيئاً بعد أن حرمتها الحدود الجديدة لمنطقتها الخلفية. أدت حالة السلم، التي لا تتلاءم مع التنظيم الاجتماعي للبدو، إلى إحداث ضرر كبير لديهم و من ثم أتت

---

[1] راجع دوغتي (المرجع السابق، ج ٢ ، ص ٤٦٣) : " كان صالح قد قطع نفس الطريق (العنزة – مكة و بالعكس) قرابة مائة مرة أي على ما يعتقد قرابة سفر في الصحراء لمدة أربع سنوات متواصلة أو لمسافة خمسين ألف ميل. و لم تكن أسفاره في الشمال بأقل من ذلك بين القصيم و شواطئ الخليج و بلاد الفرات."

٢ لدى الأمير سعود العبد العزيز، ابن رشيد للبحث عن الجمال التي كان قد سرقها عكرش ابن فروان، و هو من آل الشمر، من أهالي السخنة، فأعادها له الأمير كاملة غير منقوصة.

المجاعات الأخيرة لتوجه لهم الضربة القاضية. أخيراً بعد أن لم يعد هناك ما يخشاه السوريون في السهب، اختاروا هذا الوقت لمنافسة الباعة النقالين بين القبائل.

و حالما تعود الفوضى، تزدهر أعمال البدو و معها أعمال أهالي السخنة من جديد بينما يتراجع الباعة السوريون بحذر نحو مدنهم. و بالعكس إذا ما استمر الأمن، يزداد خط دمشق – دير الزور ازدهاراً في تجارته. و يبدو أن السخنة، شأنها شأن باقي المحطات، ستكون علىهذه الطريق مركز تجمع للعاملين في الكاراجات و السائقين (خلفاء الجمالين القدامى) الذين ينقلون إلى القبائل سلع سوق محلي صغير. و قد وُلد منذ اليوم، هذا النظام الجديد و أخذ يتطور. إلاّ أن ما حصل في السنوات الأخيرة من توسع كبير في زراعة الأرض البعل بالإضافة إلى أعمال جر المياه و تربية الماشية و الاهتمام بالمزارع سيؤدي بشكل خاص، من الآن فصاعداً، إلى جعل السخنة و الطيبة و الكوم، رقعة من المناطق المزروعة تحيط بها بعض من مظاهر الحياة الرعوية.

سـبق أن رأينا أن السخنة، من الناحية التجارية، تذكرنا في كل لحظـة بباقي واحات الجزيرة العربية. و ليس الفرق بينها سوى في حجم الأعمـال. لقـد أشـرنا إلى أهمية التجارة الكبيرة التي تشكلها منتوجات الصـحراء . لكن هذه البضاعة تكاد تفقد اليوم كل قيمتها و بالتالي فالقدرة الشـرائية لدى البدو تأثرت بها سلباً. و بدأت التيارات التجارية تنضب في الاتجاهين.

فــي نفس الحين، استبدال الجمل بالسيارة نقل مركز التجارة إلى عمــق البلاد الحضرية[1] و هكذا أتت دمشق و بيروت لتحلا محل المناطق و القـــدس و حــتى حــيفا و عمان و معان و بغداد و البصرة، و المدن الموجــودة علـــى عــرض الفــرات الأوسط و جدة و، دون شك، مكة و الطائف.

و في ظروف أقل مأساوية، نجحت الهجرة، و هي ملاذ الشعوب الفقــيرة، بالنسبة للسوريين و اللبنانيين. و لذا ندرك لماذا تجذب العرب في أيامنا إلى ما وراء حدود شبه جزيرتهم.

[1] عما قريب سينحصر النشاط في المرافئ. من هنا تأتي أهمية الشواطئ في الجزيرة العربية، مما يضطر أي أمير عربي يريد أن يفرض سلطته إلى مراعاة الأجانب المسيطرين عليها(راجع موسيل، نجد الشمالي، ص ٢٩٩)

الفصل الخامس

الجاليات

انتشرت السخنة في كل مكان يمكن لسكانها أن يجدوا فيه ما يستثمرونه أو يبيعونه. و هكذا أنشأت مواقع زراعية، في الينابيع المجاورة لطيبة و الكوم و شكلت جاليات معظمها حضرية حيث يعيش الجمالون (سفيرة و دير الزور) و المنقبون عن الآثار (في الرقة و السفيرة و حلب) و حطابون و فحامون (كما في بري) و تجارماشية (كما في حماة و حلب و دير الزور) و مهربون (كما في حماة و سفيرة و تل أبيض إلخ..). أمّا تجار القوافل فيتواجدون في كل هذه الأمكنة كوسطاء ضروريين بين الحماد و سوريا[1].

حينما نرى سكان السخنة يقصدون المدن هرباً من خدمة الجيش أو من المؤامرات السياسية أو من خطر الجوع بكل بساطة، لا يمكننا و الحال هذه إلا ذكر البدو الذين وصلوا إلى درك البؤس و أقاموا بقرب قرية من قرى المعمورة. و يبدو ظاهرياً أن الطرفين ينزعان للتخلي عن نمط حياة السهب. و لكن بينما الراعي الذي أصبح فلاحاً يغيّر نمط عيشه و يبتعد عن قبيلته، فإن العامل السابق في القوافل، الذي ظل تاجراً و متنقلاً، يحتفظ بعلاقة قوية مع أخوته كما يحتفظ، و لمدة طويلة، بهذا التعاون العرفي الذي يشكل عماد قوة شعوب الصحراء.

---

[1] هكذا يفتخر العجيل بأنهم الأكثر قدرة على التعامل مع البدو الرحل (دوغيني ، المرجع السابق، ج ١، ص ١١)

و لا يسعنا إلا أن نقارن هذا الاستيطان الذي يتيح لسكان السخنة وضع أيديهم على بعض أنواع التجارة بمراكز تجارة العجيل الذين يسيطرون على معظم الجمال المباعة في شمالي الجزيرة و وسطها. و من جهة أخرى، نعلم كم من السهل اختلاط مفهوم العرق و الجماعة في الشرق.

الطيبة[1]

تبدو الطيبة في يومنا كمجموعة من البيوت البسيطة متكئة على سور بيضاوي الشكل متهدم و منفتحة على ساحة مركزية مثل أسناخ خلية نحل. و ما زال فيها برج مربع الشكل يقوم بين الأنقاض. آثارها القديمة ما زالت كثيرة. و على آخر مرتفع في الضلعان من جهة الشرق، يشرف مقام الشيخ ابراهيم[2] على هذه الضيعة. ضخامة هذا البناء النسبية و مقدار المحافظة عليه يشهدان بأن هؤلاء القرويين الأتقياء الذين كانوا يؤمونه للزيارة هم و لا شك أغنياء. في شرق البيوت و نحو مصب النبع تمتد مزروعات مروية يتخللها أبنية صغيرة (مناطر) تأوي الحراس (النواطير) خلال فصل الحصاد أو يرصد فيها الصيادون، في باقي الأوقات، طرائدهم التي تأتي للشرب.

---

[1] على بعد ٢٥ كم شمالي السخنة و ١٤ كم جنوبي الكوم و في منتصف الثغرة الفاصلة بين الضلعان و جبل بشري و على طريق الرقة السخنة.

٢ نجد فيه التاريخ : ١٠١١ هـ.

إســـم الطيـــبة معروف في القديم باسم "اوريزا" أو "عُرض" في القــرون الوســطى[1]. يجب ألا نندهش إذن إذا ما تم استبدال (طيبة) الذي يشـــير إلـــى طيـــب المـــاء و نقائه باسم "عَرض" – التي تعني : حادث، عـــارِض مؤســـف- و هـــو اسم لا يمكن إلا أن يكون نذير شؤم[2]. و في القـــرن الثامن عشر كانت طيبة ما تزال مأهولة[3]. و يعزى سبب انحدارها دون شـــك إلى العنزة أو إلى الوهابيين في بداية القرن التاسع عشر على أبعـــد حـــد[4]. يحكـــى أن شخصاً اسمه جلال من المرازقة، حفيد السكان المشـــاهدة القدامى، ذهب، حوالي عام ١٨٦٠، لمقابلة باشا دير الزور و طلـــب دعمـــه ليبني قرية. فأُحدِث فيها مركز تركي صغير و جاء حوالي خمـــس و عشـــرين عائلة تدريجياً للإقامة في هذا المكان و قد عُرف فيه بعض أناس أغنياء يملكون مواشي كثيرة العدد.

---

١ راجع موسيل ، منطقة تدمر ، ص ٢٣٣ – ٢٤٢ – ٢٥١

٢ و على هذا المنوال، سميت آبار اللماط : "طيبة إسم" (راجع موسيل ، عادات و تقاليد بدو الرولة ، ص ٣٨٩)؛ و سمي بئر العوير " الباردة" (راجع موسيل ، منطقة تدمر ، ص ٢٥٧)

٣ يأتي تافيرنييه (المرجع السابق، ج ١ ، ص ٣٩٢) على ذكرها صفحة ٣٩٢ كقلعة لها بعض الأهمية. اما بارسون (المرجع السابق، ص ٨٤ و ٨٦) فقد وجدها فارغة عام ١٧٧٤. ربما هدمت -كما قيل له- كما حدث لقصر الحير (سور) من قبل السلطان مراد الرابع ١٦١١ – ١٦٤٠ و قد تبين أنها كانت مسكونة منذ ذلك التاريخ إذ أن ذكرى احتلالها من قبل المشاهدة في القرن (١٨) ما زالت محفوظة.

٤ ربما في العام ١٨٠٢ و يرجح أن يكون قبل ذلك

و فـــي عـــام ١٩١٧ و يسمى (سنة الحقة)[1]، قدم إلى الطيبة إبن هديـــب زعـــيم الســـبعة عـــبدة بعد أن سلبته قبيلة الرولة و أودعت فيها غـــنائمها. و قـــام رجاله البدو بتخريب القرية و وصل بهم الحد إلى قتل امرأة من عائلة المختار. فهرب السكان مذعورين إلى السخنة و السفيرة. و مـــنذ بداية العام التالي عاد بعض الرجال من أجل مزروعاتهم. و لكنهم منذ ذلك الحين ظلوا يعيشون مختفين بين الآثار و في بيوت متداعية نادراً ما يبلغ ارتفاعها متراً و نصف. و تحسنت أحوالهم سنة بعد أخرى و أعيد إصلاح البيوت. لكن ما زالت النساء في ذلك الوقت لا تقمن في القرية إلا خلال موسم الحصاد. في هذا الوقت نقل الشيخ مرعي[2] و الشيخ أحمد إلى القـــرية خلافاتهمـــا السابقة[3] . و هذا دليل على غنى الموقع إذ كان هنالك أمـــل فـــي أن يعود الناس للسكن فيه قريباً. و بالفعل عام ١٩٣٥ تم بناء قرابة (١٢) بيتاً بارتفاع طبيعي و بدأ الرجال يفكرون بعدم إعادة نسائهم إلى السخنة منذ شتاء ١٩٣٥/١٩٣٦.

القـــرويون من مني رحمة، المشاهدة و هم المالكون القدامى في القـــرن (١٨)، منـــي حبش و مني مقبيل مرابعو الشيخ أحمد العبد العزيز يســـكنون اثني عشر بيتاً متجمعة حسب عشائرهم كما في السخنة. يملكون

---

[1] حقة واحدة تساوي نصف رطل و هو مكيال للتمر. في هذا العام بالذات سقطت مناطق وسط الفرات في يد البريطانيين. فلم يستطع البدو أن يجلبوا من قافلة شطاطا إلا (حقة) واحدة لكل عائلة. و انتشرت المجاعة في الصحراء و تسببت في اضطرابات كبيرة.

٢ في يومنا هذا، لم يعد يملك فيها أي شيء

[3] المختار حامد الحميدي، الذي خلف أخاه وأباه و جده، ناضل طويلاً ضد الشيخ أحمد. و لم يحصل منه على زعامة القرية إلا بعد أن انصاع له.

بعض المواشي و يمارسون أغلب المهن التي يعمل بها أخوتهم في البلدة الأم[1]. غير أن الطيبة لم تجدد إلا بسبب ينابيعها: (و اسمها الحالي كما ذكرنا يعود إلى صفات هذه الينابيع). و لكن سعر الماء فيها مرتفع مما جعل تقدم القرية بطيئاً. على عكس الوضع في الكوم، الخاضعة بشكل أكبر لتهديد البدو، إلاّ أن ماءها غزير، سخي التوزيع و زهيد الثمن مما جعلها تتمتع بازدهار نسبي. و كما هو الحال في السخنة فإن الأرض البعل التي تستثمر في السنوات المعطاء في الجنوب الشرقي و جنوب القرية ليست سوى دخل مكمل . أما الأراضي المروية فهي الوحيدة ذات الدخل الأكبر و هي تمتد شرقي البيوت و تشتمل على بساتين و حقول كثيرة العدد.

نذكر الينابيع من الشمال إلى الجنوب :

١. القنا، ليس هناك دور للماء لأن للنبع مالكَيْن يزرعان بشكل مشترك
٢. العوينات، ثلاثة ينابيع صغيرة ، دور الماء ١٤/١٦/١٦
٣. الجبيب، الأكثر قدماً و غزارة ، ثمانية مالكين، الدور ١٦ يوماً
٤. زرير القصب، معزول في الجهة الشمالية ، أربعة مالكين ، الدور ٢٠ يوماً
٥. العوينة الشرقية، في الشرق ، مالكان، الدور ١٥ يوماً

١ راجع ج. ب. ل. روسو ، رحلة من بغداد إلى حلب ، ص ١٥٤.

٦. نبع آخر باسم العوينة الشرقية، (لايستخدم في الري)
٧. الغدير، و له مالك واحد .لا يكاد يستخدم.

كل ما يتعلق بالري و بالزراعة منقول عن السخنة أو يذكرنا بها. نلاحظ نفس الاستقلال في الأرض و الماء و نفس طرق التوزيع بالـ(السدة) و باليوم و نفس الميل إلى توحيد الدور إلى (١٦) يوماً و نفس الطريقة في استخدام القنوات القديمة و نفس مستوى انخفاض الماء و نفس المصاعب لرفع الماء إلى السطح و أخيراً نفس محاولات الإحتكار من قبل الزعماء الكبار. فأحمد العبد العزيز يملك نصف القناة و ربع الجبيّب و كامل الغدير و العوينة الشرقية الثانية كما يملك حصصاً في العوينات. أما السكان المدقعون في الفقر فهم غير قادرين على مجابهة هذا الخطر لا سيّما و أن ينابيعهم تؤجج أطماعاً أخرى[1].

على الرغم من جودة الأرض و توفر الماء تبدو الطيبة لنا و كأنها نسخة عن السخنة إلاّ أنها أكثر تخلفاً و بؤساً. فمزروعاتها، على الرغم من عراقتها، تظهر لنا صورة لتنظيم زراعي و مائي ما زال في

[1] أنجزت إدارة الأشغال العامة حفر بئر جيد إسمنتي في الطيبة بعمق عشرة أمتار و مجهز بأحواض. و لكن حتى لو كان هذا البئر يعطي ماء فالبدو ميالون إلى عدم ارتياده. إنهم لا يتقبلون فكرة منعهم عن توجيه قطعانهم إلى المشارب الأكثر سهولة و منالاً أي إلى خزانات مياه الري. و هم في ذلك يتركون جمالهم تعبث بالمزروعات و تخرب التمديدات و القرويون لا يترددون أن يتركوا للبدو مشارب جبّير و العوينات السرجة و يفعلون ذلك بسرور لأن هذين المركزين للماء هما من ملكية أحمد العبد العزيز لكن البدو يظلوا غير راضين و من هنا تتجدد المشاكل عند حلول كل موسم صيف.

بداياتــه، أكــثر مما هو عليه في السخنة، تنظيم يحاول الاستمرار ضمن وضع مزعزع هش بسبب المخاوف و المخاطر التي لا تكاد تهدأ.

الــثروة الوحيدة التي أتى سكان السخنة للبحث عنها هنا هي ماء الــري. و نعلــم أنهــم، في طبعهم، يفضلون الماء علىغيره من ثروات الصحراء. لذا سيبقى أهالي السخنة فترة طويلة ينظرون إلى جالية الطيبة الزراعــية نظــرتهم إلى جارة فقيرة بالمقارنة مع جالياتهم التجارية التي سنأتي على ذكرها لاحقاً.

الكوم[١].

تــتألف الكوم من عدة بيوت سطوحها مثل قوالب السكر (قباب) مســتندة إلى بقايا سور قديم كما هو الوضع في الطيبة. و هنالك تل يرجح أنــه اصطناعي يشرف على البيوت من الجنوب. و تنتشر في الضواحي عدة ينابيع ذات حواف تبرز فيها آثار قديمة أو بقع من الخضرة. و هنالك ملاحــة صغيرة تقع في الجنوب الغربي. و في الشرق تمر الأقنية القديمة التــي كانت تغذي قصر الحير و هو قصر ما تزال آثاره المهيبة منتصبة على بعد (٣٠) كم من الجنوب الشرقي.

---

[١] على بعد (١٥) كم من شمال الطيبة و على طريق السخنة إلى الفرات، عند مخرج فتحة الطيبة. بحسب رأي شعبي حول اشتقاق الكلمة، ربما كان اسم (الكوم) أو (القوم ،لأن أهالي السخنة يلفظون القاف مثل الكاف) أطلق على هذا المكان بسبب كثرة عدد (القوم) من اللصوص الذين كانوا يستريحون فيه عبر غزواتهم. و لكننا في الحقيقة نجد فيه كلمة (كوم) القديمة التي تعني تلة.

الكـــوم مأهولة منذ زمن طويل[1] و كما حصل في الطيبة قضت غزوات العنزة على تجمع الأعراب فيها في نهاية القرن الثامن عشر[2]. و نحـــو عام ١٨٦٠ أعيد إعمارها كما حصل أيضاً في الطيبة حيث أغرى تدفـــق المياه أحد المرازقة و يدعى دندل فأقام فيها برفقة بعضٍ من أهالي السخنة من السفيرة و معظمهم من منى عفي[3]. ثم أحدث باشا دير الزور[4] فيها مخفراً للدرك[5] فبدأ المستوطنون يفدون إليها.

اقتصر تاريخ الكوم على نزاعات مع البدو: السبعة و الفدعان و تمـــيّز بارتكـــاب جريمتـــي قتل لم يتم التعويض عنهما[6]. بدأت الحرب و اختفى في العام ١٩١٧ اثنان من جنود الأتراك المتبقين هرباً من المجاعة و كانا قد مكثا في القرية ثم أصبحا من عداد الفلاحين كباقي جيرانهما في الـــبلدة. و بعد عدة أشهر و في نهاية فصل الشتاء قام السبعة العبدة تحت قـــيادة برجس بن هديب زعيمهم الأكبر و ابن دحيم من العرفة قاموا –بعد

---

١ راجع بوادبار (المرجع السابق، ص ٨٠ و اللوحة ٧٢) ؛ موسيل (منطقة تدمر ص ٧١)

٢ المستوطنون الذين عدوا للاستقرار فيها و جدوا بيوتاً خربة حديثة العهد من الطوب.

٣ يبدو لنا أن ما قام به دندل ليس سوى استعادة ملك قديم لعائلته و إن كنا لا نملك الدليل على ذلك.

٤ اشتهر لدى البدو باسم "أبو الروس" بسبب الرؤوس التي قطعها (و هو دون شك عمر باشا)

٥ أربعة من الدرك و صف ضابط أقاموا في بيت عبد الله الشويح الحالي عند سفح التل.

٦ المخاتير هم بالتتالي: سليمان العلي (حتى حوالي ١٨٨٠) و عليوي السليمان (١٨٨٠ – ١٩٠٠ تقريباً) عبد اله السليمان (١٩٠٠ – ١٩١٠ تقريباً) حسين الحميدي (١٩١٠– ١٩١٧).

تخريب الطيبة- بنهب الكوم التي هرب أهلها إلى السفيرة[1]. و أتى بعض أقارب الهاربين من السخنة لحراثة الأراضي في الأعوام اللاحقة.

عام ١٩٢٧عاد اللاجئون تحت إمرة عنوزي بن عوض الجاسم[٢].

و منذ ذلك الحين بدأت المشاكل مع آل السبعة و استمرت. عام ١٩٣١ ، كاد عُربان إبن مرشد (بطينات) أن يخلوا القرية بالكامل[٣] و أعادت الحكومة المهاجرين إلى ديارهم. عام ١٩٣١ وقعت حادثة مع الرسالين و هم فخذ من السبعة بطينات فتسببت أيضاً بحركة نزوح[٤] و كانت مواسم الصيف الأخيرة أكثر هدوءاً.

---

١ لجأت عائلة إلى السخنة و أخرى إلى عيثة ، قرية في الزور (٢٠ كم غرب الرقة) و بقيت فيها.

[٢] اعتبرت القرية من حينه بمثابة أرض (جفتلك) أي أن السكان أصبحوا مستأجرين للأراضي من الدولة و يترتب عليهم أن يدفعوا لها خمس الغلة. و لكن عام ١٩٣٤ حصل عشرة من السكان -مقابل دفع مبلغ كبير من المال- على أن تعتبر القرية ملكاً أميرياً و بالتالي تصبح الضريبة ١٢,٥% فقط. و لم يقبل عبد الله الشويخ المساهمة في دفع المال و تنازل عن حقه في ملكية الأرض قرب الكوم و عاش في بيت قرب نبع الماء الذي يملكه.

[٣] لم يبق سوى ٤ نساء و ٣ شيوخ و لجأ الآخرون إلى السفيرة (و بقوا فيها عدة أعوام) و إلى السخنة و الزور: كثيرون وضعوا أنفسهم مؤقتاً تحت حماية البدو (عبدة أو عمارات). و ما كان بمقدورهم أن يكونوا في أمان في أي مكان آخر (راجع بهذا الخصوص دوغيتي ١٠٩، المرجع السابق، ج ٢ ، ص ١٠٩)

[٤] اتهم أحمد ابن عنوزي لكونه تعامل بعنف مع امرأة بدوية بينما يقولون في الكوم بأنه لم يفعل سوى الطلب منها ، ومن النساء اللواتي يرافقنها) بأدب و لطف ألا تسرقن الخضار من أحد البساتين. و وصل الهجانة في الوقت المناسب كي لا تتأزم القضية. و قد برهن أحمد على براءته حينما قبل أن يكوى بحديد محمر على لسانه على يد الشيخ الراوي من دير الزور.

على الرغم من رسوم (الخوة)، بلغت المعاناة من البدو حداً جعل سكان القرية مقتنعين بأنه يمكن لبدوي أن يقتل ستة أو سبعة قرويين دون دفـــع تعويــض (كذا). تحمّل الحضر المستقرون هذا الوضع، فلقد اعتادوا علـــيه: مكانـــتهم هـــي الأخـــيرة في مجتمع الصحراء و لكن هذا لا يقلل شعورهم بأنهم ينتمون إلى هذا المجتمع. إذ أن كل ما يصيب هذا المجتمع -حـــتى و لـــو استفادوا منه فيما بعد- يبلبل بأعينهم نظام الأمور الطبيعي فيبدؤون بالتأثر عليه[1].

يســـكن في الكوم اليوم (١٩٣٥) عشرون عائلة كلها تقريباً كما ذكـــرنا، منحدرة من مني عفي من السفيرة ما عدا ثلاث عائلات من مني خلف[2]. و لكي نكمل تعداد السكان نذكر بعض خيمٍ للبدو ألزمهم البؤس و الضيق بالتوقف عن الترحال[3].

[1] فرض استتباب الأمن يوفر للمواطنين الأمان و يحفظ أموالهم و لكنه يهدد تنظيمهم الاجتماعي القائم على التجارة في صحراء تسيطر عليها القبائل.

[2] لنضف إلى ذلك عائلة من مني عفي من السخنة و عائلتين من الأفاضلة (شوايا الزور) و كان جدهم بعد زواجه امرأة من آل عفي قد تبنته هذه المجموعة. و يقيم بنو عفي في شمال و شرق التجمع، أما بنو خلف ففي الجنوب الشرقي. واحد من أهل الدير هو طه بن مصطفى أفندي يملك فيها أراضٍ يزرعها بواسطة المرابعين و لكنه لا يملك بيتاً.

[3] عام ١٩٣٢ كان يوجد فيها خيمة لآل بو خميس و اثنتان لآل فردون و ثلاثة للعمور. عام ١٩٣٥، استقر الخميسي، و هو صياد محترف قديم، في تدمر بشكل نهائي و عمل سقّاءً. ففي هذه المدينة حيث يكثر عدد الشباب كان يأمل تزويج بناته، الأمر الذي يوفر له بعض سعة العيش. عادت اثنتان من خيام العمور إلى حياة الترحال أما الثالثة فما زالت هنا. من بين الفردون قام أحدهم بتشييد بيت في مكان خيمته و الآخر سكن بيتاً قرب مني خلف. و وصل بدو جدد أخيراً و بشكل خاص رجل سبيعي و هو من عائلة عريقة عاش بائساً تحت الخيام و كان عبيده يعملون بأيديهم و بنوا بيتاً من الطوب.

فـــي وســـط البلدة، بالإضافة إلى بيت المختار، يشاهد "المنزول" حيـــث يستقبل الضيوف و بيت "السيد" الذي وافته المنية من وقت قريب و قطعة أرض مختارة لمشروع بناء الجامع العتيد.

نمـــط حـــياة الســـكان في الكوم قريب جداً من نمط حياة سكان الطيبة. نلاحظ أن ليس لديهم تقريباً جمال و بالتالي لا يملكون قوافل. غير أنهـــم يحاولون تربية الثيران[1]. أما أعمال المهن فتدر ربحاً ثانوياً. و لكن يـــبقى مـــورد الملـــح الذي يعمل في استخراجه بعض الأفراد إضافةً إلى معرفة في تصنيع الخشب و الحديد. و لكن يبقى أنهم كلهم مزارعون.

يغـــذي النبع الكبير، المسمى عين الكوم، بساتين تنتج الكثير من الخضـــار[2] و بعـــض الفواكه. و باقي الينابيع الكثيرة و الغزيرة تجعل من الكوم نسخة عن الطيبة التي تفوقها ازدهاراً بقليل. هذه اليانبيع هي :

١- عين الكوم ، النبع القديم و له عدة مالكين ، الدور ١٦ يوماً
٢- عين الكوم ، النبع الجديد و له ١١ مالكاً، الدور الحالي ١٠ أيام و هو قيد التعديل بسبب التوسع الزراعي.

بينما معظم بيوت الكوم هي عبارة عن أبنية على شكل قوالب السكر مثل بيوت السفيرة و شمال سورية ، فإن بيوت قدماء الرحل هي أكواخ من الطوب أو الطين لا يتجاوز ارتفاعها مترين و عرضها متر و نصف بسبب نقص الخشب. بالمقابل نرى فيها التقسيم إلى قسمين كما في الخيمة.

١ جُلبت أربعة من رؤوس البقر عام ١٩٢٧ من السفيرة و قد ماتت كلها. ينوي المختار استقدام رؤوس أخرى.
٢ اشتهرت الكوم بشكل خاص بالفجل إذ يصل إلى حجوم كبيرة جداً قريبة من حجم الشوندر.

٣- الجبيب، له ٦ مالكين ، الدور ٢٤ يوماً

٤- الكويم (أو عين بيت موسي) ، ٤ مالكين يزرعون معاً.

٥- عين بحري، ٥ مالكين ، الدور ٢٠ يوماً

٦- عين السبيخة ، مالكان يزرعان سوية.

٧- عين المحيسن، ٣ مالكين ، الدور ٥ أيام

٨- عين عبد الله الشويخ، مالك واحد

٩- عين مني علي، مالكان ، الدور ١٠ أيام. هذا بالإضافة لعدة عيون صغيرة أخرى.

و هنالك سبب آخر يساهم في تشابه الكوم مع الطيبة وهو أن الكوم ليست جالية تابعة للسخنة و إنما هي تابعة لسكان السخنة المقيمين في السفيرة. و واقع الأمر أن السكان في السفيرة بتعاملهم مع منطقة سوريا الشمالية، أصبحوا أشبه بالقرويين و بالشوايا. هذا يفسر كون بيوتهم بشكل قالب السكر(قباب) و باقتنائهم عدداً قليلاً من الجمال و بميلهم لتربية الثيران و معرفتهم بالمهن اليدوية و بقلة نشاطهم في التجارة بين القبائل.

و لكن الكوم على الرغم من بؤسها ، و بوجود المختار فيها و السيد و المنزول و الجامع الذي سيبنى فيها قريبا،. تعتبر قرية سورية يسكنها حضريون قدامى منذ زمن طويل. من هنا يشعر سكانها بخوف كبير من البدو و بالمقابل بشجاعة أكبرفي استثمار الأرض.

السفيرة

السفيرة بلدة ذات بيوت شبيهة بقوالب السكر (قباب) قائمة على بعد ٢٥ كم شرقي حلب و ليست بعيدة عن ملاحة جبول الكبيرة. يغذي نبعُها الكبير ساقية ماء دائمة. و يوجد فيها إضافةً إلى ذلك أربعة ينابيع أخرى و عدد كبير من المضخات. البساتين و المزروعات فيها مزدهرة (تكثر في هذا المكان و تتميز بوضوح الزراعات على شكل شريط). كان البدو يجبون قديماً من السفيرة رسوم "خوّة" (إبن هدّال و إبن جبين). و في أيامنا نجد العديد من الرحل و رعاة القطعان. كيّار و أبرز و حديدين الخ ... و كذلك العنزة الذين يخيمون صيفاً حول البلدة و يقيمون علاقات عمل مع سكانها.

يتكون السكان المقيمون على هذه الأرض الزراعية القديمة من :

آ- أربعين بيتاً من الحلبيين و كلهم من التجار. (و تعتبر السفيرة بالنسبة لحلب بمثابة مركز انطلاق نحو الصحراء و الفرات).

ب- هنالك الكثيرمن الرحل المستقرين كالحديدين و البقّارة و عقيدات و الأفاضلة (هؤلاء الأخيرون مستقرون منذ أكثر من ٦٠ عاماً) و كل هؤلاء مزارعون و جمالون أيضاً.

د- و أخــيراً هناك ثمانون بيتاً من أهالي السخنة[1] و على الرغم من توزعهم على حيين، يعترفون بزعيم واحد هو عميّر الخليف من مني عفي[2].

منذ ثمانين عاماً استقر المستوطنون الأوائل نهائياً في السفيرة. و كـانوا قـد مـرّوا فيها) و غالباً ما مروا فيها خلال هجراتهم السابقة. و أحفـادهم يزرعون فيها ثلاثة أو أربعة بساتين كبيرة حيث تنمو الكرمة و الخضـار؛ و مـن جهـة أخرى ما زالوا متعلقين بنمط حياة آبائهم. و هم السكان الوحيدون في البلدة الذين يعملون في القلي. و هم يتاجرون إضافةً إلـى ذلـك مـع البدو في الجوار. و كانوا ينقلون الملح قديماً إضافةً إلى الصـودا و الصوف و الزبدة و لا يهملون التجارة بالأنتيكات أو البضائع المهـربة. باختصار، يدينون بأكثر مواردهم إلى مهنتهم كتجار في القبائل و فـي القوافـل. و من الغريب في الأمر أنهم ما زالوا متميزين عن باقي سكان السفيرة على الرغم من مرور عدة أجيال من العيش جنباً إلى جنب.

لســوء الحظ، ضربت الأزمات الجمالين بقوة فانهارت الأسعار أمام منافسة الشاحنات. لم يفقد سكان السخنة في السفيرة الأمل بالمستقبل. لـم يشتروا بعد السيارات و يرفضون هجر ذلك الحيوان الذي شكّل لمدة طويلة عماد ثروتهم.

---

١ مني عفي ستون بيتاً تقريباً ، مرازقة إثنا عشر ، مني خلف ثلاثة، مني عيبان اثنان، مني رحمة واحد

٢ والده خليف الوهاب كان زعيم بني عفي من السخنة و المهاجرين. جده وهّاب و أخو جده علي كانا قد قادا جماعة كبيرة من المهاجرين.

حماة

يوجد في حماة، شرقي المدينة و قرب نهر العاصي، حي يدعى "حارة السخانة" يسكن فيه قرابة أربعين إلى خمسين بيتاً. و أغلب سكانه من مني مقيبل و الباقي من المرازقة باستثناء عائلة واحدة تنتمي إلى مني عفي.

يفضلون التزاوج فيما بينهم و لا يبدو أنهم قطعوا علاقتهم ببلدتهم الأم مثلهم في ذلك مثل إخوتهم في السفيرة. لكنهم، و من جراء احتكاكهم بالحمويين، بدأ بعض أغنيائهم بالانصهار لأن جاليتهم أصبحت قديمة الإقامة[١]. أكثرهم غني يعمل في إقراض الأموال[٢]. و يملكون قرى صغيرة[٣] و هنالك ٥ أو ٦ رجال ميسورين يملكون دكاكين و لكنهم يشكلون أقلية. و لا نجد بينهم حرفيين سوى صانعين يعملان في برادع الجمال[٤]. أما الباقون على الرغم من أنهم ماعادوا يعملون كجمالين فما زالوا يحنّون إلى حياة الفيافي. و الفقير البائس منهم (متعيّش) يعمل حمالاً يتجول على حمار أو حمارين بين المدينة و البدو مربي القطعان في المعمورة. أما الغني فيمارس قبل كل شيء التجارة في الصحراء و المدن البعيدة فيما وراء الصحراء. و منهم عدة باعة جمال يقومون بالتجارة من بغداد و الموصل إلى مصر حيث يبيعون حيواناتهم . و هنالك العديد من

---

١ حتى و إن لم تكن حموية الأصل بالكامل . على كل حال، مني مقيبل كانوا متواجدين في حماة في بداية القرن ١٩.

٢ و هي مهنة حموية أكثر مما هي سخنية.

٣ الحاج أحمد الناصر، من المرازقة، يملك ثلاث قرى أو أربع في منطقة الحمراء

٤ و هي مهنة تناسب رجال قوافل أصبحوا مدنيين.

الآخريـــن يكتفون بشراء قطعان الخراف في المناطق الجنوبية من العراق و بتصريفها في الأسواق السورية. و يعيشون هكذا حياة الرحل عدة أشهر فـــي العـــام و ينـــتجعون الكلأ مع الرعية[1]. وكذلك يزدهر أيضاً في هذه الجالية التجارة بالآثار و العمل في التهريب.

هـــنا تراجعـــت الحدود كثيراً مع الصحراء و تشكل حماة و نهر العاصي شريطاً أخضر في هذا السهب و كان هذا الشريط منذ قرون يبدو كثـــير الشبه بخضرته بنهر الفرات و دير الزور في يومنا هذا. و قد ظلت حماة سوقاً بدوية لكثير من القبائل: مني خالد، السبعة، الموالي، الحديديين الرعـــية علـــى مختلف أنواعهم إلخ ...... و كان لا بد لأهالي السخنة أن يشعروا فيها بالراحة و اليسر.

ليســـت ظاهـــرة تعاطي الربا على نطاق واسع في حماة بجانب العمـــل فـــي التجارة مع الرحل و بالشعور الديني الشديد بالأمر المدهش. فإنـــنا نعـــرف المكانة التي كان يحتلها منذ الهجرة[2] و مازال في عمليات الـــتجارة مـــع الجزيـــرة العربية[3]، كما نعرف الأشكال التي يضفيها عليه المســـلمون الأتقـــياء فـــي العصر الراهن. بل ربما كنا سندهش لكونه لم يســـتأثر باهتمام أهالي السخنة لو أننا نعرف بأن فقرهم حال دونهم ودون

---

١ أكثرهم غنى ، الذين يأنفون الجهد، لا يتنقلون. و لكن إخوانهم الأقل يسراً يعملون لصالحهم.

٢ راجع لامنس، مدينة الطائف العربية عشية الهجرة، ص ٢١٠ و ٢٤٨

٣ راجع دوغتي (المرجع السابق، ج ٢ ، ص ٣٨٧). نقداً ، النسبة هي ١٥% في السنة . عيناً، يسترد الريال ريالاً و نصف تمراً أو قمحاً بسعر المحصول أي بأخفض سعر (!).

تقليد مهنة الحمويين في بلدتهم. أما بالنسبة للباقي فهم لا يترددون أن ينهلوا من حماة كل أفكارهم. و هكذا فإنهم يساهمون نوعاً ما بالنظام التجاري لهذه المدينة و ينشرون إلى البعيد الدعاية الإسلامية التي تنبعث منها. للخطباء في حماة أقارب أغنياء عديدون (آل الجيلاني). و يذكر آل العبد العزيز بأن أجدادهم لعبوا فيها دوراً ما. و حماة بالنسبة للجميع هي العاصمة الفكرية و الدينية و حتى الوجدانية مثلما حلب هي العاصمة التجارية.

دير الزور

تحتوي دير الزور على خمسين إلى سبعين بيتاً يسكنها قوم من السخنة و هي موزعة على حيين: حارة الجبيلي و حارة الحميدية[1].

استقر فيها القادمون الأوائل خلال الاحتلال التركي للمدينة و لحق بهم آخرون خلال الأعوام الأخيرة من جراء البؤس المتفشي في الصحراء[2].

هنالك عشرون مستثمراً تقريباً يقطعون و ينحتون الحجر في مقلع الشعبة (٧ كم غربي المدينة). و البعض الآخر منهم بناؤون. هذه المهن تفاجئنا لأن الرجال يقومون بها هنا بينما ، في ديارهم، يوكلون بكل ما يتعلق بأعمال العمارة إلى النساء. و على هذا فإننا نجد بأن تقديم

---

١ المرازقة (و بني رحمة) يشكلون تقريباً ثلاثين بيتاً؛ بني مقيبل مع من عيبان و بني عزام (٢ – ٣) قرابة عشرين ؛ و بني خلف و بني حيش قرابة خمسة عشر.

٢ إلاّ أن الكثيرين جاءوا إليها إثر حادث ما أو للتهرب من الخدمة العسكرية خلال الحرب.

المـواد إلـى مديـنة في طور البناء لا بد أن يبدو لهم مورداً للربح غير متوقع و ليس من طباعهم -كما رأينا- إهمال أي ربح من هذا القبيل.

مـن جهـة أخـرى، على الرغم من أن جالية دير الزور تلتقي بـالعديد مـن الأقـرباء خلال أسفارهم التجارية أو في قوافلهم، فقد كان احـتفاظها بشخصـيتها و تعلقهـا بالبلدة الأم أقل مما هو عليه لدى باقي الجاليات في المدن الأخرى[1]. ربما يعود سبب ذلك إلى أنها اختلطت ببيئة قريـبة مـن بيئتها الأولى فاعتبرت نفسها و كأنها لم تزل في ديارها فلم تشـعر بأنها معزولة وسط السوريين المدنيين. و ربما أيضاً لأنها وجدت نفسها منقادة نحو تنظيم تجاري في أوج تطوره و مختلف كلياً عن التنظيم القديـم القـائم في السخنة. مع ذلك، و باستثناء قاطعي الأحجار "الحجّارة" مازلنا نجد القليل من دلائل الانصهار مع باقي الديريين، و على الرغم من غـنى ضفاف الفرات لا نجد في دير الزور أي رجل من السخنة يمارس الـزراعة. البعض منهم انخرط في الجيش أما معظمهم فتجار أو جمالون أو عمـال قوافـل أو باعـة قطعان أو باعة جوالون في القبائل إلخ..... يتـنقلون في الجزيرة كما في بادية الشام. و سواء عملوا لبلدهم القديم أو الجديد فقد بقوا جميعاً أوفياء لأعمال آبائهم.

حلب

يوجـد فـي حلـب قرب باب النيرب و على الأطراف الشرقية للمديـنة علـى طـريق الصـحراء، مائـة بيـت يسـكنها قوم من أهل

---

١ و حتى إن البيوت ليست مجمعة في كل حي من أحياء دير الزور

السخنة[١] قدم أغلبهم من السفيرة و يتجمعون في حيين: بريت المسلخ و هو الأقــدم و حــارة السخانة و هو أكثر حداثة من الأول. تكونت هذه الجالية المزدهــرة منذ زمن طويل خلال الهجرات في بداية القرن التاسع عشر و لكنها بقيت على ارتباط بالسخنة حيث ما زال لأهلها أقارب كثيرون.

و ظل هؤلاء أوفياء لهذا الحي الذي يحمل جامعه اسم بلدتهم: جامع السخَانة، فقلّما يتزاوجون من خارج جاليتهم ؛ البعض منهم يملكون حوانيت و يصنعون البرادع. و يكاد جميعهم يعمل في المهن التي لها علاقة بجذورهم و أصلهم. فالفقير منهم يعمل دلالاً "سمساراً" أو دليلاً (و الكلمتان تؤديان معنى واحد) فهو يقف على باب المدينة الكبيرة ليرشد البدوي الذي يكاد يضيع في هذا المكان الغريب عليه. و يعلم الجميع كيف يتخوّف ذلك البدوي من المدينة، و من روائحها الكريهة و من كلام أهلها المعسول الذين يستغلون الغرباء و من التجار الذين يقيسون بمكيالين واحد للشراء و آخر للبيع[٢]. لهذا يسر البدوي بأن يجد حال وصوله رجلاً من السهب مثله –و قد يعرفه أحياناً شخصياً– لأن أهالي السخنة لهم مع القبائل علاقات لا تحصى. و يقوم الدلال أحياناً بتصريف بضاعة البدوي مباشرة بعد أخذ عمولته. و أحياناً أخرى، حينما يجهل الوافد الأسعار و لا يبتغي سوى سعر زهيد، يقوم الدلال بشرائها منه: و قبل أن يدفع له السعر يكون قد باعها و ربح بها. و في أغلب الأحيان يكتفي الدليل بتوجيه و إرشاد الغريب إلى خان عائد لأحد أغنياء السخنة.

---

١ يشكل المرازقة ٤٠ – ٥٠ بيتاً ؛ ثم يأتي مني خلف و مني مقبيل ؛ و لا يبلغ مني عفي سوى ٤ – ٥ بيوت فقط (خرجت منالسفيرة منذ أقل من ٢٠ عاماً إثر قضية ثأر).

٢ راجع لا ترون ، الحياة الريفية في سوريا و لبنان، الفصل الرابع.

بعد أن[1] ينتهي الأعرابي من بيع حيواناته و صوفه و سمنه يقوم الدلال بتعريفه إلى بعض التجار ليشتري منهم ما يلزمه للعودة من ثياب و مـؤن إلخ ..... و غالباً ما يتولى رجل السخنة المساومة على المشتريات لأن زبونـه غـير المعتاد على اساليب الباعة الملتوية يوليه كل الثقة. و مقـابل حصـوله على عمولة مشروعة، يدفع بالبدوي إلى إنفاق كل ماله - في دكان واحد أغلب الأحيان - و دفع ثمن حاجاته بسعر عالٍ. إن ما يـأخذه الـبدو من عمال القوافل في الصحراء يعوّض جيداً كما نرى مما يسـترده منهم في المدن الكبرى إخوة أصحاب هذه القوافل، فالبدوي دائماً تحـت رحمتهم. و هذا الأمر ليس بجديد. ففي مكة، و قبل الهجرة، كانت تنتشر "هذه الطبقة من الوسطاء الوضعاء الذين نميل إلى تسميتهم بطفيليي الصـفقات الـتجارية الكبرى"[2]. نرى إذاً أن أهالي السخنة ظلوا متمسكين بهذا التقليد القديم الذي كان متبعاً في الجزيرة العربية.

يمـارس كبار أغنياء الجالية نفس الاستثمار على مستوى واسع. و كمـا ذكرنا، يرشد الدليل زبائنه إلى أحد خاناتهم لقاء عمولة زهيدة دون شـك. و لكـن ما يعوضه عن بساطة العمولة هو الروح العائلية والسعي لكسـب مـودة زعيم قوي. و كثيرون يقصدون الخانات مباشرة بناء على توصية من الشيخ. و هكذا نكاد نستخلص بأن كل الجمال التي يبيعها البدو فـي المدينة -من العنزة أو من مربي القطعان- تمر عبر هؤلاء الوسطاء (كرشيد الطيار سابقاً).

---

١ أو في نفس الوقت لأنهم غالباً يلجؤون إلى المقايضة.

٢ راجع لامنس ، مكة عشية الهجرة ، ص ١١٠

و كغيرهم يعملون أيضاً في تجارة الحمير و المواشي الصغيرة[1]. قديماً كانت الأصواف و الزبدة تباع بشكل خاص عن طريق وسطاء حلبيين. أما اليوم فإن منافسة بعض أهالي السخنة حرمتهم تقريباً من كل الإنتاج الوارد من منطقة تدمر.

لا تتوقف فعاليات الجالية عند هذا الحد. فزعماء القبائل شبه مضطرين لمراعاة هؤلاء المستقرين الأغنياء لأنهم، و بنفس الحين، يمولونهم بمبالغ كبيرة و يستقبلونهم في ضيافتهم حينما ينزلون في المدينة و يؤمنون لهم الوساطة في مختلف أنواع الأعمال و حتى إنهم يمثلونهم لدى الحكومة.هؤلاء الوجهاء يلعبون، على مستوى أكبر، دوراً تجاه زعماء الرحل شبيهاً بالدور الذي يلعبه إخوانهم الأقل غنىً تجاه البدو متوسطي الحال: إنهم يسيطرون على شيوخ القبائل في بلاد الحضر. يؤمنون جباية حتى "الباغ" ، أي الضريبة المفروضة على القوافل، باسم الزعيم صاحب العلاقة و هو مدين لهم و خاضع لحمايتهم. و هكذا شأن رشيد الطيار، إذ لم يكتفِ بالتحكم بتجارة القلي و تجارة الآثار، كان يجبي إضافة إلى ذلك الباغ لصالح ابن قشيش(زعيم قبيلة خرصة من الفدعان). و لكونه وجيهاً رفيع المستوى في المدينة ، يتعامل مع كبار الموظفين من مبدأ الند للند. و يقال إن الجنرال الفرنسي بالذات يعتبره صديقاً

---

[1] لكي يشعر البدو بالراحة ، يمارس أصحاب الخانات تجاههم نفس طرق الضيافة البدوية : يعرضون عليهم المال قبل إبرام أي صفقة و يقدمون لهم عميلاً يسهل لهم عملياتهم (دون أن يخسر شيئاً بالطبع).

شخصياً[1]. لذا يعتز به أخوته في كل مكان و من كافة الشرائح الاجتماعية[2].

جالـية حلب تبدو لنا متجهة أيضاً إلى استثمار الصحراء و البدو ليس على شكل تجارة بدائية مع القبائل أو تجارة الجمال أو تهريب الآثار غـير المشـروع و لكن على شكل وسطاء مأجورين على أعمالهم، هذا بالنسـبة للناس الأكثر فقراً، أما بالنسبة للناس الأكثر غنى فيتم على شكل متطور جداً و معروف في الغرب تحت إسم "تروست"، أي كرجال أعمال يحاولون السيطرة الاحتكارية على المنتوجات الأساسية في السهب[3].

أتيـنا أكـثر مـن مرة في الصفحات السابقة على ذكر فقر أهل السـخنة و لكن وراء مجموعات الباعة المتجولين الفقراء و هذه الواجهة البائسـة من الفقر المدقع بشكل عام يختبئ بعض كبار رجال الأعمال : و رشيد الطيار هو النموذج الواقعي الأكمل منهم. أصحاب الأموال هؤلاء يفعلـون الـنظام: ففي جيوبهم يصب الجزء الكبير من ثروات الصحراء ويمكـن أن نعتبر أصغر جمال يتجول في القبائل وسط هذا التجمع البدوي الأبوي ممثلاً حياً لتنظيم رأسمالي قوي (بغض النظر عن النسب طبعاً).

---

١ ننقل هذه العبارة كما قيلت لنا ، و لكن مع كل تحفظاتنا .

٢ للمقارنة مع دوغتي (المرجع السابق، ج ٢ ، ص ٤٩٠) حول آل البسام ، وهم تجار أصلهم من العنزة، : " أليسوا تجراً كبار ؟ إي و الله ، ملوك أمراء جدة !".

٣ نـدرك بأن القرشيين الذين كانوا يمارسون تجارة من هذا القبيل منذ (١٤) قرناً، قال عنهم بـدوي بلهجـة سـاخرة: "بأنهم يدينون باسمهم إلى غول يسكن البحر، و أن جشعهم الذي لا يرتوي لن يتردد في افتراس بني البشر كما يفعل هذا الغول" (لامنس، مدينة الطائف العربية عشية الهجرة، ص ٢١٠).

الجاليات الأخرى

تملك السخنة إضافةً إلى ذلك بعض المستوطنات الأخرى الصغيرة.كل واحدة منها قليلة الشأن و لكن مجموعها يشكل بعدده و متاجره مراكز تجارة حقيقية، و متمماً ضرورياً لشبكة تجارية واسعة تصب في حلب في نهاية المطاف. و ظروف إنشائها و محافظتها على الاهتمامات القديمة تكمل إلقاء الضوء على ما نسميه بـ : حضارة القوافل.

في القريتين نجد عائلتين من مني عفي.

في تدمر نجد بعض بيوت للهجانة و الجمالين من مني خلف و مني عفي (إضافة إلى بني العيس الذين يعتبرون أنفسهم أقرباء لأهل السخنة).

في إرك نجد مجموعة من المرازقة[1].

برّي هي قرية صغيرة تقع بين عقيربات و سلمية يملكها الأمير غالب من سماعلة سلمية. عام ١٩١٨ استوطن فيها ٥ أو ٦ بيوت لمني خلف. و قد استقبلوا بحفاوة. و لم يفقد أهالي بري الاتصال مع أقاربهم و هم مستعدون أن يدفعوا معهم فدية الدم (المدة) و الخوة إذا اقتضى الأمر. ليس لديهم أراضٍ أو حوانيت . فبعد أن عاشوا على القلي و تجارة الآثار

١ و ربما كان هؤلاء أقارب لعائلة بابنسي الحلبية الكبيرة التي يرتبط بها قسم من أهل أرك (و منهم النائب أبو سكر)

اختصوا الآن في صناعة الفحم الخشبي و نجحوا فيه على الرغم من مضايقة رجال الدرك لهم.

و في سراع و هي من قرى الحرايج لحقت عائلتان من مني عيبان واحداً من أقربائهم كان قد هرب من التجنيد.

في تل ذهب شرقي حماة تعيش عائلتان أو ثلاث من مني عفي.

في عينة هنالك عائلة من مني عفي.

في حمص يوجد رجل من آل عفي و آخر من المرازقة و هما تاجران ميسوران غادرا السخنة لتجنب السوق إلى خدمة العلم.

في دمشق ما تزال تعيش عائلتان أو ثلاث من مني عزام منذ الفترة التي كان فيها العديد من آل السخنة يتوقفون في هذه المدينة مع جمالهم بانتظار الانطلاق إلى الحج.

في الرقة استقر ثلاثة من مني خلف منذ ٢٠ أو ٢٥ عاماً للعمل في تجارة الآثار و خلال فراغهم من عمل التنقيب على الآثار كانوا يتاجرون في القبائل.

في الميادين تعيش عائلتان من مني عفي و عائلة من مني خلف أقامت فيها منذ جيل و تمارس التجارة مع البدو.

إحدى هذه العوائل (من مني عفي) انتشرت في القامشلي منذ نشوء هذه المدينة التي ستزدهر. و قد جمعت ثروة بسرعة في أعمالها و

نشـــاطاتها ســـواء كان ذلك في السوق أو بين القبائل. و قد لحق بها حديثاً رجل عسكري من مني خلف.

و بعد استيلاء الفرنسيين على تل أبيض استقر فيها عشرون من مـــرازقة حلب و قد جذبهم و أغراهم ازدهار السوق و القرى التي استقر فيها الفدعان و سهولة أعمال التهريب.

و ربمـــا نجـــد رجـــلاً من مني خلف[١] يقطن في الكويت، على الخليج الفارسي (العربي)[٢].

جدول

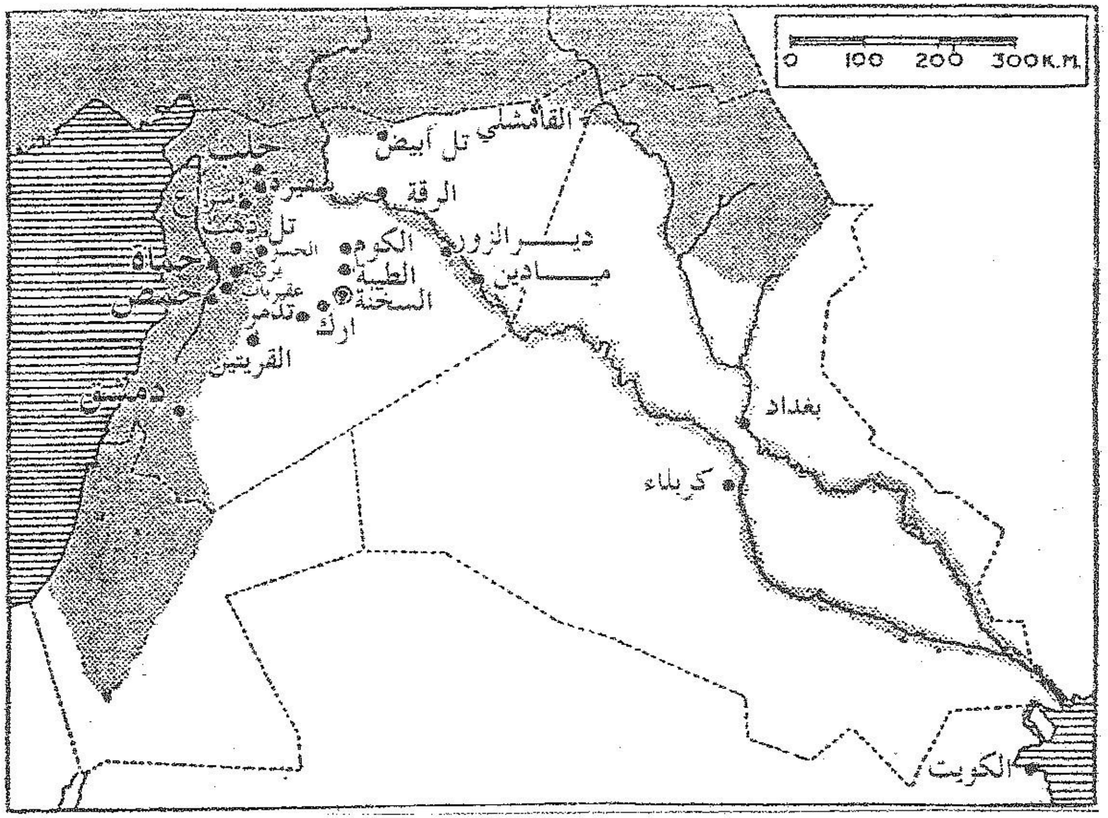
	مني خلف	مني مقبيل	مني عفي	مرازقة	إجمالي
السخنة	٦٠	٩٠	١٧	٣٠	١٩٧
طيبة	٣	٣	–	٥	١١
الكوم	٣	–	٢٠	–	٢٣
سفيرة	٣	٢	٦٠	١٣	٧٨
حماة	–	٣٠	١	١٠	٤١
دير الزور	١٥	٢٠	–	٣٠	٦٥
حلب	٢٠	١٥	٥	٥٠	٩٠

---

[١] إضافة إلى كل هذه المستوطنات علينا أن نذكر إنشاء بيوت لبني طلال في العقيربات ثم في الحسو يعتبرها التدامرة من أهالي السخنة. لنذكر أيضاً أن الخطباء لهم أقارب في بغداد و حماة و بأن (٣٠) عائلة من أقارب بني درغام ما زالت تعيش في كربلاء.

٢ على الرغم مما أكدته لنا مصادرنا في السخنة، فإن الأبحاث التي قام بها السيد الكولونيل ديكسون في الموقع لم تؤد إلى العثور على أي أثر له.

تل أبيض	–	–	–	١٠	١٠
بري	٥	–	–	–	٥
الرقة	٣	١	–	–	٤
حمص	١	–	١	–	٢
ميادين	١	–	٢	–	٣
عقيربات	٣	–	–	–	٣
الحسو	٢	–	–	–	٢
شراع	–	٢	–	–	٢
تل الدهب	–	–	٢	–	٢
دمشق	–	٢	–	–	٢
عيتة	–	–	١	–	١
إرك	–	–	–	١	١
تدمر	١	–	١	–	٢
قريتين	–	–	٢	–	٢
قامشلي	١	–	١	–	٢
كويت(؟)	١	–	–	–	١
موالي	–	٢	–	–	٢
إجمالي	١٢٢	١٦٧	١١٣	١٤٩	٥٥١



الشكل ١٨

السخنة و جالياتها

(المناطق المأهولة بالحضر مظللة بالرمادي)

من الغريب أن نلاحظ ، إلى جانب هذه المراكز التجارية الحضرية ، تلك التبادلات في السكان التي حصلت بين السخنة و بدو الموالي (و هم فخذ من الشويرتان). عاش مني بلبيل بشكل تناوبي في المدينة و القبيلة[1]، و عديدون من مني كلش عادوا إلى الخيام بعد قضاء سنين طويلة في بيوتهم في السخنة[2].

هكذا تشكلت، بدءاً من حياة البداوة، طريقة حياة وسطى بين الحياة الرعوية و الحياة الزارعية. و قد رأينا، فيما سبق، مثالاً على ذلك لدى أهالي السخنة الحضر إذ اشتروا خياماً من وبر الماعز للالتحاق بقطعانهم. ليست إذاً الضرورة هي التي دفعتهم إلى ذلك بل لا بد أن الجوع قد أنهك الأجساد و أربك السلام العقول لكي تندمج مجتمعات كانت حتى ذلك الحين على تناقض شبه مستعصٍ.

و لم تفلت الجاليات المدنية من هذا التأثير. إضافة إلى الأضرار التي أحدثها استتباب السلم و الأزمة التي أصابت تجارة الجمال، جاء تدهور الوضع في حلب ليزيد الطين بلة و يقضي على كل مبررات توسع السخنة التجاري.

---

١ و لهم أيضاً أربعة بيوت في حي السخانة في حلب.

٢ أحدهم ذهب ليستقر في الحسو حيث يمتلك أرضاً. و منذ أن عاد إلى حياة البداوة، عام ١٩١٧ عاش بين أهله في شويرتان، و كان يقضي الصيف في السجعة و هي قرية أمراء الموالي. و في الشتاء يقيم في الصحراء و هو يعمل دون انقطاع في التجارة و لم يعد أبداً للعمل في قطع الطرق.

في دير الزور و حتى في حماة سبق للمهاجرين أن انصهروا في الوسط المحيط بهم، و بدأ التنظيم التجاري الكبير الذي شكلوه بالتصدع.

لم تكن تلك آخر أزمة تصيب أهالي السخنة : بل إنهم يدينون إلى سلسلة من الأزمات بعبقريتهم و بتصميمهم العنيد اللذين يبرهن عليهما نجاحهم. ونستذكر الصفات العريقة لرجال القوافل الحجازية[1] أو لكثير من الحضر الحاليين من وسط الجزيرة العربية، تلك الصفات التي كانت موضع احترام البدو أنفسهم[2]. و ربما لن يتبقى لأهالي السخنة، بعد عدة أعوام، سوى التغني بهذا الرصيد المعنوي الوحيد على أطلال نظامهم الاستيطاني الواسع.

---

١ راجع لامنس، مدينة الطائف الحربية عشية الهجرة ، ص ٢٥١.

٢ ليس من النادر أن ينعت بدوي أهالي السخنة بأنهم بدو. هذا من قبيل المزاح دون شك و لكنه أيضاً لتمييزهم عن أهالي الواحات الأخرى (راجع ج.ب.ل. روسو رحلة من بغداد إلى حلب ، ص ١٥٦)

خاتمة

حاولنا طيلة قيامنا بهذه الدراسة أن نبرز خصوصية بلدة السخنة: حياة سكانها المادية غير المستقرة - و هي حياة مدنية و إنما مشبعة بتأثير روح البداوة - و الحياة الدينية التي يغذيها إيمان كإيمان المسلمين الحضر وحياتهم الاجتماعية المشوبة برواسب بدوية قديمة. و أخيراً عرضنا لتنظيمهم الاقتصادي الاستثنائي الذي يستثمر السهب و ينتشر حول كل ما يحيط به.

و لكن إذا كانت هذه الظواهر جلية فهي لا تشكل بنفس الحين وقفاً استثنائياً لأهل السخنة لأننا ما نزال نجدها في أكثر من واحة تمر فيها القوافل.

بخصوص الهجرات التجارية، نذّكر بوضع العجيل في القصيم و حتى المزابيين في جنوب الجزائر[1]. يعتبر دور السخنة و السفيرة -و هما بمثابة بابين لحلب على البادية الشامية- شبيه بدور الضمير تجاه دمشق، و دور قبيسة و كربلاء تجاه بغداد، و دور زبير تجاه البصرة، و دور تل كيف تجاه الموصل و دور الطائف التي كانت تشكل آخر اكبر استراحة على الطرق القادمة من عدن و صنعاء إلى مكة في فترة الهجرة[2]: ففي

---

١ لديهم الكثير من نقاط التشابه مع أهالي السخنة. (راجع ج. مارسيه ، المرجع السابق، ص ٥٩٤)

٢ راجع لامنس، مدينة الطائف العربية عشية الهجرة ، ص ٢٠٨.

كــل مكـــان كان هناك دائماً مدينة هامة يحيط بها مركز أو عدة مراكز تابعة.

يبدو إذن أن باستطاعتنا تتبع أطراف الجزيرة العربية، من اليمن و الحجـــاز حـــتى الحـــدود السورية التركية و مجاري أنهار العراق دون الـــتوقف عـــن مشاهدة هذه المراكز التي تعيش من التبادل بين الرحل و الحضر[1]. و قد أخترنا المدينة الأكثر سهولة للدراسة لأنها من بين الأكثر قـــرباً و الأكثر صغراً و الأكثر كمالاً. كان حقل دراستنا ضيقاً دون شك. لكنـــنا نجد للسخنة أشباه عديدة في أطراف الصحراء[2] لذا يبدو لنا التعميم ممكناً.

---

[1] إن التراصف داخل البلدان المزروعة تشكل خصوصاً عتبات اقتصادية في سوريا يجدر بنا مقارنتها مع ما أسمته روما قديماً "الحدود الحصينة" (راجع بوادبار ، المرجع السابق). ألم يسيطر رجال الأعمال في روما، اقتصادياً و سياسياً، على طرق الشرق باحتلالهم نقاط العبور الحتمي للقوافل؟.

مـــع ذلـــك ، لـــيس هناك أي تضامن بين هذه المدن المتراصفة. ليس فيها ما يشبه منظمات الواحاتالتي نصادفها في أماكن أخرى (المزاب، مثلاً) . فهي لا تتخذ بمجموعها وضع مراكز تجارية متغلغلة في العمق و تغطي كامل أراضي الحضر ، و إنما، كل مدينة في منطقة تدمر تشـــكل لوحدها مركزاً مستقلاً معزولاً عن جاره و منافساً له. تنظم التجدارة باتجاه الداخل : فالسخنة تعمل لصالح حلب؛ و تدمر أصبحت تعمللصالاح حمص بعد أن كانت لحلب؛ القريتين وجـــيرود و الضمير لصالح دمشق. و كما أن هذه المدن تسيطر على نقاط العبور على خط جبلـــي، نَجِد في العراق خطاً مناظراً له يتألف من كربلاء و الرحالية و قبيسة تتحكم بكافة ممرات الفرات و تتنافس فيما بينها بالطبع.

قبيسة، و هي أبعد تلك المراكز جنوباً، هي نسخة عن السخنة، و لكنها نسخة أكثر تحضراً على الرغم من تغلغلها في الصحراء.

٢ راجع بوركهارت، ، ج ٢، ص ٢٤٥.

السهب و الريف المزروع هما منطقتان مختلفتان بقدر ما هما منطقتان ضروريتان الواحدة للأخرى. فأطرافهما إذن مسرح لتبادلات تجارية واسعة جداً. فالعداء الذي يؤلب على الدوام التجمعات البدوية ضد الحكومات الحضرية[1] يقود كافة أشكال التجارة نحو مدن القوافل. و لا يمكن أن تدرس الحياة الاقتصادية في الجزيرة العربية إلا هناك.

تجلب تأثيرات الغرب معها انحطاطاً عاماً لهذه البلدات العاملة في التجارة. من هنا نفهم التخوف من الغرباء و التعصب اللذين واجههما كثير من المسافرين: هذا السلوك المحلي يشبه تقريباً ما يسمى بسياسة حماية الاقتصاد التي تلجأ إليها سواء في أوروبا أو في أميركا البلدان التي تصبح فقيرة. لكن التبادلات عبر الصحراء لا يمكن أن تزول. إنها و بكل بساطة تنوّع طرقها حينما تظهر وسائل نقل جديدة. إن الطرق التي تسير بمحاذاة خطوط النفط أو التي تصل دمشق بدير الزور و ببغداد تحلّ محل الطرق القديمة للخليج الفارسي (العربي)[2]. و بالمقابل، هناك طرق قديمة تعود لترى النور من جديد في هذه المناسبة (مثلاً طريق الحج من بلاد فارس مروراً بنجد). هكذا تنتقل رؤوس خط التجارة و تتباعد مواقع المحطات و لكن هناك دائماً مدن تجارية على أطراف البلدان المزروعة

---

١ إلى درجة أن موسيل يعتبر هذا الحقد أحد الأسباب الرئيسة لتجزئة الجزيرة (!). (راجع نجد الشمالي ؛ ص ٣٠٣ – ٣١٦ – ٣١٧)

٢ أحد هذه الطرق كان ينطلق من حلب و يسير على حدود سهول البادية الشامية عند فتحة طيبة على مقربة من السخنة(راجع تافرنييه ، المرجع السابق، ج ١ ، ص ٣٩٢ ؛ بارسونز، المرجع السابق، ص ٨٤ و ما يليها).

كمـــا هناك أماكن استراحة في الواحات مثلما و كذلك الحال دائماً بالنسبة للمرافئ و المحطات على البحار.

غـــير أن استتباب الأمن يحرم مدن القوافل امتيازاتها التجارية. و لكـــن هذا الاستتباب الأمني لا يمكنه أن يتحقق إلا بالسيطرة على البدو الذيـــن كـــانوا يسـيطرون علـــى المـــناطق الآهلة في كل زمان. و تحل الضـــرائب محـــل رسم "الخوة". خلال الاجتياحات، احتل الأعراب حقولاً لـــيحولوها إلى مراعٍ : و ها هم الآن يرون المحراث يعمل في كل مكان تـــرعى فـــيه جمالهم. و في نفس الوقت كان استقرار القبائل يتماشى مع اندفـــاع القروييـــن إلى مواقع الرعي الصغرى و تعمل على جعل الحدود الصـــحراوية مـــرابع رعـــي للماعز و الخراف وسط حقول متوزعة في كافةالأراضـــي المـــروية كفاية (كما حصل في منطقة تدمر في الأزمنة القديمـــة) . و لكن انتصار الزراعة على تربية القطعان، و هو عبارة عن تـــأقلم مـــع الضـــرورات الراهنة، يولد و يتطور حول تجمعات القوافل القديمة التي تلعب دور الخميرة في هذا التحول. و نجد هذه التجمعات في قلب الاقتصاد الجديد و هو اقتصاد زراعي و رعوي في آن معاً، كما هي في قلب الاقتصاد القديم المنحصر بالتجارة.

هـــذه القرى كانت مناطق حيادية و قد كانت دائماً ذلك للناس و للبضـــائع علـــى حـــد سواء: فهي تصل البدو بسكان المدن و تخفف من التصـــادم فـــيما بيـــنهم، كمـــا تفعل قرى الحضر المنتشرة على أطراف الصـــحراءالتي تشـــكل "نقاط التقاء" بين الرعاة و الفلاحين. من هنا و من الناحية الاجتماعية هنالك أشكال من الانتقال بين حياة البدو و حياة المدينة

يجـدر ملاحظتها كما يجدر ملاحظة الانتقالات لدى البدو الذين يباشرون زراعة الأرض.

في واقع الأمر، طرأ انقلاب حقيقي فقرّب لأول مرة بين الحضر المسـتقرين و البدو الرحل. و هذا التطور طال الضفة الغربية في الأردن و حـتى الحجـاز حيـث الفوارق أقل بين نمطي الحياة[1]، أكثر مما طال مـنطقة تدمر. ما زال اعتبار هيبة القبائل قائماً دون شك و لكن يُعبّر عنها بأشـكال عاطفـية و دون أن يكون هنالك حرص حقيقي على العودة إلى حـياة الخـيام. و فـي الحقيقة كل الناس يهولون بالكارثة[2]. و ليس رجال القوافـل اسـتثناء مـن هذا الوضع. و لكن مع عودتهم لطلب المرعى و بسـبب زيجـاتهم في المدن و بين البدو و مستوطناتهم المدنية و في نفس الحيـن التبادلات السكانية بينهم و بين الأعراب ، بسبب كل ذلك أصبحوا فـي طلـيعة هذه الحركة. و أصبح الانصهار أكثر فعاليةً عندهم مما هو علـى أطـراف السهب كافة. و بعد أن سمحوا طويلاً بانتقال نمط الحياة الـرعوية إلى نمط الحياة المدنية بالتدريج، ها هم يقومون الآن بدور نواة لمجتمع جديد هو حصيلة كل هذه التمازجات بين البشر.

---

[1] في مناطق بائسة حيث لا يستطيع العيش فيها أنصاف الرحل، حلّ ابن سعود المشكلة عن طريق جالياته من الـ "إخوان". سوف نلاحظ من جهة أخرى بأنه قد وضعها غالباً في مواقع استراتيجية هي بنفس الحين مواقع متعلقة بالقوافل. لنذكر مستوطنات في ضواحي وادي سرحان (راجع موسيل، نجد الشمالي، صفحة ٢٩٦).

[2] فحتى القرآن يعتبر أن الحياة الرعوية هي الحالة الطبيعية للإنسانية.(راجع لامنس، مدينة الطائف عشية الهجرة، ص ٣٠٣)

و فـــي المجال الروحي ليس هناك مجال لحدوث الانتقال. فليس هـــناك حـــل وسط ممكن بين الإسلام التقي الورع في المدن و بين تدين الأعـــراب الغامض الجاف الذي يُدخل الله في نظامهم القبلي[1]. إن واحات القوافل هي إذن تارة ، مقر للتمسك الديني الإسلامي و تارة أخرى قواعد انطـــلاق الهـــرطقات الكبرى التي تستخدم شبكة مستوطناتها التجارية من أجل الانتشار. من هنا أهميتها على مستوى الحركة الفكرية.

طالمـــا يـــبقى الإسلام حياً في القلوب فالدور الديني لهذه المدن يظـــل راســـخاً، و فـــي كل مكان تنتشر فيه دعاية هذه المدن تصبح هذه الدعايـــة بالنســـبة للمجـــتمعات البدوية خميرة تفكك جديدة: و في البادية الشـــامية نلمـــس لمـــس الـــيد تأثير المركزين: الرياض و حماة. نعرف معارضـــة الوهابيين لحياة الترحال و نلاحظ اتساع حركة الاستقرار على طول نهر العاصي المتوسط. و هكذا انضمت لدين الرسول العربي قوات جديـــدة دون أن تتخلى عنه القوات القديمة. و هذا ما جرى على الأقل في أطـــراف الســـهب. و مـــا تكاد الأزمة الاقتصادية تخف حتى يزداد عدد الحجاج[2]: و زاد الاحتكاك بالصهاينة جذوة حماس المسلمين في فلسطين و فـــي الأردن. واســـتمر الغليان الديني في أطراف الصحراء دون هوادة. يساهم أهالي السخنة، من أكثر شخصياتهم ورعاً إلى باعتهم المتجولين، و

---

١ راجع جوسن و سافينيك، عادات الفقراء، ص ٧٥ ؛ و لونز ، المرجع السابق، ص ٤٨٢ ؛ و . مارسيه ، المرجع السابق، ص ٨٦ : " لكي يحقق الإسلام هدفه الأسمى الاجتماعي و الديني ، ليس بمقدوره الاستغناء عن الحياة المدنية."

٢ في العام ١٩٣٦، ذهب ٥٠٠ شخص، من البدو و الحضر، من منطقة تدمر إلى مكة المكرمة بينما لم يبلغ عددهم قبل ذلك بثلاث سنوات أكثر من خمسين.

معهم كل رجال القوافل في تغذية هذا الغليان كل حسب امكانياته على الرغم من ضعفها.

أخيراً، نعلم من خلال التاريخ أن الدور الاقتصادي و روح الفردية الاجتماعية و التأثير الديني للواحات التجارية لا يمكن إلاّ أن تؤدي إلى نتائج سياسية. فهي في الواقع تتحكم بالطرق و مراكز المياه. و تحميها الصحراء من الجيوش الأجنبية. و بالعكس، غنى المناطق التي تحيط بالسهب و التي لا يحميها شيء من المحتل، يؤجج الطمع لدى كل أبناء البلدان القاحلة. من هنا، عندما تقوم حكومة نظامية في الواحات يكون لديها احتياطي عسكري قوي نسبياً. إن المعدات القوية التي تمتلكها الدول الناشئة حول الجزيرة العربية لتحمي حدودها الصحراوية، هذه المعدات تخفف من خطر الاعتداءات عليها، و لكن الجزيرة العربية الوسطى ما زالت مركز شعوب متجمعة مسيطر عليها و هي تشكل ضغطاً قوياً و جاهزة لتفلت من عقالها. قوات الملك فيصل الحجازية أو اجتياحات الوهابيين الحديثة لم تقم سوى باتباع طرقات قديمة على هدى أمثلة قديمة. و نعتقد أن دراسة التنافس بين الواحات يمكنها أن تضيء لنا كل سياسة القوى العربية[1]. فإذا كان وضع الفوضى السائد بين البدو يدفعهم إلى التقاتل فيما بينهم بدلاً من الغزو، فالحضر يشكلون عصب الحركات الكبرى[2].

---

١ راجع مارسيه (المرجع السابق، ص ٦٤٠) :"الصراع بين قرية وقرية ، بين حي و حي، يشكل التاريخ الأزلي للواحات.

٢ راجع لامنس، مدينة الطائف العربية عشية الهجرة ، ص ١٢١. و . مارسيه ، المرجع السابق، ص ٨٨.

بين ابن رشيد و زعماء مدن القصيم قديماً و بين الشريف الكبير و أمـــراء الســـعودية حديثاً المتنافسين على حجاج العراق[1] و بين زعماء أهالـــي الســـخنة منافسيهم في تأمين الجمال للحج، ما أكثرأوجه الشبه بين أولـــئك و هؤلاء. و بين قتال الوهابيين و الهاشميين على الواحات الشرقية للمـــدن المقدسة[2] أو بين قتال الشعلان ضد ابن سعود على الجوف[3] و بين منافسة الشيخ مرعي و الشيخ أحمد الساعيين إلى توسيع ممتلكاتهما و إلى الاســـتئثار بينابيع الطيبة، نقول بين أولئك و هؤلاء لا نجد فرقاً في طبيعة الـــنزاع. و نســـلّم بـــأن في الطيبة، هذه البلدة ذات البيوت الإثني عشر البسيطة، تكون هذه التعقيدات في حدها الأدنى.

و مـــن وراء الشخصيات غير ذات الشأن التي أتينا على ذكرها في الصفحات السابقة من كتابنا، نعتقد أننا تفحصنا نموذجاً مختصراً لحياة الحضرفي الجزيرة العربية و نأمل أن نكون قد وفقنا في إحيائه.

---

١ راجع فيلبي ، المرجع السابق، ص ١٥٤ و ١٩٧ ؛ موسيل ، نجد الشمالي، ص ٢٦٠

٢ مثل "خرمة" (راجع فيلبي ، المرجع السابق، ص ٢٦٨)

٣ راجع موسيل ، نجد الشمالي، ص ٢٩٦.

ملاحظة بخصوص الأشكال و اللوحات

لم يرد في المتن الشكلان ٨ و ١٠ و ذلك لتطابقهما مع اللوحتين ١ و ٢ في آخر الكتاب.

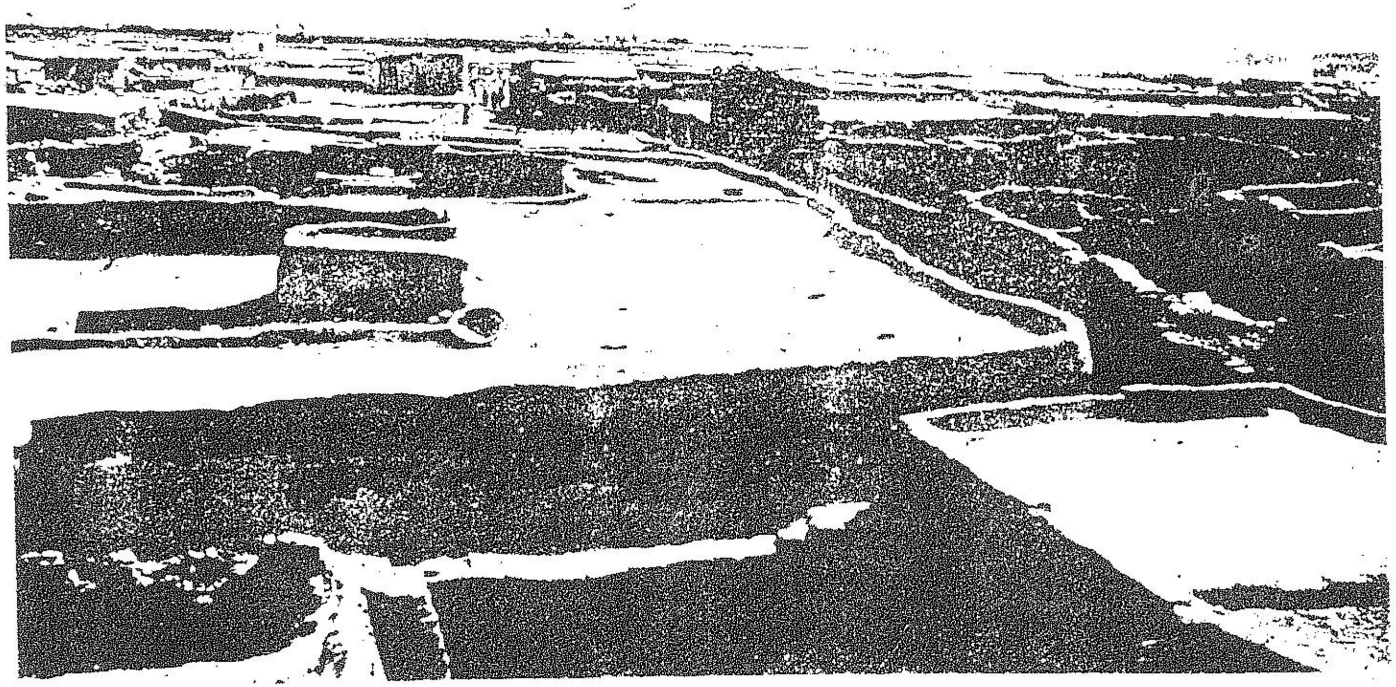
لـــم نتمكن من استنساخ اللوحة رقم ٢ بسبب عدم وضوحها إلاّ أننا حافظنا على الأرقام كما جاءت في الكتاب لتسهيل الرجوع إلى الكتاب الأصلي عند اللزوم.

اللوحة ١



التجمع السكني في السخنة

اللوحة ٣

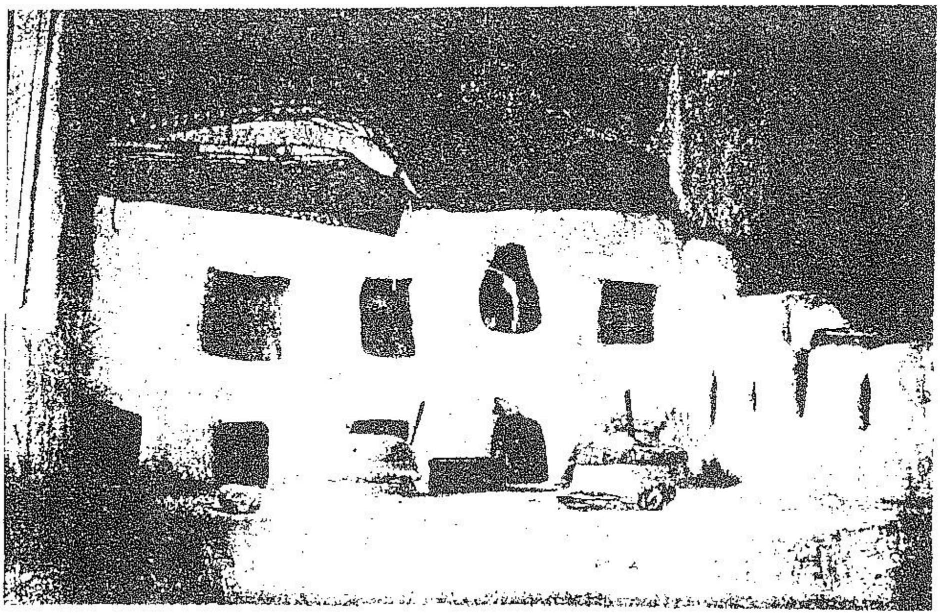


السخنة : منظر ملتقط من القلعة (٣) باتجاه الجنوب. السوق (١) يمر باتجاه مركز الصورة . عند منعطف السوق و أول شارع على اليمين نرى برج الجامع المتهدم (١٠) (تشير الأرقام إلى الشكل رقم ٢)

اللوحة ٤

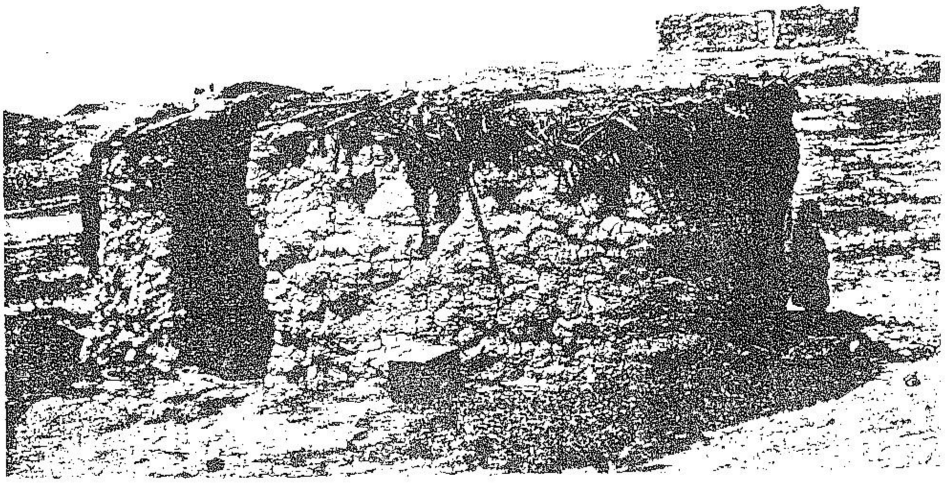


تجمع فتيات بمناسبة زواج



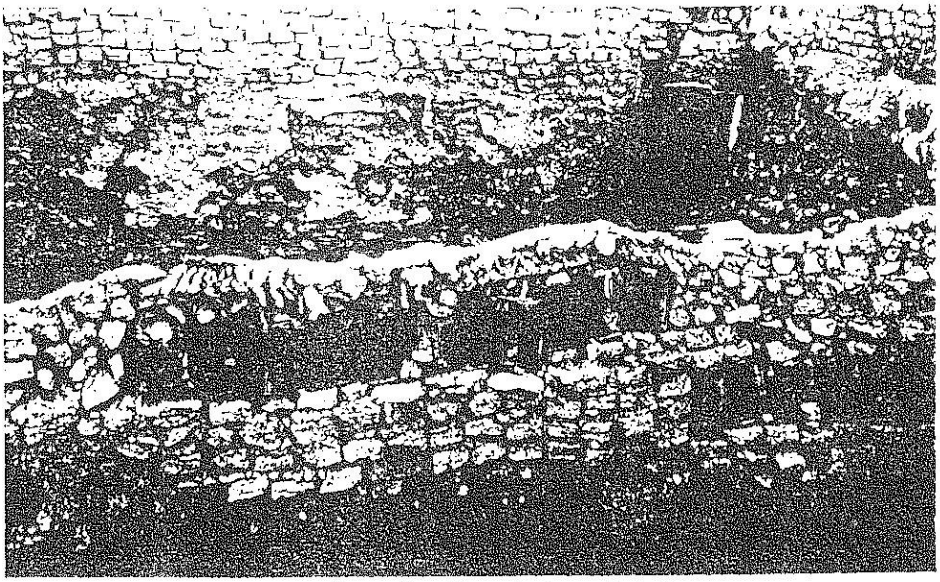
بيت المونة : نلاحظ تقطيعات الغرفة و التجاويف و فتحات الاتصال مع غرفة الاستقبال ، و الطواحين اليدوية و الفرش

اللوحة ٥



الكوم . منزل بناه عام ١٩٣٤ بدوي من الفردون

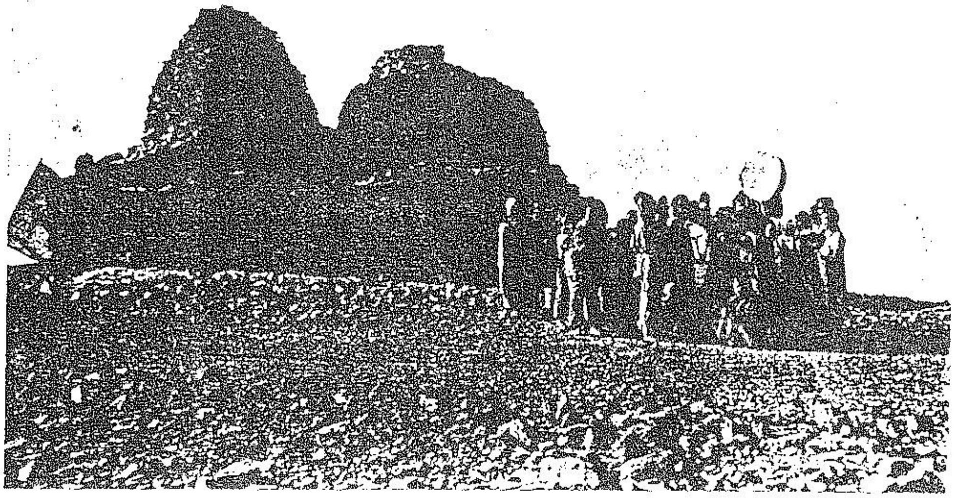
نلاحظ أبعاد المنزل الصغيرة و بشكل خاص العرض الذي يحدده طول العوارض (عصي أو عواميد خيم). لا حظ أيضاً المواد غير المتجانسة التي تشكل السطح و بشكل خاص ستار



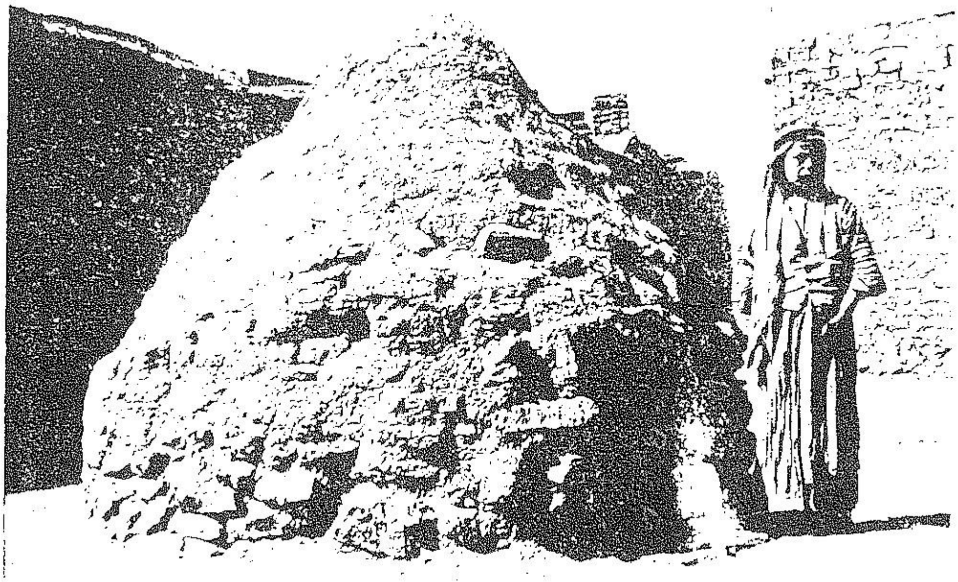
السخنة ، جدار تصوينة بستان صغير

لاحظ أواني الوقود و هياكل الجمال

اللوحة ٦



السخنة: زيارة الأولاد يوم الجمعة لضريح الشيخ واصل
إلى اليسار، راية خضراء و الخطيب الذي يختفي خلف المزهر



مقام الشيخ خضر الأخضر . فوق الفتحة آثار دماء الأضاحي

اللوحة ٧



سخانة ورعون ينتظرون ساعة الصلاة (منظر ملتقط من سطح الجامع)



السخنة : النبع الرئيسي ، الحمام



اللوحة ٨

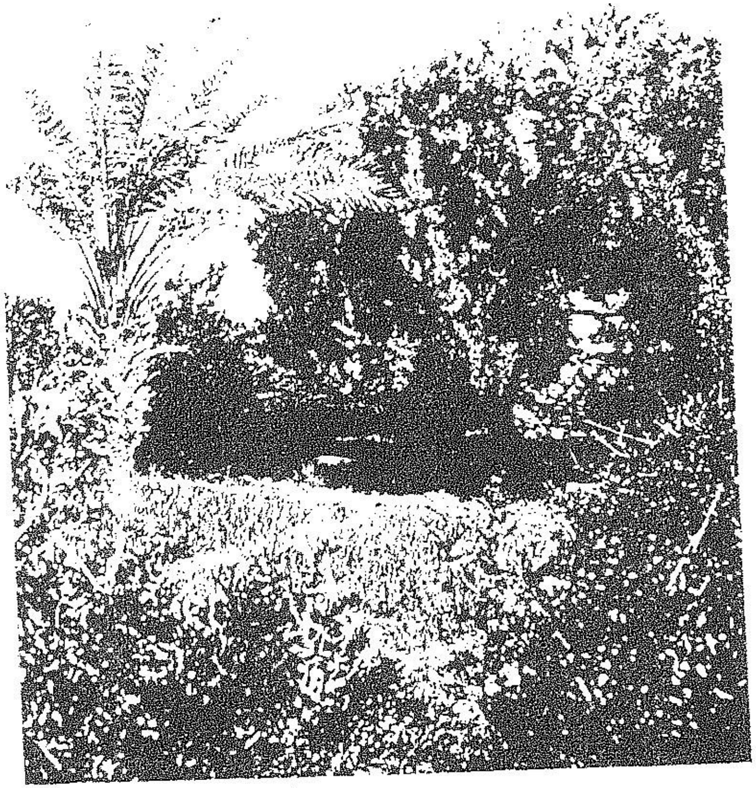
الكوم : غرفة استقبال زعيم (الشيخ عنوزي ابن عواد (مواجهة) . نلاحظ القنطرة و التجاويف.
لاحظ أيضاً أدوات القهوة و سرج الجمل و شكل الأشخاص البدوي

اللوحة ٩



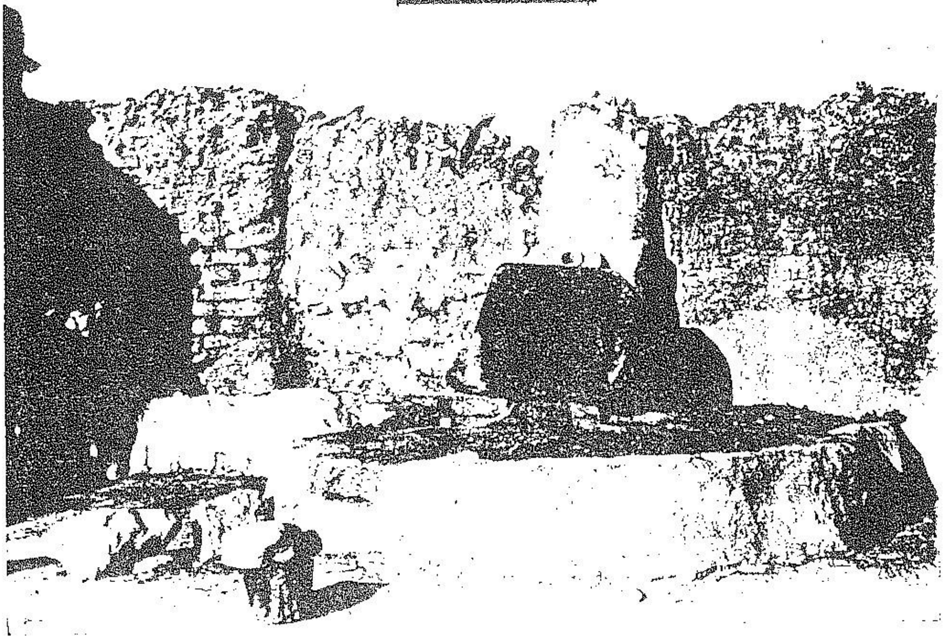
١- شارع في السخنة

لاحظ شكل الرجال البدوي ، في القسم الخلفي : باب قديم

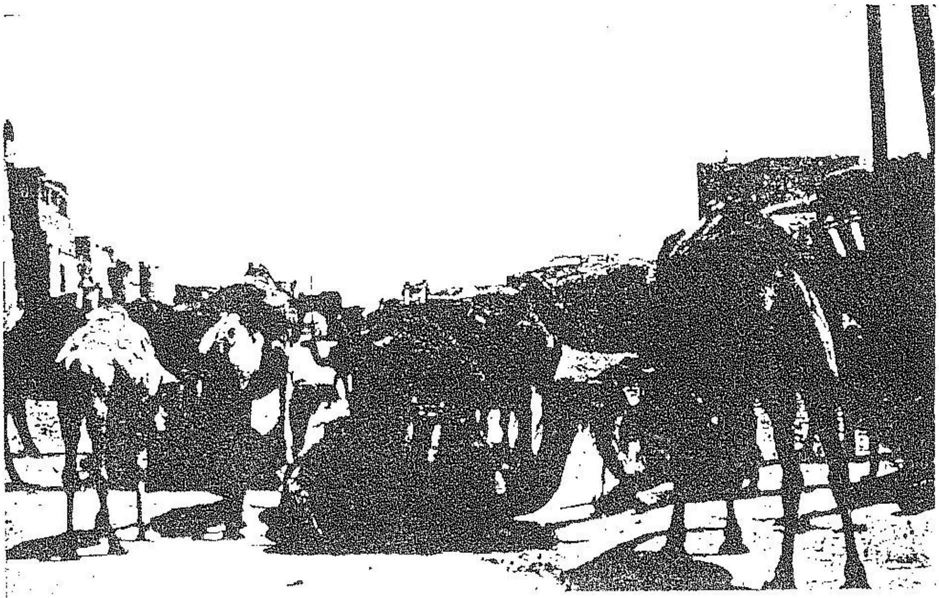


٢- بستان في السخنة (نخيل و زيتون)

اللوحة ١٠



معصرة بطم



جمال قوافل السخنة بعد تنزيل البضائع في حلب

السخنة الحدث

Alsoukhnah Alhadath